الكتاب السنوي ٤



المخلص المتألم

تأملات في أحداث الأسبوع الأخير من حياة المسيح

تأليف

فردريك كرومافر

تعريب

فؤاد حبيب

الطبعة الثانية

١٩٨٥

لجنة خلاص النفوس للنشر

اسم السلسلة: الكتاب السنوي رقم الكتاب بالسلسلة: ٤ العنوان: المخلَّص المتألم

تأملات في أحداث الأسبوع الأخير من حياة المسيح

المؤلف: فردريك كروماخر

المترجم: فؤاد حبيب سنة الإصدار: ١٩٨٥

تقديم الكتاب... (للمعرب)

شغل الكثيرون بالكتابة عن قصة آلام مخلّصنا التي وقعت حوادثها منذ ألفي عام تقريباً، وحتى الأعداء الذين لم يستفيدوا من ثمرة هذة الآلام وقفوا مبهوتين أمام معاني التضحية وإنكار الذات التي تنعكس من على الصليب. ويعد هذا الكتاب أروع ما كتب في هذا الموضوع، وقد أخرجه كاتبه تحفة رائعة من الأدب الروحي الرفيع، وفي أسلوب شيق جذاب يتناول بالدراسة والبحث أخطر وأعظم قضية وهي "فداء الإنسان".

وإذا تعرضنا لأسلوب الكاتب نجد فيه دقة الوصف في رواية الأحداث، وبراعته في تصوير المشاهد، وتحليل الشخصيات، وقد آثر أن يستعمل صيغة الحاضر في كلامه، وكأنه يرى الأحداث وهي تتمثل أمامه، وكأنه يجلس مع التلاميذ ويستمع إلى أحاديث الرب الأخيرة، وكأنه ينقل إلينا على أمواج الأثير تفاصيل المحاكمة التي أجريت ضد رب المجد، وكأنه يسير مع الجمع الثائر وهم يقودون البار إلى الصليب، وكأنه شاهد عيان لما كان يدور فوق رابية الجلجثة، ثم لما حدث عند القبر.

وفي كلامه عن المخلَّص المتألم لا يستفيد فقط على ما ذكره البشيرون الأربعة الذين رأوا بعيونهم "كلمة الحياة" وأكلوا وشربوا معه، وليس فقط على ما كتبه بولس الذي

ظهر له الرب أخيراً "كأنه للسقط"، لكنه يعود بنا من الأول إلى ما كتب عنه في موسى والمزامير والأنبياء، ويميط اللثام عن الحقائق اللاهوتية المستترة في طيات الأسفار المقدسة، وكأنه يستدعي هؤلاء جميعاً: موسى وداود والأنبياء والتلاميذ والرسل، ويطلب إليهم أن يصور كل منهم ما رآه، وبينما تنتقل الصورة من الواحد للآخر، تضاف إليها خطوط جديدة، ويزداد وضوحها شيئاً فشيئاً، ويزاح الغموض عنها، إلى أن يظهر أن المتألم الإلهي البار الذي تكلم عنه الأنبياء في القديم هو بعينه يسوع الذي من ناصرة الجليل الذي تحدث عنه البشيرون، وأن موضوع فداء البشرية هو الفكرة الأساسية لكل ما دوّن بين ضفتي الكتاب المقدس، ونجد أنفسنا في النهاية وجهاً لوجه أمام ذلك الفادي الذي استحق أن يستأثر بكل عواطفنا ومحبتنا.
ويعالج الكتاب موضوع الخطاة الذي ارتبط ارتباطاً وثيقاً بالآلام التي احتملها المخلص، فإن كانت اللعنة التي تستقر على الخاطئ تمنع رحمة الله من أن تجزل لهم خيره، وإن كان عدل الله يقضي بأبادة الإنسان الذي تعدى وصاياه، وإن كانت قداسة الله لا توافق على أن هذا الإنسان يمضي بغير عقاب، فأين إذاً محبة الله؟ ورغم أن الله قال "النفس التي تخطئ هي تموت" و"من أخطأ إليّ أمحوه من كتابي"، لكن الخطاة عاشوا إلى الأبد، وسجلت أسماؤهم في سفر الحياة... كيف كان ذلك والله لا يمكن أن ينكر نفسه ولا أن يتخطى صفاته الأدبية الكاملة؟ إنه لغز يجد حلاله في موضوع الآلام التي تحملها الشفيع.
ويقضي عدل الله والناموس الإلهي أن إنساناً لم يخطئ لا ينبغي أن يموت، وأن شجرة جيدة ومثمرة لا يجب أن تنقطع،

لكن ما رأيناه بخلاف ذلك، رأينا البار يتألم ويحتمل الموت، والسماء صامتة بغير أن تتتدخل لإنقاذه، ورأينا الشجرة الوحيدة الجيدة توضع الفأس عليها وتهوى إلى الأرض، فكيف يكون ذلك؟ إنه سر تكشف عنه حقيقة الآلام التي احتملها الوسيط. فعندما احتمل ابن الله الآلام النفسية والجسدية التي لا ينطق بها، عندما وقف ليحاكم عن تهم نسبت إليه زوراً وبهتاناً وهو ديان كل الأرض، عندما تحمل الاستهزاء الشديد من بلاط هيرودس وهو الذي اشتهي ملوك وأنبياء أن تكتحل عيونهم بمرآه، عندما ألبسوه رداء الأرجوان ووضعت قصبة في يمينه كأنه ملك هزلي بينما هو الملك الحقيقي الذي ستخضع كل الشعوب بولاء تحت سلطانه وستنحني كل ملوك الأرض أمام صولجانه، عندما بصق في وجهه وهو الذي من بهاء مجده تغطي السيرافيم وجهها بأجنحتها ومن وحهه ستهرب السماء والأرض ولن يوجد لهما موضع، عندما جردوه من ثيابه وهو الذي يتسربل بالنور ويرصع ذيل ثوبه بالنجوم، عندما رفع على الصليب بين لصين كمذنب وهو الذي لم يعمل إثماً ولم يوجد في فمه غش ـ كل هذا والسماء في صمت تبدو كأنها توافق على ذلك، واحتجزت آلات رجزها من أن تنتقم من الأشرار، ومنعت صواعقها من أن تنقض على قاتليه، ولم تدع جندها تسرع لنجدة البار، كيف ذلك؟.

إن المسيح في كل هذة المواقف كان يقف بديلاً عن الجنس الساقط، وفي هذه الحقيقة ـ الوساطة ـ نجد تفسيراً لكل أسرار آلامه، ولولا صفة الوساطة في آلام المسيح، لكانت آلامه تهز عرش الله من أساسه، الذي "الحق والعدل قاعدة كرسيه"، وكانت تنسخ كل الشرائع والأحكام، وتلغي

نواميس الله في الكون، وما كان لنا أن نؤمن بالكتاب المقدس، ولا بوجود جزاء للبار بغير ما سيجازى به الأثيم، لكن الكاتب يبرز حقيقة الوساطة في كل مشاهد آلام المسيح، ويضعها في إطار خاص، مؤكداً لنا من حين لآخر أن الله "جعل الذي لم يعرف خطية خطية لأجلنا لنصير نحن بر الله فيه".

ولا يفوت الكاتب في ختام قصة الآلام أن يشير إلى القيامة التي توجت المتألم الإلهي بالمجد، وبذلك يكون قد تكلم عن "الآلام التي للمسيح والأمجاد التي بعدها"، ولم يتركنا بغير أن يرينا لمحة من مجد القيامة، وإلا كنا قد غادرنا مكان القبر وفي القلب حسرة، وفي النفس أسى ولوعة، ونحن نردد بلغة الفشل: "كنا نرجو أنه هو المزمع أن يفدي العالم"، لكن أسد يهوذا الذي قيده ملك الأهوال، قام منتصراً وانفكت الأختام من على حجر القبر، ومن على أسرار آلامه وموته، لتعلن أمجاد ذاك الذي هو بهاء مجد الله ورسم جوهره وحامل كل الأشياء بكلمة قدرته.

فؤاد حبيب

المخلَّص المتألم

تأملات في أحداث الأسبوع الأخير من حياة المسيح

مقدمة عن حياة الكاتب

بقلم ولبرم.سميث

يعد هذا المؤلف أعظم ما كُتب في القرن التاسع عشر، عن الأحداث التي تتابعت في الأيام الأخيرة من حياة الرب يسوع في أسبوع الآلام المقدس، لما يحويه من تأملات روحية عميقة.

ولد "فريدريك ولهلم كروماخر" في ٢٨يناير ١٧٩٦ في بلدة مورس على نهر الراين، وهو الابن الأول لأب مشهور كان من رجال الدين ثم عُيّن أخيراً أستاذاً للاهوت والبلاغة في ديسبرج. وقد التحق فريدريك كروماخر بجامعة هيل الشهيرة (من ١٨١٥ـ ١٨١٧)، ثم من هيل ذهب إلى جينا حيث تتلمذ على يد أشهر الأساتذة الألمان. وجدير بالذكر أنه أثناء دراسته في جينا، تأثر ببعض كتابات والده عن "البشائر الأربع من حيث الروح والحرف" .وقد ساعدت هذة الكتابات ـ مع بعض المؤلفات التبشيرية الأخرى ـ على بقاء وهج روحي في قلبه في ذلك الجو المشحون بالدراسات العقلية.

وبعد أن اجتاز كروماخر امتحان اللاهوت بنجاح عُيّن واعظاً مساعداً في اجتماع الاصلاح الألماني في فرانكفورت، حيث بقى خمسة أعوام من (١٨١٩ـ ١٨٢٣) وبعد تسع سنوات من الخدمة في"بارمين" حيث كانت جماهير غفيرة تتقاطر على الكنائس لسماع الكلمة، ذهب إلى "البرفليد" وكان لخدمته هناك قوتها وتأثيرها فعُيّن على إثر ذلك واعظاً في برلين. وفي عام ١٨١٥ ألقى عظته المشهورة من (غلاطية ٢: ١٩، ٢٠)، وبسببها اندلعت نيران الانتعاش في حياة الكنيسة في"بريمين". وفي عام ١٨٤٧ عُيّن راعياً في كنيسة برلين، وقد أحس باندفاع الكنيسة المخيف نحو التساهل في الحياة والاهتمام بالأمور العقلية، وعندما ذهب إلى لندن في صيف عام ١٨٥١ لحضور المؤتمر التبشيري، قدم عرضاً عن "الحالة الدينية في ألمانيا وفسادها". وكان تأثيره عظيماً ليس في برلين وحدها بل في ألمانيا كلها، كواعظ وكاتب، ومدافع عن الإيمان المسيحي، وقائد للكنيسة، وكرجل الله، وقد عُيّن في عام ١٨٥٣ راعياً في

بوتسدام، وظل هناك حتى وفاته بعد ذلك التاريخ بستة عشر عاماً. ويعترف الكثيرون بحق أن كروماخر كان أعظم الوعاظ في ألمانيا في منتصف القرن التاسع عشر، ويصرّ البعض على اعتباره أعظم واعظ تبشيري في أوروبا كلها في ذلك الوقت.

الجزء الأول

الدار الخارجية

(١) الاعلان الرهيب

في الفصول التالية ستعرض أمامنا قصة آلام مخلّصنا بأسرارها الدامية ومشاهدها المثيرة التي تنطوي على معاني التضحية والبذل، فها هو "حمل الله الذي يرفع خطية العالم" يقترب من مذبح المحرقة، وتتراءى لنا من بعيد قيود وسياط، وإكليل شوك وصليب، وترن في آذاننا الكلمات السبع التي نطق بها المسيح وكأنها دقات أجراس جنائزية

تعلن نهاية مملكة إبليس، وكتباشير الحرية والسلام للجنس البشرى الساقط.
وكم من الأمور التي يبتهج لها القلب ستقابلنا في تأملاتنا، فمن أرهب مشهد شهده العالم ينبت فردوس سلام، ومع أبشع العذابات المبرحة ينبثق أعظم وأمجد انتصار ومن ذلك الوقت الذي لم يكن نظيره في الرهبة تنبعث حياة أبدية لا تضمحل. فما أن أجرى ربنا المبارك أعظم معجزاتة إذ أقام لعازر من الموت بعد أن كان له أربعة أيام في القبر، إلا وبدأ رؤساء الكهنة والفريسيون يتشاورون ليقتلوا يسوع. وعلى إثر ذلك، لم يعد يسوع يمشي بين السهود علانية بل مضى من هناك إلى الكورة القريبة من البرية إلى مدينة يقال لها " إفرايم ومكث هناك مع تلاميذه". وعندما أتى الوقت الذي فيه يسلّم، ثبت وجهه لينطلق إلى أورشليم. وإذ يرى ما هو عتيد أن يكون، يأخذ تلاميذه على انفراد ويتنحي بهم، فلديه أمور بالغة الأهمية لابد أن يفصح لهم عنها، والتلاميذ بدورهم إذ كان التدبير الإلهي يضع عليهم مسئولية بناء الكنيسة، تراهم يسرعون بكل اهتمام وقد تعلّقت أفكارهم به وأرهفوا السمع نحوه، ربما كانوا ينتظرون أن يسمعوا منه نبأ مفرحاً، أو يتوقعون أن يعلن لهم أن ملكوته عتيد أن يظهر في الحال في انتصار مجيد. ولكن يا لها من سذاجة وقصر نظر! كأن الخطية لم تسبب إلا اضطراباً عابراً في العلاقات بين الله والإنسان، أو كأنها لم تحدث سوى خدش بسيط يمكن معالجته إما بالصفح من جانب الرحمة أو بالاعتراف بالخطية من جانب الإنسان الساقط!. وإذ يفتح الرب فاه يعلن لتلاميذه المبهوتين في أسلوب واضح اقتراب آلامه، وفي نفس الوقت الانتصار الذي سيعقب هذه الآلام: "هَا نَحْنُ صَاعِدُونَ إِلَى

أُورُشَلِيمَ، وَسَيَتِمُّ كُلُّ مَا هُوَ مَكْتُوبٌ بِالأَنْبِيَاءِ عَنِ ابْنِ الإِنْسَانِ" (لو ١٨: ٣١).
ونلاحظ أولا، كيف أن هذه الكلمات تكشف عن تصميم الرب الثابت، فقلبه الذي ينبض بالمحبة جعله يثبّت وجهه نحو الصليب. لقد رفض بإصرار أن يقبل مشورة بطرس وألا يصعد إلى أورشليم لينجي نفسه، وكان جوابه له: "اذْهَبْ عَنِّي يَاشَيْطَانُ! أَنْتَ مَعْثَرَةٌ لِي، لأَنَّكَ لاَ تَهْتَمُّ بِمَا للهِ لكِنْ بِمَا لِلنَّاسِ" (متى ١٦: ٢٣). لقد رأى أن هذه الآلام التي هو مقبل عليها هي من تدبير الآب السماوي، فلم تكن نصيحة التلاميذ العكسية سوى تحريض نبع من إبليس، وكان سمعان بطرس بغير قصد منه، أداة له. لذلك لم تكن ثمة توسلات عاطفية تستطيع أن تحوله عن طريقه، وليس في مقدور التهديدات التي تنفثها البغضة القاتلة أن تمنعه عنه، فقد كان المجلس المتعطش للدماء قد التأم في أورشليم ليضع خطة الخيانة والغدر، ومع ذلك فوجهة يسوع لم تزل كما هي:"هَا نَحْنُ صَاعِدُونَ إِلَى أُورُشَلِيمَ". ورغم أن "بحراً أحمر" آخر كان يعج بمياهه الطامية عند قدميه، ورغم أن مئات الميتات كانت تنتظره، لكن لم يكن هناك شعور يختلج به قلبه سوى،"إننا صاعدون" فهذه هي إرادة الآب، وهذا هو الطريق نحو الغاية التي طالما اشتاق إليها برغبة حارة لأجل فداء العالم. ياله من تنازل عجيب، ويالها من طاعة لإرادة الآب! ويالعظم المحبة للخطاة كما ظهرت في عمانوئيل الكريم!.
"إننا صاعدون إلى أورشليم، وسيتم كل ما هو مكتوب في الأنبياء عن ابن الإنسان". في هذه الكلمات تظهر معالم الطريق لآلامه، فقد وجدها في " كلمات النبوة الصادقة"

التي فيها عرف ما سبق أن كتب عنه، وأطلع على مشورة الله من وجهته. إن كان يوجد أحد لا يزال يطلب براهين على توفر الوحي الإلهي في الأسفار المقدسة، فإنه يستطيع أن يجد هنا دليلا دامغاً، حيث يرى المسيح ملك الحق ينظر إلى الكتب المقدسة نظرته إلى السجل الصادق الذي يحوي اعلان أبيه السماوي. لقد ثبت الرب وجهه لينطلق إلى أورشليم، وكان غرضه كما اتضح لنا الآن ـ أن يتألم ويموت، فلابد إذاً أن يكون هناك أمر له أهميته البالغة يتعلق بموضوع آلامه، ويبدو كغاية للعمل الذي لأجله نزل من السماء وجاء على الأرض! وإلا لاعتبر مجرباً لله أن يندفع ليواجه الموت بعد أن أتم عمله كنبي، وكان الله قد عرض عدالته للوم في تسليمه بشخص القدوس الذي حفظ وصاياه، لينال الجزاء الرهيب كمذنب وأثيم. ولكن الآب الأزلي وضع في مشورته السابقة الجلدات، إكليل الشوك والصليب، قبل أن يفكر أولاد بليعال في ابتداع وسائل التعذيب هذه. وقد سبق الأنبياء ـ مسوقين بالروح ـ فأحاطوا صورة المسيا الذي تنبأوا عنه بهذه المظاهر من الآلام المبرحة، ومن ثم كان قول الرب: "وَسَيَتِمُّ كُلُّ مَا هُوَ مَكْتُوبٌ بِالأَنْبِيَاءِ عَنِ ابْنِ الإِنْسَانِ، لأَنَّهُ يُسَلَّمُ إِلَى الأُمَمِ، وَيُسْتَهْزَأُ بِهِ، وَيُشْتَمُ وَيُتْفَلُ عَلَيْهِ، وَيَجْلِدُونَهُ، وَيَقْتُلُونَهُ" (لو ١٨: ٣١، ٣٢). هذه هي العذابات التي مزجت في الكأس التي بحسب الحكمة والمشورة الأزلية كان الشيطان سيقدمها لابن العليّ، وكانت أبعد كثيراً جداً مما نعرفه عن الاستشهاد والتعذيب، والتنقية والامتحان. إن آلام ربنا لها معنى أكثر عمقاً، وإذا قرأنا النص الكتابي بتمعن أمكننا أن نكتشف الحقيقة، فيخبرنا البشير عن الكيفية التي بها تلقى التلاميذ اعلان سيدهم فيقول إنهم "وَأَمَّا هُمْ فَلَمْ يَفْهَمُوا مِنْ

ذَلِكَ شَيْئًا، وَكَانَ هذَا الأَمْرُ مُخْفىً عَنْهُمْ، وَلَمْ يَعْلَمُوا مَا قِيلَ" (لو ١٨: ٣٤).
إنه أمر يدعو للعجب! ومن ذا الذي لا تراوده الرغبة في الاستفسار عن سبب عدم فهمهم! لابد أنهم سمعوا جيداً ما قاله السيد عن آلامه وموته في أورشليم، ومع ذلك فيؤكد لنا لوقا أنهم "لم يفهموا شيئاً.. ولم يعلموا ما قيل". لا شك أن كل من يعتبر لآلام المسيح مجرد استشهاد كما حدث للقديسين الذين سفكوا دماءهم في سبيل الشهادة، مثل هؤلاء يشبهون التلاميذ الذين لم يفهموا المعنى الحقيقي لآلامه! ولم يدركوا السبب العميق الذي كان وراء المأساة التي اختتمت بها حياة المخلص!. صحيح أن الآب السماوي كان في إمكانه أن يأمر بأبادة الجنس البشري الساقط الذي تأصلت فيه الخطية، وبذلك يضع نهاية للشر، ولكننا خُلقنا لنحيا لا لنموت. وهكذا فلم يكتفِ الله بأن يجعل من خطية الإنسان أداة لإظهار كمالات الصفات الإلهية وخاصة المحبة، لكنه إذ قدم ابنه للموت، أعطى وسيلة للخلاص يمكننا بها أن نصل إلى درجة أسمى من المجد، وإلى شركة مع الله أعمق من تلك التي امتلكناها مرة في أبينا الأول، وأعظم كثير مما كنا سنصل إليه لو لم تدخل الخطية إلى حياتنا. لقد هيأ سقوطنا فرصة ليظهر الله أنه في دينونته للخطية لم يكشف فقط عن عدله، ولكنه مجد رحمته في غفران الخطية دون تعد على قداسته. لقد أخطأنا وتعرضنا للعنة، ولكن الكلمة الذي كان عند الله، وكان هو الله، صار جسداً، حمل عنا خطيتنا، ووضعت عليه آثامنا، ثم دفع عنا ديننا للعدل الإلهي الذي لا يمكن أن تُمتهن كرامته، ثم غطى عرينا ببره، وقدمنا للآب بلا لوم ومقبولين فيه. والملائكة إذ رأت هتفت

بالتهليل بسبب المجد الفائق الذي نلناه. لقد رفعنا إلى مقام نشاركه فيه غناه وبركاته وامتيازاته، وأقام لنا مساكن أمينة حول عرش الله، وربطنا بنفسه بربط المحبة والشكر إلى الأبد. هذا هو البناء الذي شيده القدير فوق حطام الخطية ولم يكن للتلاميذ في ذلك الحين أقل فكرة عنه، ولكنهم فيما بعد، فهموا تدبير الله لنوال الخلاص والسلام، وكم كان فرحهم حينذاك إذ عرفوا "سر التقوى العظيم"!.

(٢) سكيب الطيب

قبل يوم الصلب الرهيب بأربعة أيام، كان الرب يسوع في قرية بيت عنيا الآمنة، ضيفاً في بيت رجل يدعى سمعان. وما أن جلس على المائدة، حتى اقتربت منه مريم، يغمرها شعور العرفان بالجميل، والمحبة من نحوه. ولأنها تعلم بما سيأتي عليه قريباً تجد نفسها مدفوعة أن تكشف له عما يجيش في نفسها، وتريد للمرة الأخيرة أن تفصح له عما تحمله له في قلبها من احترام وتقدير، وأن تعبر عن عواطف ارتباطها المقدس به. ولكن كيف لها ذلك؟ فالكلمات تبدو عاجزة تماماً، ولم يكن لها المال الذي يمكنها أن تقدم له هدايا، كل ما تملكه كان قارورة طيب من ناردين خالص له قيمته في الشرق، ويستعمل فقط في مناسبات الاعياد، وإذا بها تحضره معها، وهي لا تنوي أن تسكب منه فقط بضع قطرات، ولكن أن يكون كله عربون تكريسها العميق لملك المجد. وبكل إجلال تدنو من صديقها الإلهي، وتأتي من ورائه وتكسر القارورة وتسكب ما فيها من طيب فوق رأسه وعلى قدميه، وبكل اتضاع تنحني على قدميه تمسحهما بخصل شعرها المسترسلة. "وامتلأ البيت من رائحة الطيب". نعم،

ولم لا؟ إن هذه لرائحة قد صعدت إلى عرش الله في السماء، واشتمها الملائكة الأطهار بسرور. وبهذا العمل الذي ينطوي على المحبة، أظهرت مريم مقياس تكريمها للسيد بصورة يندر الأتيان بمثلها. كانت رغبة مريم أن تكون للمسيح الآن وإلى الأبد، وأن تلتصق به بالإيمان، كما تتعلق النباتات المتسلقة بالأشجار فتلتف حولها. فلم تكن مريم تعرف باباً آخر للرجاء، ولا نبعاً للتعزية، ولا طريقاً للسماء إلا بواسطته، وكيف تتصور الحياة بدونه إلا أن تكون فريسة بين أنياب اليأس، فهو لها النبع الذي يكفي لخلاصها الأبدي. لقد تأثر كل ضيوف بيت عنيا بالعمل الذي قامت به مريم، ما عدا شخصاً واحداً بدت له هذه الموسيقى الجميله كأصوات مزعجة، حتى أنه اشمأز من رائحة الطيب الفيحاء، ولم يكن هذا الشخص سوى يهوذا التعيس، ابن الظلمة. ربما لم تحدث قط مفارقة كهذه، عندما وقفت محبة الذات مقابل الحب الدافئ المقدس، كما نراها هنا في هذا التعبير المقذع الذي نطق به يهوذا: "لِمَاذَا كَانَ تَلَفُ الطِّيبِ هذَا؟ لأَنَّهُ كَانَ يُمْكِنُ أَنْ يُبَاعَ هذَا بِأَكْثَرَ مِنْ ثَلاَثِمِئَةِ دِينَارٍ وَيُعْطَى لِلْفُقَرَاءِ" (مر ١٤: ٤، ٥). وا آسفاه! كيف وصل هذا الإنسان البائس إلى هذه الدرجة من السقوط! "الفقراء؟!"، وكأن السبب الحقيقي الذي لأجله فضل أن يُباع الطيب كان مخفياً عن سيده.

لكن كيف يقدر الرب يسوع عمل مريم؟ فهو كالشفيع الأمين ينبري سريعاً ليدافع عن مريم ضد يهوذا والتأثير الذي عكسته روحه المعتمة على نفوس التلاميذ، فيقول وهو يريد أن يعرف يهوذا أن السبب الحقيقي لاستيائه معروف لديه: "اتْرُكُوهَا! لِمَاذَا تُزْعِجُونَهَا؟ قَدْ عَمِلَتْ بِي عَمَلاً حَسَنًا!. لأَنَّ

الْفُقَرَاءَ مَعَكُمْ فِي كُلِّ حِينٍ، وَمَتَى أَرَدْتُمْ تَقْدِرُونَ أَنْ تَعْمَلُوا بِهِمْ خَيْرًا. وَأَمَّا أَنَا فَلَسْتُ مَعَكُمْ فِي كُلِّ حِينٍ. عَمِلَتْ مَا عِنْدَهَا. قَدْ سَبَقَتْ وَدَهَنَتْ بِالطِّيبِ جَسَدِي لِلتَّكْفِينِ. اَلْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: حَيْثُمَا يُكْرَزْ بِهذَا الإِنْجِيلِ فِي كُلِّ الْعَالَمِ، يُخْبَرْ أَيْضًا بِمَا فَعَلَتْهُ هذِهِ، تَذْكَارًا لَهَا" (لو ١٤: ٦ـ ٩). إنه هو الذي يضع المعايير لأعمال الناس، أن ما عملته مريم كان حسناً والعالم كله ينبغي أن يعرف أن هذا التكريس الذي أظهرته مريم من نحوه جدير بالتقدير، فكم يكون تقديره للشعور نفسه الذي دفعها لأن تأتي هذا العمل. ولكي يعلم به كل إنسان، أراد أن يسجل لها، وما تنبأ به قد حدث، فحيثما يكرز بالإنجيل في كل العالم يخبر بمل فعلته مريم تذكاراً لها حتى هذا اليوم.

لم يكن الرب يسوع يفرغ من هذا الحديث، حتى قيل: (وإذا واحد من الاثنى عشر الذي يدعى يهوذا الاسخريوطي ذهب إلى رؤساء الكهنة وقال ماذا تريدون أن تعطوني وأنا أسلمه إليكم؟ فجعلوا له ثلاثين من الفضة. ومن ذلك الوقت كان يطلب فرصة ليسلمه).

أين نجد مثل هذه المفارقة المثيرة، كما تتضح أمامنا بين عمل مريم الرقيق بما يحمله من محبة، والتصرف الممقوت الذي قام به ابن الهلاك التعس!! لقد ذهب بعيداً في ضلاله حتى صارت كلمات العطف التي كان ينبغي أن تؤول لخلاصه الأبدي وكأنها سم قتال، (ذهب) وأعطى ظهره للمخلِّص لأنه شعر به يكشف ما في داخله، ويمضي في الليل الذي ينتمي إليه كابن للظلمة، بل يندفع في ليل أشد رهبة وظلاماً من الليل المعروف. أمر يجعلنا نرتجف، ونمتعض من فكرة متابعة هذا الإنسان المسكين، لنعود في شوق وتلهف لنتابع يسوع ونسمعه يقول: (إنها ليوم تكفيني قد حفظته).

فقد كان يرى موته وقيامته في نظرة واحدة وإن تكفين جسده كان لابد أن يتم في حياته حيث لا تتوفر الفرصة للتكفين بعد الموت. لكن حيثما صادفت محبة يسوع مكاناً فلن يعوزها النشاط في تخفيف عناء الآخرين كما قال الرب: (الفقراء معكم في كل حين) وكانت كلماته كسهم نفذ إلى قلب يهوذا، فكان يعني بها أن مريم لن تُقصر في إظهار العطف عليهم (وأما أنا فلست معكم في كل حين).
يا من لم تُقبلوا بعد، ضعوا هذا في قلوبكم! إن يسوع لن يكون لكم أو معكم، بعد أن يكون الموت قد نشر أجنحته السوداء فوقكم، وبعد أن تكون حواسكم قد فارقتكم تحت وطأة المرض، ولم تعد رسالة الخلاص تستطيع أن تنفذ وسط غمرة الهواجس التي لا يمكن صدها. إنه لن يكون لكم بعد أن يكون الله القاضي العادل قد سلمكم في النهاية لأفكار الضلال لتجد لها مستقراً دائما في أذهانكم لأنكم قد قسيتم قلوبكم زماناً طويلا أمام نداءاته لكم بالتوبة. إنه لن يكون لكم بعد أن تباغتكم ساعة التجربة العظيمة (الأخيرة بوساوسها الجهنمية ومخاوفها القاسية، وعندئذ (تعثر قدماك على جبال العتمة). لن يكون لك بعد أن تصبح، وأنت في وفرة نجاحك، مع ذلك الرجل الذي تكلم عنه الكتاب إذ قال في نفسه: (يا نفسي لك خيرات كثيرة موضوعة لسنين عديدة، كُلي واشربي وافرحي، فأتاه الصوت: ياغبي، في هذه الليلة تطلب نفسك منك). فاهرب إذاً من الغضب الأتي، ولا تدع أمراً يعطلك عن الإسراع للمخلّص المبارك، الذي بنعمته الغنية وعدنا أن من يقبل إليه لا يخرجه خارجاً.

(٣) الدخول الانتصاري

(هل أنت هو الآتي أم ننتظر؟). هل هو الرب من السماء؟ هل هو ملك اسرائيل؟. إن أسئلة كهذه تتردد في قلوب كثيرين من بشر مخلصين. ويجيب العالم البعيد عن الله بالنفي، ومما يؤسف له أن حالة الكنيسة في هذه الأيام تبدو وكأنها تؤيد هذه الإجابة، لأنه إن كان الرب حقيقة يجلس على عرش القوة والمجد فلماذا يطغي الناس؟ وإن كانت مقاليد الأمور في يمينه فلماذا ينتصر الشيطان كثيرا؟ وإن كان يعلم بكل ما يجري على الأرض فلماذا لا يسكت أصوات المجدفين؟ وإن كان يتقلد سيف العدل الإلهي فلماذا لا ينتقم من الذين يتحدونه ويخربون كرمه؟ وإن كان قد دفع إليه كل سلطان فلماذا لا يظهر مجده بآيات وعجائب؟ وإن كان يستطيع بكلمه فمه أن يحي الموتى وأن يجعل البرية تزهر، فلماذا لم يقم خرائب الأمم الوثنية منذ القديم ويحول قفارها إلى بساتين؟.

إن كونه المسيح ابن الله قد تبرهن لنا بأعماله، فنراه يتقدم إلى أريحا في آخر زيارة له لأورشليم، وعند وصوله إلى جبل الزيتون يطلب إلى اثنين من تلاميذه أن يدخلوا القرية التي أمامهما وهناك يجدان أتاناً مربوطة وجحشا معها، فيحلاهما ويأتيا بهما. إنه يرى من على بعد، ما لا يمكن للبصر أن يصل إليه، يرى الدابة التي كان في حاجة إليها، وفي هذه المناسبة نستطيع أيضاً أن نكتشف عنصراً إلهياً يبرز في هيئة المخلَّص المتواضع، والتعليمات التي أعطاها لتلميذيه بخصوص الأتان والجحش تكشف لنا عن أنه قد دُفع إليه كل سلطان، إذ يقول لهما: (وإن قال لكما أحد شيئاً، فقولا له الرب محتاج إليهما فللوقت يرسلهما إلى هنا). إنه يقول (الرب)، وليس مجرد (السيد)، أو (يسوع الناصري)، بل

(الرب)، فهذا هو اسمه، يهوه، لقب الجلال والاقتدار الذي به يرتفع فوق كل خليقة. ولو كان مجرد ابن الانسان لما كان في امكانه أن يقول هذا القول من غير أن يعد مجدفاً، ولكنه يعرف نفسه من هو، وماذا يقول عن نفسه، فينطق بهذه الكلمات بقوة وسلطان.

ولكن هل سيقتنع أصحابهما بقول التلميذين (الرب محتاج إليهما) لكي يتركوهما يحلانهما؟. نعم بكل تأكيد سيقتنعون، والرب لم يكن يشك في ذلك، ولكنه عالم تماماً أنه وهو الرب من السماء ليس شيء غير خاضع له، وأنه يملك على كل شيء، وأن أباه السماوي لابد وأن يجعل لكلماته القوة والسلطان فبمجرد أن يتكلم ينفذ الأمر ويرسل الجحش مع الأتان. ليتنا نستفيق من اليأس الذي استولى علينا لننظر بعين الاعتبار إلى شخصية الرب كما تظهر أمامنا هنا، تشع بمجده الذي يسمو عن كل إدراك بشري. وجيء بالجحش مع أمه، فوضع التلاميذ ثيابهم عليه وجلس الرب عليه ليدخل أورشليم. ربما يبدو هذا عملاً تافهاً غير جدير بالملاحظة، ولكن نظرة عميقة توضح لنا أهميته، فقد أثبت الرب بهذا العمل أموراً عظيمة تتعلق بمجيئه أكثر مما لو كان قد جلس بكل مجده على عرش ملوكي، أو لو كان قد دخل المدينة المقدسة في طريق غرست على جانبيه أشجار من ذهب متسربلاً رداء أرجوانياً. إنه واضح كما يعلن الكتاب المقدس ذلك بصراحة أن الرب كان في فكره في ذلك الحين نبوة قديمة وردت في زكريا فيقول الرب على لسان النبي: (اِبْتَهِجِي جِدًّا يَا ابْنَةَ صِهْيَوْنَ، اهْتِفِي يَا بِنْتَ أُورُشَلِيمَ. هُوَذَا مَلِكُكِ يَأْتِي إِلَيْكِ. هُوَ عَادِلٌ وَمَنْصُورٌ وَدِيعٌ، وَرَاكِبٌ عَلَى حِمَارٍ وَعَلَى جَحْشٍ ابْنِ أَتَانٍ) (زكريا ٩: ٨، ٩). هذه نبوة مفرحة

ينبغي أن يبتهج لها جمهور الخطاة، فهي نجم رجاء يلمع في سماء العهد القديم، حياه قديسو العلي قروناً عديدة بدموع الحنين والشوق الزائد، ومضى ما يزيد عن أربعائمة عام منذ أن نطق النبي بكلمات هذه النبوة وإذا بالنصاري يظهر فوق قمة جبل الزيتون فأعاد للأذهان هذه النبوة القديمة، وعندما اقترب من أبواب أورشليم طلب أن يحضروا له أتاناً وجحشاً، وجلس على الأخير ليدخل المدينة المقدسة على مرأى من الجماهير المحتشدة.
ولكن، ترى ماذا كان يريد أن يبرهن بهذا العمل البسيط في مظهره والعظيم في معناه؟ ماذا سوى أن كلمات النبي قد تحققت في شخصه هو! ماذا سوى أنه هو ملك المجد، موضوع النبوات، عادل ومنصور، وآت بالسلام لشعبه! وكأنه يريد أن يعلن قائلا: (أنا هو الذي سيمتد ملكي من البحر إلى البحر ومن النهر إلى أقصي الأرض! أنا هو فابتهجي يا ابنة صهيون! واهتفي يا بنت أورشليم!). نعم، إنه يعلن ذلك بصوت كقصف الرعد، فليس من معنى آخر يستتر وراء هذا المشهد. فإن لم يكن يسوع هو ملك السلام الموعود به فبماذا نصف هذا العمل الذي قام به؟ ولكنه كان يعلم ما فعله ولا يستطيع أحد أن يلومه عليه، ومن ثم، ففي دخوله أورشليم برهان جديد قوي وفعال أن المسيح هو المسيا الحقيقي الذي تكلم عنه الأنبياء، وهو الابن الوحيد المولود من الآب قبل كل الدهور، شفيعنا ورئيس كهنتنا الأعظم. لم يبق للتلاميذ، ولكثير من الناس حينذاك، أدنى شك أن يسوع هو رئيس السلام العظيم الذي سبق أن تنبأ عنه الأنبياء. انظروا كيف كان استقباله، فدخوله كان أعظم من دخول الملوك، الناس يفرشون ثيابهم في الطريق، وآخرون قدموا

بساطاً من الأغصان الخضراء، البعض يتقدمون والبعض يتبعون وفي أيديهم سعف النخل كما في موكب الظافرين وليس نهاية لهتافاتهم المدوية: "أُوصَنَّا لابْنِ دَاوُدَ! مُبَارَكٌ الآتِي بِاسْمِ الرَّبِّ! أُوصَنَّا فِي الأَعَالِي!" (متى ٢١: ٩).
تأملوا في الحفاوة التي أحاطوا بها فرداً يبدو عادياً ومجرداً من الألقاب والنياشين، ولكن الأمر واضح لا يحتاج إلى تفسير فهذا الراكب على ظهر هذه الدابة المتواضعة قد رآه الأنبياء في القديم تحيط به هذه الحفاوة، واستطاع زكريا بنوع خاص أن يصف المشهد عن كثب وكأنما كان شاهد عيان. لقد طرد هذا المشهد من أذهان الناس والتلاميذ كل بقايا الغموض الذي كان يحيط بذلك الداخل إلى أورشليم، وخاصة بعد المعجزة الفريدة التي أجراها في بيت عنيا إذ أقام لعازر من الموت. لذلك لم يمكنهم أن يصمتوا أو يكفوا عن هتافات التمجيد: (أُوصَنَّا لابْنِ دَاوُدَ!). ويدخل المدينة المقدسة، تحيط به صيحات التهليل، مما جعل نبوة زكريا القديمة تكتمل بكل فصولها في هذا الموكب، وبكل هدوء يتقبل الرب هذه الحفاوة كشيء عادي، بينما يوبخ الفريسيين قائلاً: "أَقُولُ لَكُمْ: إِنَّهُ إِنْ سَكَتَ هؤُلاَءِ فَالْحِجَارَةُ تَصْرُخُ!" (لو ١٩: ٤٠). وفي هذا تأكيد واضح على أن الرب يسوع هو الإنسان وهو الله، الذي سبق أن تكلم عنه الأنبياء قبل ذلك بمئات السنين والذي وُعد به في الكتب المقدسة.

(٤) يسوع يغسل أرجل التلاميذ

أكمل الرب يسوع تجواله على الأرض، وجاءت عشية يوم الفداء العظيم الرهيب، فاجتمع بتابعيه للمرة الأخيرة في علية بيت صديق له في أورشليم، وقد أتيح لهم مرة أخرى

أن يطلعوا على ما في قلب سيدهم الأمين وأن يروا كم أعطاهم الله فيه.
يقول يوحنا البشير إن "أَمَّا يَسُوعُ قَبْلَ عِيدِ الْفِصْحِ، وَهُوَ عَالِمٌ أَنَّ سَاعَتَهُ قَدْ جَاءَتْ لِيَنْتَقِلَ مِنْ هذَا الْعَالَمِ إِلَى الآبِ، إِذْ كَانَ قَدْ أَحَبَّ خَاصَّتَهُ الَّذِينَ فِي الْعَالَمِ، أَحَبَّهُمْ إِلَى الْمُنْتَهَى." (يو ١٣: ١). على الرغم من أنه كان يعلم أن ساعة عودته إلى حضن الآب قد حانت، وعلى الرغم من أن مدة وجوده بالجسد على الأرض كانت محدودة بالنسبة لوجودة الدائم في السماء، وبالرغم من أنه كان يسمع من على بعد تسابيح الحمد حوله عرش الله، ووسط تهليلها كان سيرجع سريعاً ليعتلى عرش الجلال الإلهي، لكنه لم ينس تابعيه بل أفسح في قلبه وذاكرته مكاناً لهؤلاء السياح الذين يعبرون وادي ظل الموت. ومع ذلك كم سبب له هؤلاء التلاميذ أنفسهم من الحزن وانكسار القلب بتنازعهم المخجل على المكان الأول، وبالتصرف الممقوت الذي صدر منهم عندما سكبت مريم الطيب الكثير الثمن على رأسه! ونحن نذكر الجواب اللين الرقيق الذي دافع الرب به عن عمل مريم، ولكن لم يكن كل ذلك لينشِئ فيهم الاتضاع ويجعلهم يعترفون بخطاياهم، بل على العكس أنشأ فيهم مشاعر مضادة وأغلق قلوبهم وأبعدها عنه إلى حين. لكن لم يغير هذا كله شيئاً من عمق أمانته ومحبته، فنحن نقرأ قول البشير يوحنا وكأن الدموع تتدفق من عينيه: (إِذْ كَانَ قَدْ أَحَبَّ خَاصَّتَهُ الَّذِينَ فِي الْعَالَمِ، أَحَبَّهُمْ إِلَى الْمُنْتَهَى.) فأولئك الذين أعطاه الآب أعزاء على قلبه أكثر من الملائكة الذين يحيطون بعرش الله، لذلك كان دمه رخيصاً في عينيه فقدمه ثمناً لخلاصهم، ورغم أنهم كانوا مذنبين لكنه أحبهم إلى

المنتهى، وحتى هذا اليوم يحب الذين هم له بنفس المحبة. وإن كان قد غمر الرسول يوحنا شعور بالسعادة السماوية عندما فكر في هذا الأمر فليت قلوبنا بالمثل تردد صدى هذه المحبة.

نعود الآن إلى العلية في أورشليم لنلتقي بخاصة الرب الذين التفوا حول مائدة الفصح، كان الرب يسوع يجلس بينهم وهو يعلم أنه هو ملك الملوك ورب الأرباب ويحس بما له من جلال إلهي، وكالشفيع الذي دفع الآب إليه كل شيء بما في ذلك سلطان مغفرة الخطايا. وفي هذا الاحساس السامي نراه على غير المنتظر حدوثه يقوم عن العشاء. وتُرى لماذا! هل لكي يتراءى في جلاله أو يكشف عن بهاء مجده الأبدي؟ هل ليأمر تلاميذه أن يحنوا ركبهم في التراب أمامه؟ كلا، لقد كان ينوي أن يفعل أمراً يختلف تماماً، فإذا به يخلع رداءه، ثم يأخذ منشفة ويتزر بها، ويصب ماء في مغسل، وينحني على أقدام تلاميذه ثم يشرع في غسلها الواحد بعد الآخر، ثم يجففها بالمنشفة التي كان متزراً بها. ياله من منظر يثير الدهشة! تفكروا في القدوس الذي نزل من السماء واقترب إلى الخطاة، الخالق العظيم الذي تكرمه الملائكة يضع نفسه ويأخذ هيئة خادم وعبد، لا يمكننا البتة أن نتصور أن عملاً كهذا يتفق مع كرامته الفائقة لولا أننا ندرك الآن مشاعره السامية أنه لم يعد يعرف تابعيه (حسب الجسد) فهو يرى فيهم أولئك الذين أعطاه الآب إياهم، الذين أحبهم الله حتى بذل ابنه الوحيد لأجلهم، موضوع اهتمام الرحمة الأبدية والمشورة الأزلية، أما هم فبصرف النظر عن الخطية التي لا تزال تلتصق بهم لكنهم يحملون في قلوبهم عمل الروح القدس وبذرة حياة الله، وفوق ذلك كانوا معقد آماله، فهم

عروسه الروحية المتسربلة بالشمس، كما أنهم يمثلون أمامه في الرداء الملوكي الذي هو بره الشخصي. كم من المعانى العظيمة ينطوي عليها هذا العمل! فقد جاء تفسيراً قوياً عملياً للكلمات التي نطق بها الرب: "كَمَا أَنَّ ابْنَ الإِنْسَانِ لَمْ يَأْتِ لِيُخْدَمَ بَلْ لِيَخْدِمَ" (متى ٢٠: ٢٨) وصورة واضحة للأمور التي لها قيمة واعتبار في ملكوته، كما نرى فيه دينونة مؤثرة للأنانية ومحبة الذات التي في بني الإنسان. إنه وصف عميق لما ينبغي أن يكون عليه الاتضاع وإنكار الذات كعلامات مميزة لأولاد الله ومثل نبيل رائع لتلك المحبة التي ينبغي أن تتحلى بها، وهل يوجد شيء آخر عظيم لم يتضمنه هذا العمل الذي قام به الرب؟ إنه يكشف عن أمور مجيدة يبتهج لها القلب كما سيتجلى أمامنا الآن. التلاميذ يقفون بلا حراك مأخوذين من الدهشة، وقد ظهر عليهم الخجل إذ كانوا يتنازعون فيما بينهم، ترى من يكون الأعظم؟، عندئذ شعروا بالاتضاع وأحسوا بالمحبة واللطف يعم كيانهم، وبشعور الدهشة والسرور تركوا سيدهم يفعل ما يسره أن يفعله بهم. واستمر السيد الرب يغسل أرجل تلاميذه في تنازل واتضاع، في صمت وهدوء، حتى جاء دور سمعان بطرس الذي أظهر اعتراضه فتوقف العمل حيناً، إذ عندما دنا منه السيد سحب قدمه للوراء بسرعة، وفي غمرة المشاعر الجياشة صاح قائلاً: "لَنْ تَغْسِلَ رِجْلَيَّ أَبَدًا!" (يو ١٣: ٨). فمجد الإله وحقارة المخلوق يقفان على طرفي نقيض. آه كيف يضع بطرس من شأن نفسه في هذا التعبير العاطفي وكم يرفع من شأن سيده ومعلمه!.

ولكن مهما يكن نبل الشعور الذي وجد في نفس بطرس لكنه كان من وجهة نظر أخرى خاطئاً، فكان ينبغي على

بطرس أن يتذكر كلمات سيده أنه (لَمْ يَأْتِ لِيُخْدَمَ بَلْ لِيَخْدِمَ) فعله العجيب هو أن يغسل الملوثين ويطهر الدنسين. وماذا يكون مصيرنا لو أنه لم ينزل إلى عمق الشرور التي عشنا فيها! لقد ظن سمعان أنه من الأنسب أن يغسل هو قدميّ سيده، نعم فإياك أن تنسى أن تفعل ذلك بأن تغسلهما بدموع التوبة والندم. ولكن من الجانب الآخر دعه يغسلك ويطهرك، وإلا فكيف تنجو من الهلاك الأبدي؟ ولكن سمعان لا يفهم كلمات سيده ولايدرك بعد خطأه، فيجيبه الرب يسوع بالكلمات المشهورة: "لَسْتَ تَعْلَمُ أَنْتَ الآنَ مَا أَنَا أَصْنَعُ، وَلكِنَّكَ سَتَفْهَمُ فِيمَا بَعْدُ" (يو ١٣: ٧). ألا تكفي هذه الملاحظة التي أبداها الرب أن تجعل سمعان يسلم نفسه بالتمام له؟ كلا. بل على النقيض، يظن سمعان أنه من الواجب أن يصون كرامة سيده، فيصيح بلهجة الاصرار: (لَنْ تَغْسِلَ رِجْلَيَّ أَبَدًا!). لقد فات بطرس أن الطاعة أفضل من الذبيحة. فإن كنت تريد أن تكرم يسوع فليكن ذلك بخضوعك لكلمته. فبينما يعلن هو: (جئت لأطلب وأخلص ما قد هلك) لكنك تجيب قائلاً: (كلا. لا أتصور أن الجلال الإلهي يتعب نفسه بصلوات دودة حقيرة مثلي). إن إرادة الله أن نمجده بإيماننا أنه يسمع الصلاة. بطرس المعترض يقول: (لَنْ تَغْسِلَ رِجْلَيَّ أَبَدًا!). ويأتي جواب المخلص: (إِنْ كُنْتُ لاَ أَغْسِلُكَ فَلَيْسَ لَكَ مَعِي نَصِيبٌ) ياله من اعلان له أهميته! فالمعنى العميق الذي قام به الرب يشع من هذه الكلمات، لما فيها من إشارة لدم الفداء والغفران والتبرير والتطهير من الخطية.
(إِنْ كُنْتُ لاَ أَغْسِلُكَ). نعم أنت أيها الرب يسوع الذي تفعل ذلك، لأنه من استطاع أن يطهر نفسه من الخطية؟ (إِنْ كُنْتُ لاَ أَغْسِلُكَ). نعم ينبغي أن تغسلنا لن التعليم والتهذيب

ليس بكافٍ. (إِنْ كُنْتُ لاَ أَغْسِلُكَ). نعم، فماذا أنتفع إن كان بطرس ويوحنا يغتسلان وأبقى أنا ملوثاً؟ ينبغي أن أنال غفران الخطية. فهذه حقيقة ثابتة أن من لا يغتسل بدم المسيح ليس له معه نصيب ولن يتمتع ببركات الملكوت. (يَا سَيِّدُ، لَيْسَ رِجْلَيَّ فَقَطْ بَلْ أَيْضًا يَدَيَّ وَرَأْسِي) جميل لكن للمرة الثانية جانبت الصواب. لقد تخطى سمعان في هذه المرة الطريق إلى اليمين كما فعل من قبل إلى اليسار، لقد رفض من قبل ما هو معقول، والآن يطلب ما يزيد عن الحد، إنه لم يفهم بعد كل الأمر بوضوح. وربما كان المعنى الكامل لجواب الرب واضحاً في تكملة الكلام: "الَّذِي قَدِ اغْتَسَلَ لَيْسَ لَهُ حَاجَةٌ إِلاَّ إِلَى غَسْلِ رِجْلَيْهِ، بَلْ هُوَ طَاهِرٌ كُلُّهُ. وَأَنْتُمْ طَاهِرُونَ وَلكِنْ لَيْسَ كُلُّكُم" (يو ١٣: ١٠). ولا يخفي أن الكلمات الأخيرة تشير إلى الخائن. ولكن ما معنى هذه العبارة الغامضة؟ أظن أنها تعني أن من يأتي إلى الرب يسوع كخاطئ مسكين ويدخل في شركة معه بالإيمان يكون قد اغتسل ومثل هذا يكون قد طهره من الخطية لنواله التبرير بالنعمة. إن دم الحمل قد سفك لأجله ووفيت كل ديونه، وهو الآن أصبح طاهراً في نظر الله لأن استحقاقات الضامن الإلهي قد نسبت إليه، وبذلك يظل متمتعاً بهذه الامتيازات. (لأن هبات الله ودعوته هي بلا ندامة) ويجب عليه أن يفرح كل يوم وكل ساعة في حالته المطهرة هذه ويحذرنا الرسول بطرس في رسالته الثانية من أن ننسى أننا قد تطهرنا من خطايانا السالفة، لأن الإنسان يعد طاهراً بسبب تقديس الله إياه، فبعد أن ولد ثانية من الماء والروح قد طرح إلى الأبد كل ما هو من الخطية، وعلى الرغم من أنه يتعرض لحروب وتجارب متنوعة بسبب الجسد، لكنه نتيجة لطبيعته الجديدة

أصبح لا يبتغي سوى أن تتم إرادة الله في حياته، وأن كل ما يعمله يكون مرضياً في عينيه.
ولكن ماذا يحدث عندما يتقدم هذا الإنسان في حياة الإيمان؟ في لحظات عدم اليقظة يحدث أنه يسقط في الخطية بصورة أو بأخرى، ومن غير أن يدري يفكر أو يتكلم أو يتصرف بصورة لا تليق. ومرة أخرى يرتكب التعدي، وإن كان ضد إرادته، لأن ابليس فقط وأبناءهم الذين يخطئون بإرادتهم ولكن كل من ولد من الله ـ كما يقول الرسول ـ لا يفعل الخطية. وبعد أن تكون طريق الإنسان قد تلوثت ـ تصبح قدمه التي بها يطأ الطريق ملوثة كذلك، فماذا يفعل الآن؟ هناك طريقان جانبيان يتعرض الإنسان دائماً لأن يسلك في واحد منهما، فقد يستسلم لشعور مفرط بالذنب الذي ارتكبه ويصرخ بصوت عال (نجس نجس) كمن يحكم عليه أن يعيش خارج محلة الأصحاء، ويعتبر نفسه قد سقط من النعمة، ويسلم بأن الرباط الذي به يتحد مع الله قد انفصم. ويوافق بطرس على رأيه: (يَا سَيِّدُ، لَيْسَ رِجْلَيَّ فَقَطْ بَلْ أَيْضًا يَدَيَّ وَرَأْسِي). وقد يعامل الإنسان خطيته باستخفاف ويقنع نفسه بأن الخطية التي ارتكبها بسيطة وأنها تدخل ضمن الخطايا التي غفرها المسيح بفدائه ومحاها بدمه. وهكذا يخدر ضميره بأفكار باطلة، ويمضي في طريقة بغير اكتراث أو مبالاة. وفي كل حالة من هاتين الحالتين هناك حيدان عن الصواب مرة لليمين وأخرى لليسار. ففي الحالة الأولى يستسلم الإنسان بلا داعٍ لشعور مفرط بالذنب، ويجعل له تأثيراً على النعمة التي نالها في المسيح. وهذا ينافي كلمة الله، فالخطايا التي قد يرتكبها المؤمن لا يجب بأي حال اعتبارها ارتداداً عن المسيح، وعندما يحدث أن ينتصر الجسد

على الروح لا يكون التجديد الذي حصل عليه الإنسان قد فقد، ولا تكون النعمة قد سجت منه. وفي الحالة الثانية نعامل الخطية باستخفاف، فعوضاً عن أن يحصل الإنسان على مغفرة الخطايا يغفرها هو لنفسه بحسب وحي فكرة الخاص ولكن الخطايا التي يسمونها صغيرة لا يمكن بأي حال اعتبارها في مرتبة أقل وليس من السهل أن تمحى من الضمير. ولكن بينما نقنع أنفسنا أنها تدخل ضمن الخطايا التي غفرت بدم الفداء تبقى ـ كالسرطان ـ لاصقة بضمير الإنسان كشر كامن يسلب السلام من القلب، وشيئاً فشيئاً نفقد الحرارة التي بها نقترب من عرش النعمة.
فكيف إذاً يكون سلوكنا في هذه الحالات مطابقاً لكلمة الله؟
أولاً: احذر اليأس الذي به نهيء وليمة للشيطان.
ثانياً: لا تبتعد عن محضر الله وكأن قلبه قد أغلق دونك.
ثالثاً: لا تظن أنه يلزمك أن تبدأ حياة روحية من جديد، فبذرة الميلاد الثاني لا تزال في داخلنا، والابن الذي ينتمي لبيت الآب لا يطرد فجأة خارجاً كعبد أو غريب.
لعل حديث الرب لبطرس قد أصبح الآن واضحاً، فهو يعني أن من صار شريك دم الرش ومعمودية الروح ـ أى النعمة بوجهيها التي تحرر من الخطية وتنشئ حياة ـ فهذا بالنسبة لغريزة الحياة الموجودة في كيانه الداخلي قد أصبح إنساناً جديداً تماماً واعتزل عن الخطية إلى الأبد، وأصبحت ميوله ومحبته وعواطفه تتلاقى في الله وفي الأمور الإلهية. مثل هذا عندما ـ بسبب الضعف ـ يؤخذ في زلة، لا يكون بحاجة إلى تغيير جديد شامل وإنما يعوزه فقط الاغتسال، يلزمه أن يغسل قدميه. ليت كل الذين قد دخلوا ضمن دائرة النعمة يدركون هذا الأمر جيداً، وليتهم يقاومون المشتكي حتى لا

يجد فرصة ضدهم بافتراءاته الكثيرة. اشهر دم الحمل كدرع واقٍ ضد سهام ابليس، ولا تدع شجاعتك وثقتك يصيبها الخوار. الخطر الآخر الذي نتعرض له في مثل هذه الظروف ينبغي أيضاً أن نواجهه بكل حذر، فيجب أن نحترس من إخفاء أو التقليل من شناعة أى عمل من أعمال التعدي، فلا توجد زلة تافهة أو بسيطة، لكن ينبغي أن نترك الفرصة للقاضي الذي يسكن في داخلنا أن يمارس عمله دون أن نعطله أو نرفض الإصغاء إلى تبكيته، ثم ندنو من محضر الله ونعترف بخطايانا بإخلاص. وعندما يصلي القلب التائب المتضع يميل الرب إليه بنعمته ويمنح الغفران للنفس بروحه القدوس، وعندئذ يبقى سلام القلب وثقة التبني دون معكر بقوة دم الحمل وما أجمل أن يعود إلينا الشعور باتحادنا بالرب، فنتشدد من جديد لنحارب ضد الشيطان والعالم والجسد. وما أجمل أن تعود الثقة بأننا نمتلك مخلصاً فتزهر بهجتنا من جديد في قلوبنا، بعد أن يتجدد لنا هذا الاختبار عن أمانته.

ويكمل الرب حديثه وهو يحس بما له من جلال إلهي قائلاً: "أَنْتُمْ تَدْعُونَنِي مُعَلِّمًا وَسَيِّدًا، وَحَسَنًا تَقُولُونَ، لأَنِّي أَنَا كَذلِكَ" (يو ١٣: ١٣) ثم يستطرد قائلاً: (فَإِنْ كُنْتُ وَأَنَا السَّيِّدُ وَالْمُعَلِّمُ قَدْ غَسَلْتُ أَرْجُلَكُمْ، فَأَنْتُمْ يَجِبُ عَلَيْكُمْ أَنْ يَغْسِلَ بَعْضُكُمْ أَرْجُلَ بَعْضٍ، لأَنِّي أَعْطَيْتُكُمْ مِثَالاً، حَتَّى كَمَا صَنَعْتُ أَنَا بِكُمْ تَصْنَعُونَ أَنْتُمْ أَيْضًا. اَلْحَقَّ الْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: إِنَّهُ لَيْسَ عَبْدٌ أَعْظَمَ مِنْ سَيِّدِهِ، وَلاَ رَسُولٌ أَعْظَمَ مِنْ مُرْسِلِهِ. إِنْ عَلِمْتُمْ هذَا فَطُوبَاكُمْ إِنْ عَمِلْتُمُوهُ." (يو ١٣: ١٤، ١٧). نحن بطبيعتنا نميل لأن نتسب الأخطاء بعضنا لبعض، ويحكم الواحد على الآخر في قسوة، ولكن الرب يوصي بغسل الأقدام وفي ذلك قصد سام أن يغسل الواحد قدميّ أخيه من كل ما لصق بهما.

هناك فرق شاسع بين التواضع الذي لا يحكم على الآخرين قبل أن يحكم على نفسه أولاً، وبين البر الذاتي الذي يتلمس الأخطاء للغير والذي يمسك للخاطئ المسكين سجل خطاياه. فمن يغسل قدميّ أخيه كما يقصد الرب يضع نفسه معه كخاطئ على قدم المساواة، ويكشف له باحتمال وطول أناة عن الخطأ الذي اقترفه بصراحة كاملة، ثم يذيب قلبه بأن يذكّره في لطف بغنى صلاح الله الذي قابله هو بالجحود والنكران. وبعد أن يكون قد غسل قدميه بهذه الطريقة وبعد أن يشجعه على التوبة، لا يجب أن ينسى أن يجفف قدميه بأن يزيح الستار عن عرش النعمة ويبرز أمامه منظر صليب الجلجثة معلناً له رحمة ذاك الذي قبل عطايا حتى للأثمة، ثم يصب في جروحه بلسم الإنجيل.

(٥) الفصح

تُجرى الآن الاحتفالات بعيد الفصح ـ أمجد الأعياد اليهودية وأكثرها بهجة لأنه تذكار ميلاد الشعب المختار ـ ذلك العيد الذي حفظوه مئات السنين وفي كل سنة كانوا يعيدونه بابتهاج جديد، وكان يشير إلى الحقيقة التاريخية عن خلاص نسل إبراهيم بطريقة معجزية من سيف الملاك المهلك برش دم الحملان. وكانت ذكرى هذا الحدث العظيم تدعو لتجديد تقديم الشكر لأبي المراحم والاتضاع أمامه، كما أنها كانت تشير إلى ضرورة نوال الحرية الروحية من حيث أن العيد كان يعمل على احياء الرجاء لانتظار الفداء بدم رئيس السلام الموعود به، والذي كان خلاص الشعب من أرض مصر رمزاً له.

دعونا الآن نلقي نظرة عابرة على العيد الرمزي في حد ذاته، فملاك العدل الإلهي قد أُرسل من حضرة الله ليهلك كل أبكار أرض مصر، لكن الله قد أعطى نسل إبراهيم وسيلة للنجاة، فأوصاهم بأن كل بيت يأخذ حملاً ذكراً من القطيع، ويذبحونه ويرشون دمه على العتبة العليا وقائمتيّ الباب، ثم يلبثون في مساكنهم في هدوء واطمئنان. وقال الرب: (وَيَكُونُ لَكُمُ الدَّمُ عَلاَمَةً عَلَى الْبُيُوتِ الَّتِي أَنْتُمْ فِيهَا، فَأَرَى الدَّمَ وَأَعْبُرُ عَنْكُمْ، فَلاَ يَكُونُ عَلَيْكُمْ ضَرْبَةٌ لِلْهَلاَكِ حِينَ أَضْرِبُ أَرْضَ مِصْرَ.) (خروج ١٢: ١٣). من لا يرى في هذا الفرض الإلهي الإعلان الرمزي للفداء الأبدي الذي أعدته المقاصد الإلهية من أجل الخطاة؟ وهل يوجد من يساوره الشك في أن الحمل الذي توقف عليه أمر النجاة كان يشير إلى المسيح المخلص الوحيد ـ من حيث أن ذبح الحمل يشير إلى آلام المسيح الكفارية وموته عن الخطاة ـ وأن رش دم الحملان على العتبة العليا والقائمتين فيه إشارة للإيمان الذي ينبغي أن يأتي به الخاطئ إلى الله، فتحسب استحقاقات الوسيط والضامن العظيم لكل من يأتي باتضاع ويخضع للطريقة التي أعدها الله للخلاص بالتوبة والإيمان في دم حمل الله الذي يرفع الخطية؟

لقد وصلنا الآن إلى النقطة التي عندها يربط المسيح بين الفصح وفريضة العشاء الرباني، ويمكننا أن نوضح الأمر أكثر بالقول إن المسيح قد مجد الفصح اليهودي عندما حوله إلى هذه الفريضة المقدسة، فمن الخطأ أن نظن أن العهد الجديد قد نسخ القديم لأنه في الحقيقة لم ينقض شيء من الفرائض والطقوس الموسوية، بل بالعكس قد تعظمت بتحولها من حالة الظل والرمز إلى الحقيقة والجوهر. وهذا ما

قصده المسيح بقوله: (لاَ تَظُنُّوا أَنِّي جِئْتُ لأَنْقُضَ النَّامُوسَ أَوِ الأَنْبِيَاءَ. مَا جِئْتُ لأَنْقُضَ بَلْ لأُكَمِّلَ. فَإِنِّي الْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: إِلَى أَنْ تَزُولَ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ لاَ يَزُولُ حَرْفٌ وَاحِدٌ أَوْ نُقْطَةٌ وَاحِدَةٌ مِنَ النَّامُوسِ حَتَّى يَكُونَ الْكُلُّ) (مت ٥: ١٧، ١٨). فكما أن الزهرة في النبات لا تختفي من الوجود، وإنما يؤدي ذبولها إلى أن تنتقل إلى مرحلة الثمرة التي فيها تتجسم الحياة بصورة أوضح، فهكذا نجد أن كل الرموز والظلال في العهد القديم قد أراد لها الله أن تتحقق في الجديد. فمثلاً نجد أن شكل الكهنوت في العهد القديم قد تحقق في المسيح، كما أن الذبائح الكفارية التي كانت تقدم في الخيمة والهيكل كانت رموزاً لآلامه وموته، وكذلك الطقوس اللاوية التي تختص بالتطهير والاغتسال وجدت مدلولها في التطهير الروحي بكلمة الله ودم المسيح والروح القدس. وكما أن الخلاص الذي تم في مصر وجد في ذبيحة المسيح الكفارية مدلوله الكامل الحقيقي، فكذلك تحقق الفصح ـ الذي أمر الرب بعمله ـ في عشاء الرب. ها قد أعدت المائدة في تلك العلية وكل ما تتطلبه الوليمة قد تهيأ، وانتهت عملية غسل الأرجل بما أحاط بها من غموض وما قصده الرب بها من دروس، وفي الامكان الآن كسر الخبز وتناول الطعام. التلاميذ في حالة من التأثر الشديد، والسيد الذي كان يشبه أخوته في كل شيء ما عدا الخطية والذي كان يحمل بين جنبيه قلباً ينبض بأحاسيس البشر ويرق لبني آدم المساكين يرى الآن خروف الفصح الذي يشير إلى شخصه، فهو "هُوَذَا حَمَلُ اللهِ الَّذِي يَرْفَعُ خَطِيَّةَ الْعَالَمِ!" (يو ١: ٢٩) كما شهد عنه يوحنا المعمدان الذي جاء ليعد الطريق أمامه، وقد تجدد اليوم هذا الاعلان، إذ جعل دخوله المدينة

المقدسة موافقاً لليوم الذي كانت تساق فية خرفان الفصح للذبح. وبعد أن جلسوا ثانية على العشاء ابتدأ يسوع في نغمة تكشف عما في قلبه من رقة وعطف يقول للتلاميذ: "شَهْوَةً اشْتَهَيْتُ أَنْ آكُلَ هذَا الْفِصْحَ مَعَكُمْ قَبْلَ أَنْ أَتَأَلَّمَ،" (لو ٢٢: ١٥). إن هذه العبارة تعطينا لمحة عن قدس نفسه الداخلية. لقد اشتهى أن يعيّد معهم هذا العيد، ولكن ترى لماذا؟ بلا شك كان جميلاً وممتعاً له أن يقضي الساعات الأخيرة من حياته التي كرّسها لخدمة الغير بين دائرة رفقائه الذين تجاوبوا معه وكانوا هم البذرة النابتة لكنيسته العتيدة، اشتهى أن يقضي معهم وقتاً بعيداً عن أصوات الشك وضجيج العالم الذي قام ضده. إن رغبة مخلصنا في أن يشترك في إحياء هذا الفصح الأخير نبعت بلا شك من شهوة قلبه في أن تأتي الساعة التي سيتمكن فيها أن يرفع عنا دينونتنا، وأن يسمر بالصليب الصك الذي كان علينا. لقد سره أن يشترك في أفراح هذه الليلة ليتمكن أن يعلن عن إرادته بما فيه الخير لأتباعه المحبوبين عن طريق ممارسته للفريضة المقدسة التي كان يقدمها لهم حينئذ، وليعلن خضوعه لإرادة الآب السماوي ليخلف لهم بعد رحيله ثمار آلامه المقدسة وموته الكفاري.
ثم يقول: "لأَنِّي أَقُولُ لَكُمْ: إِنِّي لاَ آكُلُ مِنْهُ بَعْدُ حَتَّى يُكْمَلَ فِي مَلَكُوتِ اللهِ" (لو ٢٢: ١٦)، وبكل فضول نتساءل: لماذا؟ ثم ماذا كان يشغل باله الآن ويرتفع به فوق آلام الفراق؟ إنه بروحه يتطلع إلى المستقبل البعيد فيقول: (إِنِّي لاَ آكُلُ مِنْهُ بَعْدُ حَتَّى يُكْمَلَ فِي مَلَكُوتِ اللهِ). لقد كان الرب يعني ما يقول، وابتهج بروحه وهو يرى بوضوح تفاصيل ما كان يعنيه بهذا الكلام. ونحن لا يمكننا أن نرى إلا لمحة خافته منه كنور

الفجر الباهت، ولكنها تكفي لأن تعكس على أرواحنا جزءاً من الفرح الذي ملأ قلب المخلص. إنه حتى اليوم لم يتم عشاء الرب بكل معانيه، فهو يشير إلى شيء بعيد وعظيم ومجيد، فهناك وليمة للمفديين المخلصين سيأتي وقتها تشير إليها شركتنا الحالية كصورة الشيء وكباكورة للمجد العتيد، وعندما تقام هذه الوليمة يصبح الاعلان عياناً ويبطل ما هو بعض لنحظى بالكمال، ويكلل الجهاد بالنصر المبين. وهذا العيد العظيم الذي لن ينتهي أبداً سيبدأ في اليوم الذي فيه يكمل ملكوت الله ويتهيأ، وعندئذ يحل شيء جديد محل شركتنا الحالية، ولا تسألني ما هو، فواضح أن العبادة (حتى يكمل في ملكوت الله) لا تعني فحسب (حتى نبتهج معاً في ملكوتي بالمجد الكامل مع كل المفديين). فليس من حقنا دائماً أن نفسر كلماته، ولكن من المؤكد أنه لم يكن يشير إلى أمر روحي بحت. ليت كل من يقترب إلى مائدة الرب يصيح بابتهاج: (ما هذا إلا بيت الله وهذا باب السماء). ولابد لكل من يأتي وفي نفسه جوع وعطش وإيمان أن يتحقق من ذلك، فالتناول يكشف عن الكثير مما يتضمنه من حقائق ومعان أكثر مما تعلمه وتلقنه مئات الدروس اللاهوتية، وعندئذ تغادر المكان المقدس وأنت تردد بابتهاج في قلبك قول المرنم: "تُرَتِّبُ قُدَّامِي مَائِدَةً تُجَاهَ مُضَايِقِيَّ. مَسَحْتَ بِالدُّهْنِ رَأْسِي. كَأْسِي رَيَّا" (مز ٢٣: ٥).

(٦) عشاء الرب

أقيم الاحتفال بعيد الفصح، وتناول الضيوف خروف الفصح بمشاعر الحب العميق، ودارت كأس العيد على الجميع عدة مرات كما جرت العادة وجاءت الساعة عندما يرنمون تسبحة الحمد أو مزمور الشكر وبعدها تنتهي الوليمة فيقوم الضيوف

ويرحلوا، ولكن بدلاً من ذلك إذا بالسيد الذي كانت أنظار الجميع متجهة نحوه ينهض من مكانه ليبدأ عملاً جديداً أهم من تناول خروف الفصح، ويأخذ خبزاً مرة أخرى ويكسره وبعد أن يقدم الشكر لله يوزعه على التلاميذ، ثم كذلك أيضاً الكأس ويأمرهم أن يشربوا منها

دعونا نتأمل فيما عمله الرب وهو يقدم لتلاميذه عشاءه. فنقرأ أولاً أن (الرَّبَّ يَسُوعَ فِي اللَّيْلَةِ الَّتِي أُسْلِمَ فِيهَا، أَخَذَ خُبْزًا) (١كو ١١: ٢٣) وهو فطير الفصح غير المختمر. كما أنه أهم وسائل التغذية الذي يكفل للإنسان الحياة، نتاج أثمن ثمار الأرض، وصورة حية لذلك بدونه ليست لنا حياة روحية. إن (حبة الحنطة) الإلهية التي لا ينبغي أن تبقى وحدها، بل تأتي بثمر كثير سقطت في الأرض، وبحرارة جثسيماني ونيران الصليب صارت مهيأة أن تكون الطعام الروحي للخطاة المساكين. هذا ما يعكسه خبز الفريضة المقدسة. وبعد أن أخذ الخبز رفع عينيه إلى السماء (وشكر) أى أنه سكب قلبه بالحمد والشكر لأبيه السماوي. ولكن ما هو هذا الشكر؟ ليس لشيء سوى لتصميم الرحمة الإلهية على خلاص الخطاة المساكين نظيرنا، الأمر الذي كان يراه الروح وقد تم بدمه. كان شكره لأجل خلاص نسل آدم من لعنة الناموس ومن سلطان الشيطان ومن هوة الهلاك الأبدي. إنهم أولئك الذين يضعهم على قلبه دائما. وقد وجه كل عنايته واهتمامه ليرجعهم إلى الآب لينالوا السلام ويتمتعوا بالمجد لقد قدم الشكر للآب، وكم كان سرور الملائكة القديسين عندما وضعوا هذا البخور العطر الثمين في مجامرهم الذهبية ليقدموه لله.

لقد شكر يسوع. ونحن يجب علينا أيضا أن نشكر، ولكن الأفضل لنا في مثل هذه الحالات أن يشفع هو لنا ويغطي آثامنا بطاعته، ونقائصنا بكماله. ولم يشكر فحسب، ولكن كما يقول متى البشير إنه بارك أيضاً. لقد بارك المخلَّص الكأس كما بارك الخبز، ولماذا؟ هل لكي يخصص هذه الأشياء ويفرزها من الاستعمال العادي والدنيوي لتكون لغرض أسمى روحي ومقدس؟ بلا شك كان هذا أيضاً في فكره. ولكن يسوع الكاهن العظيم عندما يبارك فيجب أن نتوقع تأثيرها واضحاً. فيالفيض غنى البركات العظمى التي استقرت على الخبز وعلى الخمر نتيجة لبركة الرب، ومن ذلك الحين كم من آلاف البشر قد تقووا وانتعشوا وتشجعوا بواسطتهما، وكم من قلوب جريحة قد نالت برءاً، وكم من نفوس أفاقت من خوارها وأضاء لها الطريق في وادي الظلمة وظل الموت وهان عليها المسير، وكم من حالات لا يمكن حصرها من أشخاص سوف يتمتعون ببهجة هذا الاختبار حتى وقت النهاية. هذه هي بركة رئيس السلام التي تمتد إلى بهجة التلال الأبدية.

وبعد أن شكر الرب وبارك (كسر) الخبز وهذا أيضاً له معناه العميق كما يعلن بقوله: "هذَا هُوَ جَسَدِي الَّذِي يُبْذَلُ عَنْكُمْ" (لو ١٢: ٢٩)، ومن ثم نجد فيما سجله الرسل عن هذه الفريضة المقدسة أنهم لم يغفلوا ذكر تكسير الخبز. ويسوع عندما كسره كان في هذا إشارة لما سيحدث سريعاً لجسده الذي به قد صار لنا ذبيحة الفداء وخبز الحياة، وعندما كسر الخبز صوّر موته أمام أنظار التلاميذ، أما السلام العجيب الذي بدا عليه وهو يفعل ذلك فيدل من جديد على المحبة المتناهية التي فاض بها نحو الخطاة. وقدم الرب الخبز

المكسور لتلاميذه، وهنا نرى الرب في وضع يناسبه، فمسرته في العطاء والتقديم. وكما كان حينذاك فهو لا يزال إلى اليوم يمد يده في ولائم محبته. فهو بنفسه دائماً الذي يوزع ويعطي، ونحن خدامه لا نكون سوى آلاته ونختفي تماماً من المشهد ونحن نؤدي هذه الخدمة. وعندما قدس الكأس تكرر ما حدث عند تقديس الخبز، فبعد أن شكر وبارك من جديد أعطاها للتلاميذ ليشربوا منها كلهم ودعاها دمه، كما قال عن الخبز إنه جسده. إن الكأس تذكرنا بمعصرة خمر العذاب والآلم التي كان ابن الله سيخوضها ليصبح مخلصنا ووسيطنا، بينما يشير الخبز إلى جسده الذي قدمه لأجل خلاص وبركة كل من يؤمن به. يا له من ميراث لا مثيل له قد تركه لنا الرب في عشائه المقدس. وما أعظم البركات والمراحم السماوية التي أمطرها علينا في العشاء الرباني. ليتنا نقدر هذا السخاء العظيم، فنكرر من اقترابنا التعبدي للمائدة المقدسة لأجل تقديس إنساننا الداخلي، ولنحرص أن نقترب متحلين بروح الشركة الحقيقية في بساطة الأطفال وانكسار الروح الذي بحسب مشيئة الله. وعندما نعود من المكان المقدس سنشعر في نفوسنا بضرورة تقديم تشكرات القلب لذلك الذي اشترانا بدمه، وقد عقدنا العزم أن نعيش ونموت لمجده.

(٧) هل أنا هو الرب؟

كشف الرب للتلاميذ عن سر أليم إذ قال لهم إن بينهم إنسان تعيس لن يكون له نصيب في ملكوت الله ولن يرى حياة. دم الحمل لن يطهره من الخطية، وبر المخلَّص لن يغطيه، بل سيظل كما هو ابناً لإبليس، وكان خيراً له لو لم يولد. هذا الفاجر الساقط سوف يرفض الأساس الوحيد

للخلاص، ويخون رب المجد، ويلقي بنفسه في لجة الهلاك الأبدي، وسيكون مصيره الموت واللعنة إلى الأبد. إن هذا هو ما أعلنه الرب يسوع لتلاميذه، وهذا ما جعل كلماته تسبب لهم القلق والارتعاب. لقد كشف لنا الرب أمراً مماثلاً، فنحن أيضاً قد سمعنا من شفتيه أنه في كل العصور كثيرون من الذين كان خيراً لهم لو لم يولدوا يسيرون في الطريق المؤدي إلى الهلاك. ومثل هؤلاء الذين يستحقون الرثاء يوجدون بوفرة في هذه الأيام لأن الرب الذي لا يمكن أن يكذب يؤكد لنا ذلك. إنه ليس صحيحاً أننا لسنا أبناء الهلاك لأن الناس يعتبروننا أولاد الله، أو لأن مظهرنا الخارجي يؤيد وجهة نظرهم. فبين الذين يحيطهم الناس بهالة من التوقير والاحترام، ويعدونهم بلا لوم، وبين رواد الكنائس وأعضائها الذين لهم صورة التقوى، بل أيضاً بين الذين يمارسون فريضة العشاء الرباني قد يوجد من هو مندفع بسرعة نحو الهلاك. ففي الاجتماعات التي يبشر فيها بالإنجيل يصطاد الشيطان أشخاصاً في شبكة الانخداع بأنهم متدينون، ومن بين الذين سيسمعون هذه الكلمات (لم أعرفكم قط) سيوجد عدد كبير سيبررون أنفسهم بالقول: (يا رب ألم نأكل ونشرب معك؟ ألم نتنبأ باسمك؟ وباسمك صنعنا قوات عظيمة؟) فليمتحن كل واحد نفسه. فليس الذين يقاومون الإنجيل جهاراً أو الذين يقفون في جانب أعداء الرب ومسيحه فقط الذين يسرعون نحو الهلاك. ولكن يوجد آخرون أيضاً يمسكون بالكتاب المقدس في أيديهم واسم يسوع على شفاههم لكنهم سيهلكون في النهاية.
ويبدأ التلاميذ في التساؤل الواحد بعد الآخر في قلق وحزن عميق: (هل أنا هو يا رب؟). لقد اقترب داود من هذا النور إذ

صلى قائلاً: "اخْتَبِرْنِي يَا اَللهُ وَاعْرِفْ قَلْبِي. امْتَحِنِّي وَاعْرِفْ أَفْكَارِي" (مز ١٣٩: ٢٣). ليتنا نصغي إلى النبي إرميا إذ يحثنا قائلاً: (لنفحص طرقنا ونمتحنها ونرجع إلى الرب). وامنحنا ربنا أننا (بنورك نرى نوراً).

(٨) يهوذا الاسخريوطي

في نحو الوقت الذي صار فيه الكلمة جسداً في بيت لحم ورنم جند السماء أغنية السلام عند ظهوره كان الفرح أيضاً يعم بيت سمعان الذي من قريوط من سبط يهوذا، لأنه هناك أيضاً ابن ـ وإن كان ابناً للهلاك ـ قد عاين نور هذه الحياة، ودعاه أبواه يهوذا الذي معناه حمداً لله ـ اعترافاً منهما بفضل الله الذي أنعم به عليهما. ولا يتوفر لدينا تقليد عن حياة يهوذا الأولى، ولكننا لا نرتكب خطأ إن كنا نفترض بأن نموه كان يهيئه للوصول إلى مراكز غير عادية، فقد ظهرت عليه مواهب فائقة، ذكاء حاداً، وعزيمة لا تلين، وإذ ذاك بدا وكأنه قد أحس بمقدرته أن يقوم بأعمال أعظم مما تستطيع أن توفره ظروف الحياة العادية. وكان لزاماً عليه إما أن يختار أن يكون أداة طيعة في يد الله أو أن يصبح حاملاً للواء الشيطان. لم يكن في العالم الوثني نظير يهوذا ولم يكن في إمكانه أن ينجب مثله، فقد نضج هذا الكائن الغريب في إشراق المسيحية الساطع، وأصبح على اتصال وثيق بالمخلِّص، وقد أتيحت له الفرصة أن (يضيء سراج الله على رأسه، وبنوره يسلك في الظلمة)، وكانت نفسه قادرة أن تظهر كل شعور سام ونبيل، وعندما ظهر من هو (أبرع جمالا من بني البشر) في مجد أعماله المعجزية شعر يهوذا بجاذبية نحو هذا المعلم صديق الخطاة، واعترف بولاته لراية يسوع بحماس الشباب وعزيمة

لا تفل. ويوم أن عرض خدماته لم يكن مرائياً، أو على الأقل لم يكن يحس بذلك، كان يصلي ويدرس كلمة الله، وكان يعظ مع بقية التلاميذ، ولاشك أنه كان يعمل ذلك ـ ولو إلى حين ـ بدرجة من الأمانة والأخلاص، لكنه فيما بعد عاد وارتد إلى خداعه المغرض وإلى النفاق.

أسند الرب إليه مهمة أمانة الصندوق في الدائرة الصغيرة، ورغم غمرة المشاعر التقوية بقى جذر للشر كامناً، ألا وهو محبته للعالم وخاصة لبريق الذهب والعظمة الكاذبة. ولم يكن التلاميذ رفقاؤه يشكون في نواياه ولكن الجرح الكامن لم يختف عن عينيّ المخلَّص مع أنه لم يكن بلا علاج، فقد جاء المسيح الطبيب الإلهي لكي يشفي كل سقيم ويضمد جروح المصابين.

إن محبة يسوع المترفقة لم تدع وسيلة لمداواة الداء ولكن واأسفاه!.. لم تأت النتيجة مطابقة لما كان في قلب الرب من رغبة لا تفتر ومحبة لا تنثني، ولقد ظهر سريعاً أن الإعجاب الذي حمل يهوذا على جناحيه لم يكن في أساسه سوى ناراً مقدسة من السماء ليقترب من رئيس السلام، لكن كلما كان أسلوب الرب في الحياة وأحاديثه وعباراته تطرد أفكار يهوذا الخاطئة عن طبيعة ملكوت المسيح كلما انطفأت جذوة الغيرة والإعجاب الذي ظهر فيه، وكل ما تبقى كانت نيران غير طاهرة من رغبات وشهوات نفسانية أرضية.

ليتنا لا نخدع أنفسنا، فأكرم الناس أخلاقاً طالما لم يقدسهم المسيح فهم معرضون أن يسلكوا ليس فقط في خسة ودناءة، ولكن أيضاً في وحشية وشراسة. فالإنسان الطبيعي في أفضل حالاته لا يفقد طبيعته الوحشية، مرة تراه وقد وطأت قدماه مسالك مستقيمة مقدسة، وفي اللحظة التالية

يزحف على بطنه كالحية في عدن، ويأكل تراباً من الأرض. وجاء الوقت الذي وضع فيه يهوذا يده ليسرق لأول مرة من المال الذي أوكل عليه، وبعد أن تخطى مرة حواجز الضمير أصبح الأمر سهلاً عليه في المرات التالية دون احتجاج من الضمير، ولكن صوت الضمير المبكت عاد فأيقظه السيد عندما كشف له عما في نفسه. لقد ظن يهوذا لوقت طويل أنه في مأمن وهو يخدع نفسه بريائه الواضح، حتى كان المشهد الذي حدث في بيت سمعان الأبرص في قرية بيت عنيا عندما أتت مريم، مدفوعة بحبها وإخلاصها للمخلص، وسكبت الطيب الثمين على رأسه، فإذا يهوذا الذي لم يحس بالمعاني العميقة التي انطوى عليها عمل مريم النبيل، حاول أن يقل من عظمة هذا العمل بالملاحظة الحمقاء التي أبداها وأراد بها أن يتظاهر بالتقوى، إذ كان رأيه أنه من الأفضل أن يباع الطيب ويعطى ثمنه للفقراء، ولكن الرب تدخل في الحال ليناصر المرأة التي تكدرت بسبب الهجوم الذي قام ضدها، ومدح عملها (الحصن) الذي سيسجل لها بكل فخار تذكاراً لها، وفي نفس الوقت انتهر الانتقاد الجائر الذي قام به ذلك الشرير فتيقن هذا أن الرب علم بجريمته.
وكانت لحظة حاسمة في حياة يهوذا قدمت له مرة أخرى البركة واللعنة وكان عليه أن يختار، كانت لحظة لابد أن يظهر تأثيرها إما للخير أو للشر لأجل نفسه الخادة، وكان على التلميذ المتعثر إما أن يلقي بنفسه الآن عند قدميّ يسوع بأنهار دموع التوبة والندم وأن يعترف بصراحة بأنه هالك ويطلب الخلاص والرحمة عند عرش النعمة، وإمّا أن كبرياءه تكسب المعركة وتحرضه على أن يأخذ مسلكاً مضاداً فيقسي قلبه بإرادته ويعطي الشيطان الفرصة ليشعل

شرارة جهنمية من البغضة لسيده. ولم يكد السيد ينطق بهذه العبارة التي لم تكن سوى تأنيباً خفيفاً أراد به أن يشفيه من الداء وإذا يهوذا يتسلح من بين المجتمعين في بيت سمعان ويسرع بالخروج لتكون له حرية أكثر، ويرى الآن أنه من الأنسب أن يكون بين أعداء يسوع من أن يبقى في دائرة رفاقه السابقين، وتمت المساومة على الثلاثين من الفضة بدافع التعطش للانتقام أكثر منه جشع وحب للمال ولعل يهوذا واجه احتجاج ضميره والتمس العذر لنفسه بأنه في امكان المعلم صانع المعجزات، إذا أراد، أن ينجي نفسه من أيدي أعدائه، ومع ذلك فالواقع أنه أغرق نفسه في دوامة لم يستطع فيما بعد أن يقاومها، ولم يعد له فيما بعد أن يقود خطواته، وإنما كان آخر يجره وراءه لقد سلم نفسه للشيطان.
ربما يمكننا أن نجزم أن يهوذا لم يعد يقدر أن يحتمل السير مع يسوع، ومع ذلك فإننا نراه يعود للظهور في مكانه القديم بين الاثنى عشر، ولست أدري ماذا أتى به مرة أخرى، هل كان العذاب الداخلي وعدم الاستقرار الذي أحس به، أم إنها الرغبة في إبعاد الشبهات عنه إذا ما غاب عن الجماعة، أو ربما ظن أن ملكوت المخلَّص قد حان موعده ورغب في أن يحتفظ بالدور الذي سيقوم به؟ ربما اجتمعت كل هذه الدوافع معاً لتحرضه على أن يظهر بين التلاميذ، ولكن يكفي أن نقول إننا رأينا ابن الهلاك هذا يظهر في آخر ليلة مع التلاميذ في أورشليم، ورأينا الرب يحاول مرة أخرى بكل وسيلة أن ينقذ هذه النفس التي كانت مريضة حتى الموت. فبعد أن جلس الرب على المائدة قال لتلاميذه بنبرات المحبة المتناهية والحزن الشديد: "الْحَقَّ الْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: إِنَّ وَاحِدًا مِنْكُمْ

سَيُسَلِّمُنِي!" (يو ١٣: ٢١). وارتعد الأحد عشر، ونظر الواحد للآخر في حزن وهلع، وأخذوا يستفسرون الواحد تلو الآخر في قلق شديد: (هل أنا هو يا رب؟) كل هذا وابن الهلاك يلوذ بالصمت ولا يريد أن يكشف عن نفسه، وصوت من الداخل يقول له: (اكشف عن نفسك يا يهوذا، أزل القناع، واهرب من الهلاك الأبدي قبل أن يغلق باب الرحمة، لكن يهوذا يستمر يقاوم صوت الضمير، ويظل يلف نفسه بعباءة ثقيلة من الخداع والرياء لأن صوتاً آخر أقوى كان يسري في كيانه مغرقاً كل ميل صالح. ويعود الرب يحدد ما يعينه بأكثر توضيح: (الذي يغمس يده معي في الصفحة هو الذي يسلمني) ثم يعلن الويل على الإنسان الذي سوف يرتكب هذه الجريمة الشنعاء، ويكشف له عن مصيره الرهيب.

وارتعب قلوب الأحد عشر، وتوسل بطرس للتلميذ الذي كان يتكئ على صدر يسوع وقت العشاء ليسأل الرب عمن كان يتكلم، ويتجاسر يوحنا وإن كان في خوف ويسأل السؤال: (من هو يا رب؟) وإذا بالرب يمزق آخر جزء من القناع الذي كان يخفي وجه الخائن ويقول: "هُوَ ذَاكَ الَّذِي أَغْمِسُ أَنَا اللُّقْمَةَ وَأُعْطِيهِ! فَغَمَسَ اللُّقْمَةَ وَأَعْطَاهَا لِيَهُوذَا سِمْعَانَ الإِسْخَرْيُوطِيِّ" (يو ١٣: ٢٦). وارتجف التلاميذ، بينما يقف يهوذا في شحوب الموت يرتعش وعيناه لا تستقران على شيء، وقد فارقته شجاعته. وبمزيج من الحيرة والاضطراب العميق ردد القول في خداع وعدم مبالاة، وعلى الرغم من كلمات السيد الصادقة والصريحة لكنه تجاسر وتلعثم بالسؤال: (هل أنا هو يا سيد؟) فيجيبه السيد بحزن قلب عميق: (أنت تقول) في تلك اللحظة تغلبت إرادة يهوذا الشريرة على معاملات الرحمة، وانتهى يوم الخلاص، وعبرت

ساعة افتقاد الرحمة الإلهية، وتفرقت عنه ملائكة السلام في حزن، ودخله الشيطان بانتصار، وتحقق القول الذي قاله السيد (واحد منكم شيطان) وكشف النقاب عن أفظع من وطأت أقدامهم هذه الأرض من البشر. وعندئذ قال له يسوع أخيراً: "مَا أَنْتَ تَعْمَلُهُ فَاعْمَلْهُ بِأَكْثَرِ سُرْعَةٍ" (يو ١٣: ٢٧)، وبهذا القول أراده أن يعرف أنه عالم بكل نواياه، وأنه يعتبره الأداة التي أراد بها الآب السماوي أن يسلمه للآلام التي كان سيكملها طوعاً واختياراً بسبب حبه للخطاة. لكن الأحد عشر لم يفهموا القول (ما أنت تعمله فاعمله بأكثر سرعة) فظن بعضهم في سذاجة أنه إذ كان الصندوق مع يهوذا أن السيد قال له (اشترِ ما تحتاج إليه للعيد) وظن آخرون أن المعلم قد أمره أن يعطي شيئاً للفقراء، ولم يخطر على بالهم فكرة الجريمة التي كان سيرتكبها واحد منهم. لكن لا يجب أن يغيب عن البال أن قول يسوع (مَا أَنْتَ تَعْمَلُهُ فَاعْمَلْهُ بِأَكْثَرِ سُرْعَةٍ) كان اعلاناً عن فصل الخائن من دائرة الأتباع المخلصين، فخرج من الغرفة حيث كانوا مجتمعين. ولم يكد ابن الهلاك يغادر العلية ورأى الرب يسوع نفسه مع تلاميذه الأحد عشر المخلصين حتى زال الحمل من على قلبه، وتنفس بارتياح وقال "الآنَ تَمَجَّدَ ابْنُ الإِنْسَانِ وَتَمَجَّدَ اللهُ فِيهِ. [٣٢]إِنْ كَانَ اللهُ قَدْ تَمَجَّدَ فِيهِ، فَإِنَّ اللهَ سَيُمَجِّدُهُ فِي ذَاتِهِ، وَيُمَجِّدُهُ سَرِيعًا." (يو ١٣: ٣١، ٣٢)، خرج يهوذا كما يقول الكتاب في كلمات رهيبة: (وكان ليلاً) ليل في الخارج وليل في الداخل، وأصبح الآن هذا المخلوق التعس المبيع بجملته تحت سلطان قوات الظلمة، مهيأ ليرتكب أبشع جريمة، وعلى الرغم من أنه كان مرتبكاً لكن قوات الظلمة التي استودع نفسه لها كانت تحمله في دوامتها ولم يعد بعد

يقدر أن يوجه خطواته كما يريد. يهوذا! يهوذا! كان هيناً لو لم يوجد سواك، ولكن حتى هذا اليوم اسم اخوتك لجئون لأنهم كثيرون.

(٩) إعلان الويل

إن فكر أحد أن يسألني عن أرعب عبارة وردت في الكتاب المقدس فلن أتردد طويلاً قبل أن أعطيه جواباً، سأشير له إلى الويل المرعب المعلن ضد يهوذا. وكلي ثقة أنه سيتفق معي على أنه لا يوجد في كل الكتاب أرهب من هذا الويل الذي نطق به الرب يسوع ضد مسلمه. "وَلكِنْ وَيْلٌ لِذلِكَ الرَّجُلِ الَّذِي بِهِ يُسَلَّمُ ابْنُ الإِنْسَانِ. كَانَ خَيْرًا لِذلِكَ الرَّجُلِ لَوْ لَمْ يُولَدْ!" (مر ١٤: ٢١)، ومن هو الذي نطق بهذه الكلمات المرعبة؟ فكر في هذا أولاً وعندئذ تكشف لك الكلمات عما تخفيه من أهوال. آه لو أن واحداً آخر هو الذي بها ولم يكن يسوع! آه لو أن خرجت من فم واحد نظيرنا. لكنه يسوع الذي من شفتيه خرج الوعيد، إنه ملك الحق، صديق الخطاة هو الذي نطق به، وليس من السهل أن نقدر المخاوف المتضمنة في هذا الوعيد، ففيه لا نلمس ذات الانفعال والحيرة، لكنه صوت ذاك الذي قال بحق عن نفسه: (إني وديع ومتواضع القلب). إنها كلمات رصينة صارمة انبعثت من شفتي ذاك الذي امتلأ قلبه بالحزن وهو يعلنها بعينها على رجل كان يوماً موضع ثقته. لربما نتساءل: لقد كان الرب يعلم أنه خير لذلك الإنسان لو لم يولد، فلماذا لم يمنع ولادته؟ لماذا لم يعطل زواج أبويه؟ لماذا لم يصب أم يهوذا بالعقم مثلما حدث مع ميكال زوجة داود من قبل؟ لماذا لم يأخذ الطفل أليه وهو لم يزل في المهد؟ ولماذا أعطاه وقتاً وفرصة

لينضج ويبلغ هذه الدرجة من الانحدار والسقوط؟ لماذا لم يعمل الله ذلك وهو القدير وهو المحبة ذاتها؟
دعنا من مثل هذه الأسئلة فروح الإنسان لا تستطيع أن تسبر أعماق حكمة الله، إنه سر مختوم عنا كيف أن الله الكلّي المحبة يترك الناس يولدون بينما في علمه السابق يرى أن سلوكهم في الحياة سينتهي بهم إلى هوة الهلاك الأبدي. ولكننا نستنتج من ذلك أن محبة الله تسير بجانب عدله. وأين إذاً حرية الإنسان إن كان الله بقوة جبرية يمنع أي إنسان من أن يأتي بنفسه للهلاك؟ وأين قداسته إن كان ينحي العدل جانباً لكي يتجنب معاقبة الخطاة؟ وأخيراً ليس علينا أن نعرف كيف يتبرر الله في أعماله التي يجريها في الكون، لكن يكفينا أن نعرف أنه في اليوم الأخير العظيم سوف تردد كل نسمة ما نطق به موسى: "وَلكِنْ وَيْلٌ لِذلِكَ الرَّجُلِ الَّذِي بِهِ يُسَلَّمُ ابْنُ الإِنْسَانِ. كَانَ خَيْرًا لِذلِكَ الرَّجُلِ لَوْ لَمْ يُولَدْ!" (تث ٣٢: ٤).
(كان خيراً له لو لم يولد)! ما أرعب مصير الفاجر! آه لو كان مصير الفجار محتملاً جزئياً، ما كان ملك الحق قد تكلم هكذا! ولكن إذ يعلن لنا أنه لا يوجد شيء أفضل لابن الهلاك أكثر من أن يرجع إلى العدم فبهذا يعطينا فكرة عن الجحيم تجعل كل عظامنا ترتجف. وهل يمكننا أن نفترض أنه يوجد طريق للهروب من المصير الرهيب؟ ولو كان الأمر كذلك، فهل كان الرب يستخدم أسلوباً كهذا عندما نطق بالويل على يهوذا؟ كلا البته! بل كنا سمعنا من شفتيه كلمات أرق من هذه، ولكان من الأفضل ليهوذا أن يولد من لو أنه لم يولد قط، وفي هذه الحالة يوجد لمثل هذا الإنسان ما يدعوه لأن يشكر الله على ساعة ميلاده، وليس ما يجعله يلعن ويسب اليوم الذي

ولد فيه، ولكن الرب يسوع يقرر أنه كان من الأفضل ليهوذا لو لم يولد، ومن ثم يكفينا هذا لنستبعد آخر رجاء في رجوعه. ما أرهب أن يواجه الإنسان هذا المصير، إن عذابات جهنم الأبدية حقيقية، فدودهم لا يموت والنار لا تطفأ.
والآن حول نظرك إلى نفسك، واعط حساباً عن نفسك أمامه، فيوجد من يمنطقون أنفسهم برداء الدين مثل يهوذا ولكنهم يخفون تحته شيطاناً، وإذ يأمنون عيون العالم يخدمون بسرور سلطان الشهوات والجشع والكبرياء، ويخفونها خلف ستار التدين، فهل أنت واحد من هؤلاء؟

(١٠) في الطريق إلى جثسيماني

نعود الآن إلى الكتاب المقدس عند نقطة هامة، فقد فرغ الرب من تقديم عشائه المقدس للتلاميذ، ثم رنم مع تلاميذه في سكون الليل تسبحة الشكر التي تتألف من المزامير (١١٥ ـ ١١٨) كما جرت العادة في أعياد الفصح، وهذه هي المرة الأولى التي نرى فيها السيد يرنم، فالأصل اليوناني يصرح بأنه اشترك في التسبيح. لقد قدس الرب الموسيقى في الكنيسة، فالترنيم هو عطية السماء الثمينة للأرض، هو لغة الوجدان ونفحات النفس التي تشعر بالسرور والسعادة. فكم من مرة أعاد السلام في ساعة الضيق، وأبعد الشيطان وأبطل مؤامرته. إنه كنسمات الربيع عندما تهب على السهول الثلجية فتجعل القلوب الصخرية تذوب كالشمع وتحولها بقعة خصبة صالحة لنمو بذرة الحياة. وبعد أن سبحوا خرج الرب يسوع إلى جبل الزيتون، يسرع الخطى تثقل كاهله ذنوب ملايين البشر وهو يعلم أن مستقبل العالم وخلاص الملايين مرتبط به، ويتقدم ليزرع في شخصه هو

بذرة السماء والأرض الجديدة، فأين كان سينتهي بنا المصير لو لم يسلك الرب هذا الطريق لأجلنا؟ إن طريقنا كان لابد أن يفضى بنا إلى النار التي لا تطفأ. إن العمل الذي تعهد أن يقوم به كان ماثلاً بضخامته أمام عينيه دائماً وكان يتثقل به، لكن النتيجة المجيدة كانت بالمثل واضحة أمامه، وفي كل خطوة كان متيقناً أن الآب أرسله ليسد الفجوة التي أحدثتها الخطية بين السماء والأرض. ويسير المخلَّص في سكون الليل وظلامه، يرافقه تلاميذه في تأثر عميق بما جرى في العلية في أورشليم، ولكن في نفس الوقت كانوا في غاية الابتهاج بكلمات النعمة التي فاه بها السيد والمعلم السماوي. وعندئذ قطع الرب حبل الصمت العميق في التفكير وقال لتلاميذه: (كُلُّكُمْ تَشُكُّونَ في فِي هذِهِ اللَّيْلَةِ، لأَنَّهُ مَكْتُوبٌ: أَنِّي أَضْرِبُ الرَّاعِيَ فَتَتَبَدَّدُ خِرَافُ الرَّعِيَّةِ.) (متى ٢٦: ٣١). وفي هذه الكلمات يوضح الرب وجهة النظر التي استوحى منها آلامه التي كان مقبلاً عليها وهو على دراية تامة بكل ما سيحدث. كان يعتبر آلامه ضرورة حتمية لا مناص منها، ويتبيّنها بتفاصيلها. ما كان أيسر عليه أن يتراجع عنها في ظلام الليل! ولكنه طوعاً واختياراً سلم نفسه، وبينما كان يعلن القول (هذه الليلة) كان يسلك في طريقه بخطوات ثابتة إلى بستان جثسيمانى حيث تبدأ المرحلة الأولى للآلام. كانت ترتسم أمامه بوضوح نهاية آلامه: "اِسْتَيْقِظْ يَا سَيْفُ عَلَى رَاعِيَّ، وَعَلَى رَجُلِ رِفْقَتِي، يَقُولُ رَبُّ الْجُنُودِ. اِضْرِبِ الرَّاعِيَ فَتَتَشَتَّتَ الْغَنَمُ، وَأَرُدُّ يَدِي عَلَى الصِّغَارِ." (زكريا ١٣: ٧). ثم يعلن الرب أن هذه النبوة على وشك أن تتم وتتحقق فيه، فهو يحسب نفسه مضروباً من الله، لقد أخذ مكاننا وتألم عوضاً عنا وأصبح كفارة لخطايانا، وتم فيه ـ

كوسيط ـ تنفيذ الحكم الرهيب "مَلْعُونٌ كُلُّ مَنْ لاَ يَثْبُتُ فِي جَمِيعِ مَا هُوَ مَكْتُوبٌ فِي كِتَابِ النَّامُوسِ لِيَعْمَلَ بِهِ" (غل ٣: ١٠)، وهذا من أجل كرامة الله، واسترداد هيبة الناموس، وفداء نفوسنا.
هكذا فقط يفهم الأمر وليس بطريقة أخرى. يجب أن نفهم آلام المسيح على هذا الأساس، وإلا فإن مئات الفصول الكتابية تبقى أمامنا كألغاز محيرة. يجب أن تفسر آلام المسيح هكذا، وإلا يكون المصير الرهيب الذي تعرض له قدوس إسرائيل كنغمة غير متوافقة في تاريخ الجنس البشرى، ولكانت العناية الإلهية وسياسة الله في الكون توضع موضع التساؤل. إن الرب كان يعلم جيداً أن آلامه ستثير التساؤلات وإذ ذاك قال: (كُلُّكُمْ تَشُكُّونَ في فِي هذِهِ اللَّيْلَةِ). ويخطئ الفكر ويعجز عن إدراك الأمور الإلهية إلى أن يحصل القلب على البصيرة الحية كأمر لازم لا غنى عنه، ينبغي أولاً أن تشتهي الخلاص كما فعل زكا واللص على الصليب، وعندئذ ترن هذه الكلمات في أذنيك بنغمة جديدة: (إنى أضرب الراعى) هذه الكلمات التي اقتبسها الرب تكشف بوضوح عن إدراكه للمعنى الحقيقي لآلامه، وعلى هذا يمكننا أن نفهم قوله: (لى صبغة أصطبغ بها كيف أنحصر حتى تكمل)، وأن يدرك ما تعنيه صلاته التي رفعها بحزن: "يَا أَبَتَاهُ، إِنْ أَمْكَنَ فَلْتَعْبُرْ عَنِّي هذِهِ الْكَأْسُ" (متى ٢٦: ٣٩)، وبلاشك لم تكن محبة الآب للابن الوحيد لتتخلى عنه لحظة واحدة، لقد تبع يسوع غاية مسرته العليا ومحبته المترفقة، ولكن احساسه بمحبة أبيه كان سيختفي عنه حيناً ليحل محله احساس آخر بأن الآب قد تركه.

ويخبرهم الرب أن الكتب المقدسة ومن رائها إرادة ومشورة الله سوف تتم من جهة آلامه، ويا لها من دعامة قوية سند الرب بها تلاميذه لأيام الحزن وبها حفظ إيمانهم من أن يتحطم تماماً. لقد أخبرهم أنه على الرغم من أن غنم القطيع سيتشتت لكنهم سيظلون كما هم قطيعه ولن يتركهم بسبب عدم أمانتهم، وأعلن لهم أنه عندما يخرج من آلامه ظافراً وبعد أن يكون قد قهر الموت نفسه فإنه سيعود فيجمعهم حوله في سلام وفرح، وهكذا يدبر لهم بعنايته الفائقة ليس فقط الحاضر بل والمستقبل أيضاً، ويعد لهم الطريق ليمنع الشر من الوصول إليهم ويمنحهم كل بركة يحتاجونها. آه كم نكون في أمان عندما نستودع نفوسنا لعنايته الفائقة؟ قد يحدث أحياناً أن يساورنا الشك فنفترق عنه إلى حين لنتبع طرقنا الخاصة، ولكنه لا يتركنا طويلاً شاردين بل يعود فيطلبنا لأن كلامه يبقى كما هو لكل غنم قطيعه: (لن تهلك إلى الأبد، ولا تستطيع أحد أن يخطفها من يدى).

ويقول الرب "وَلكِنْ بَعْدَ قِيَامِي أَسْبِقُكُمْ إِلَى الْجَلِيلِ" (متى ٢٦: ٣٢) إنه يتطلع بثقة وابتهاج إلى المستقبل القريب، ليرى بحر آلامه الخضم النصر الذي سيحرزه سريعاً. إنه يعرف كيف يقود خطواته، وأعلن عن سر فرحه، وكان هذا في تمسكه بالوعد الإلهي. (وَلكِنْ بَعْدَ قِيَامِي أَسْبِقُكُمْ إِلَى الْجَلِيلِ) فالجليل إذاً هو مكان الالتقاء حين يعود يجتمع بهم، وهناك لن تكون له بعد كأس الألم يتجرعها، ولا أتباعه يشكون فيه، وهو ليس بعد رجل الآلام وإنما سيكون متسربلاً بالبهاء وبمجد الانتصار، فيقابل المحبوبين ويحييهم تحية السلام.(أَسْبِقُكُمْ إِلَى الْجَلِيلِ). حتى نحن لنا شيء

في هذه الكلمات إن كنا نستطيع أن نقرأ بين السطور (بَعْدَ قِيَامِي). بلا شك إن هذه القيامة التي ننتظرها لا تتأخر، فسيأتي الوقت عندما يرفع ملكوته من الأرض ويستعلن ذاك الذي على رأسه تيجان كثيرة بعد أن اكتنفه الحزن طويلاً، وربما يكون هذا اليوم قد اقترب جداً، فعندئذ نمضي نحن إلى جليل السلام والفرح حيث نعاين وجهاً لوجه ذاك الذي وإن كنا لا نراه الآن لكننا نحبه، وسوف نقابله بترانيم الابتهاج والسعادة. وعلى الرغم من أننا نشاهد لمحات من هذا المجد ونحن على الأرض لكننا ننتظر جليلاً آخر حيث سبقنا هو إليه والذي قد يكون أقرب إلينا من الأول، أعني به ذلك الجليل الذي على شواطئه يلقى كثيرون من السياح المتعبون مراسيهم. وهناك يمسح يسوع آخر دمعة من عيون المسافرين الذين يحطون رحالهم هناك، وحيث ينشدون بترنيمة (الحمل المذبوح) على الدوام ويبتهجون بالدم الذي فيه اغتسلت ثيابهم وتبيضت.
إيه أيها الجليل الذي فوق السحاب حيث في ربوعك يتم اتحاد كامل بيسوع موضوع محبتنا! وكم يجعلنا التفكير فيك سعداء مبتهجين ونحن نعبر سياحتنا وادي الدموع! أيها الجليل الرابض فوق السحاب، طوبى لمن سبقه يسوع ليعد له مكاناً في أوديتك الدائمة الاخضرار وفوق روابيك التي لا تنحسر الشمس عنها. وقد تقول: طوبى حقاً. فقط لو كنا واثقين من أننا سنرسو هناك أخيراً، إن كنت لست واثقاً بعد فلا تتوان عن طلب التأكيد من الرب، ففي كل زمان ومكان يميل أذنيه إليك حيث يسبقك إلى هناك ليتقابل معك ويباركك. إن كلمته تعلن لك أنك ستراه وجهاً لوجه وهو يريد الآن أن يمتعك بباكورة من المجد العتيد، اقترب منه إذاً واقبل

من ملئه نعمة فوق نعمة، تأكد وابتهج بحضوره وثق في رغبته أن يأخذك أخيراً في بيته الأبدي حيث ملء الفرح والابتهاج إلى أبد الآبدين.

(١١) الحديث في الطريق

تركنا الرب آخر مرة وهو في طريقه إلى البستان الموحش الذي اعتاد أن يميل إليه في ظلام الكون وسكونه، وكان ذهنه منحصراً في الموت الذي يقترب منه. ويلتف حوله التلاميذ كما هي العادة عندما تحين ساعة الافتراق، عندما يطغى الحزن على الذهن المثقل ويصبح الحديث نادراً والكلمات قصيرة المقاطع تتخللها فترات طويلة من الصمت المطبق، ولم يكن الرب يفكر في نفسه أو في آلامه التي أوشكت، فهذه يضعها في مؤخرة ما يهتم به، ولكن ما كان يؤثر فيه أكثر من كل شيء هو محبته واهتمامه بالقطيع. ويحول الرب نظره إلى بطرس الذي بدا أكثر الكل حزناً وبعد أقربهم ألى نفسه، فيقول له: "سِمْعَانُ، سِمْعَانُ، هُوَذَا الشَّيْطَانُ طَلَبَكُمْ لِكَيْ يُغَرْبِلَكُمْ كَالْحِنْطَةِ" (لو ٢٢: ٣١) ما أرهب هذه الكلمات التي زاد من رهبتها ظلام الليل والظروف التي قيلت فيها! ففي نفس اللحظة عندما كان سيفترق عنهم مُعيِنهم وقائدهم الوحيد يتلقون هذا النبأ، إن أشد الأعداء رعباً يقترب منهم. وأثارت كلمات الرب دهشتهم وأدخلت الروع في قلوبهم (الشيطان قد طلبكم، بحث عنكم ليظهر فيكم قوته، ولكي يبرهن أنه لا خير فيكم، وأن تغييركم لم يكن إلا تمويهاً وخداعاً)، يسمح الرب أحياناً أن يستخدم الشرير قوته ليجرب المفديين لكن إلى درجة معينة، ويفعل الرب ذلك يثبت لقوات الظلمة الحصانة التي يتمتع بها اللذين

يستودعون ذواتهم له، وفي هذا تمجيد لاسمه، كما أنه مرات يريد أن ينفي أولاده في بوتقة التجارب ليصبحوا لامعين كالذهب، وبذلك يدخلهم إلى شركة أعمق. هذه هي المحنة التي تعرض لها التلاميذ، وكان المجرب قد راهن من البداءة أنه لو أعطى الفرصة لجعلهم جميعاً يرتدون على أعقابهم. وكان الرب يرى الدوامة الجهنمية التي تدور حول رؤوسهم، ولم يرض أن يخفي الأمر عنهم لئلا يؤخذوا بالهجوم المباغت، فيقول لهم في كلمات لا يشوبها الشك موجهاً نظره بنوع خاص إلى بطرس الذي كان هدف هجوم العدو: (سِمْعَانُ، سِمْعَانُ، هُوَذَا الشَّيْطَانُ طَلَبَكُمْ لِكَيْ يُغَرْبِلَكُمْ كَالْحِنْطَةِ). لقد أصبحوا الآن على علم بخطة العدو، وليتهم يضعون على قلوبهم كل مقطع من هذه الكلمات التي نرى فيها انذاراً وتعزية يختلطان معاً بكيفية عجيبة، فيقول لهم إنهم (كالحنطة) سيغربلون، وهذه العملية كما هو معروف تفرز التبن بعيداً بينما تبقى حبوب الحنطة الثمينة، وعلى ذلك فالنتيجة ستكون على خير ما يرام، وسوف يسفر الأمر عن تنقية وتطهير، ليس بحسب خطة الشيطان، ولكنه يعزى تماماً لتدخل النعمة الإلهية. فالذين يغربلون هكذا يغلبون حقاً، ولكن بعد أن يجتازوا في الضيق ويحسوا بضعفهم، ومن ثم يعرفون بالتحقيق إلى من يُعزى إكليل انتصارهم.

ودعونا الآن ننصت إلى الرب وهو يكمل حديثه الذي يكشف لنا عن عظمة وعمق محبته، فبعد أن نطق بهذا التحذير المرعب، نظر إلى التلاميذ باشفاق وكأنه يريد ن يشجعهم وقال لسمعان: "وَلكِنِّي طَلَبْتُ مِنْ أَجْلِكَ لِكَيْ لاَ يَفْنَى إِيمَانُكَ" (لو ٢٢: ٣٢). لقد تعودت البشاير أن تقودنا كثيراً إلى

مناظر أعمال الرب ومعجزاته الفريدة، وكثيراً أيضاً ما كشفت النقاب عن أحاديثه الهادئة مع تلاميذه المحبوبين، والأوقات التي مارس فيها وظيفته الكهنوتية، ولكننا هنا بنظرة إلى الرب في عزلته في مخدعه، فلم يكد الرب يحس بالهجوم المدبر على التلاميذ وخاصة على بطرس حتى طلب الاعتزال، وفي صلاته استودع التلميذ المعرض للخطر لحماية وحفظ الآب السماوي، وكان هدف صلاته ألا يفنى إيمان سمعان أمام حدة عصف التجربة. ولا يجب أن نظن أن سمعان بمفرده هو الذي حظى بهذا الامتياز دون غيره من المؤمنين، عندما كان سمعان هدف المحبة المتأججة، ولكنك إذا نظرت إلى صلاة الرب الشفاعية في (يوحنا ١٧) سوف تقتنع بغير ذلك، فاسمعه وهو يصلي: (أَيُّهَا الآبُ الْقُدُّوسُ، احْفَظْهُمْ فِي اسْمِكَ الَّذِينَ أَعْطَيْتَنِي، لِيَكُونُوا وَاحِدًا كَمَا نَحْنُ) (لَسْتُ أَسْأَلُ أَنْ تَأْخُذَهُمْ مِنَ الْعَالَمِ بَلْ أَنْ تَحْفَظَهُمْ مِنَ الشِّرِّيرِ) (أَنَا فِيهِمْ وَأَنْتَ فِيَّ لِيَكُونُوا مُكَمَّلِينَ إِلَى وَاحِدٍ، وَلِيَعْلَمَ الْعَالَمُ أَنَّكَ أَرْسَلْتَنِي، وَأَحْبَبْتَهُمْ كَمَا أَحْبَبْتَنِي) لا تحسب أن هذه الكلمات بما فيها من جمال، هي فقط لأجل تلاميذ الرب آنئذ، بل اسمع تكملة صلاته: (وَلَسْتُ أَسْأَلُ مِنْ أَجْلِ هؤُلاَءِ فَقَطْ، بَلْ أَيْضًا مِنْ أَجْلِ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِي بِكَلاَمِهِمْ، لِيَكُونَ الْجَمِيعُ وَاحِدًا، كَمَا أَنَّكَ أَنْتَ أَيُّهَا الآبُ فِيَّ وَأَنَا فِيكَ).

إن الإيمان الذي يعمله الروح القدس في نفوسنا له وعد بالبقاء والاستمرار بواسطة شفاعة مخلّصنا، فقد يجرب الإيمان ويهتز لكنه لن ينقرض أو يمحى، وأراد الرب أن يعرف سمعان هذه الحقيقة مقدماً، حتى إذا ما وقع له الهجوم يكون لديه درع واقٍ، وفي حالة الاستسلام يبقى له هذا الحق كقصبة يقفز بها من فوق بالوعة اليأس. (طَلَبْتُ مِنْ

أَجْلِكَ لِكَيْ لاَ يَفْنَى إِيمَانُكَ) لقد علم الرب أن بطرس سيسقط، وهو يرى فيه الآن التلميذ الضعيف الإيمان الذي سينكر سيده، ومع ذلك فإن أحشاءه نحوه أحشاء أم رحوم. كان كل اهتمام المخلّص ألا يقع بطرس فريسة لليأس بعد سقطته، وأراد أن يشجعه ليرجع إليه في الوقت المناسب، فقال له في اشفاق بينما كان يتطلع إلى المستقبل: "وَأَنْتَ مَتَى رَجَعْتَ ثَبِّتْ إِخْوَتَكَ" (لو ٢٢: ٣٢). فبعد إنكارك يمكنك أن تعود لتتعزى براعيك الصالح، أجل بل إنك في رجوعك ستكون أكثر قوة، لأنك في عودتك ستقوي إخوتك، وستبقى كما أنت تلميذه الذي سيرعى خرافه. (مَتَى رَجَعْتَ ثَبِّتْ إِخْوَتَكَ) لا يمكننا أن نكف عن سماع هذه الكلمات التي يظهر منها أن بطرس سيصبح فقط تلميذاً بالحق بعد أن يسقط، هذه هي الحقيقة وإلا لما سمح الله بالسقوط. إن الصفة اللازمة لمن يبشر بالانجيل هي قلب تائب منكسر تماماً، لأنه بعد أن ننال الرحمة وتغفر ذنوبنا وتعدياتنا نكون في وضع يهيئنا لكي (نقوي اخوتنا) وبعد أن نكون قد اختبرنا يقيناً أنه بدون المسيح لا نستطيع أن نعمل شيئاً وبه نستطيع كل شيء فعندئذ فقط نستحق أن نكون مبشيرين قادرين أيضاً أن (نجبر كسر القلوب) وأن (نشدد الركب المخلعة)، أمّا سمعان فلم يدخل في روح كلمات السيد، فنراه يصيح بغضب وكأن تهمة قد ألصقت به أو جوراً قد لحقه: (وإن أنكرك الجميع أنا لا أنكرك، أنا مستعد أن أذهب معك إلى السجن وإلى الموت) جميل جداً، ولكن ما أكثر الثقة بالذات! ومع ذلك فكانت غيرة اشتعلت في قلبه من نحو سيده أود لو أنها تعمنا بالمثل.

كانت رغبة مقدسة هي التي أملت على بطرس كلماته، ولكن كم فيها من المبالغة في الوعود! ألم يصل يسوع لأجله

لكي لايفنى إيمانه؟ بلى، ولو كان بطرس قد أقام ثقته على هذا الاعتبار لظل أميناً ومخلصاً في عهده حتى الموت، لكن سمعان تباهى بقوته وكان يعني أن يقول: (إن محبتي لك دليل على أني لن أنكرك). آه! إن قلب الإنسان أخدع من كل شيء والذي يعتمد على المشاعر والاحساسات إنما يستند على عود نخر، فمهما يكن شعورنا وأحساسنا بما لنا من قوة وغنى روحي لا ينبغي أن نعد بشيء في اعتماد على الذات ولا أن نضع أقدامنا على المياه حتى يدعونا الرب ويأمرنا بأن نفعل ذلك ويمد يده لنا بالمعونة، فالرب لا يعرض إيماننا للخزي والعار ولكنه ملجأ أمين لنا وسط العاصفة. ولم يكد بطرس يعلن في سذاجة تصميمه البطولي حتى سمع تحذيراً آخر من فم السيد، فأخبره الرب في صراخه عما يتهدده: (أقول لك يا بطرس لا يصيح الديك قبل أن تنكر ثلاث مرات أنك تعرفني) لقد سبق الرب فرأى إنكار بطرس وأمر الديك أن يحفزه للتوبة ليعود إليه ثانية الإنسان الذي سقط ويجعله يذرف التوبة والندم، وهكذا امتدت محبة الله المشفقة أبعد من التجربة وأعدت بلسماً للجراح التي سببها الانكار.

بعد أن فرغ الرب من الكلام مع بطرس، وبعد أن أعد العدة لرجوع التلميذ الغيور في زمان التوبة والدموع تحول للتلاميذ وقال لهم: "حِينَ أَرْسَلْتُكُمْ بِلاَ كِيسٍ وَلاَ مِزْوَدٍ وَلاَ أَحْذِيَةٍ، هَلْ أَعْوَزَكُمْ شَيْءٌ؟" (لو٢٢: ٣٥). لم يتذكر التلاميذ أن شيئاً ما أعوزهم، وبكل سرور اعترفوا بما فيه كرامة سيدهم وقالوا (لاَ) . لقد تصرف الرب معهم كما يفعل عادة مع أولاده في زمان محبتهم الأولى عندما يقودهم برفق وعطف وعناية أبوية. ويقول مشيراً إلى حياتهم المستقبلية: "لكِنِ الآنَ، مَنْ

لَهُ كِيسٌ فَلْيَأْخُذْهُ وَمِزْوَدٌ كَذلِكَ. وَمَنْ لَيْسَ لَهُ فَلْيَبِعْ ثَوْبَهُ وَيَشْتَرِ سَيْفًا" (لو ٢٢: ٣٦). وماذا تعني هذه الكلمات؟ إنه يعلن للتلاميذ أن الحروب والمخاطر والضيقات والتجارب المتنوعة تنتظرهم، وينبغي أن يستعدوا لها، ولكن ينبغي عليهم أن يستودعوا نفوسهم له بالتمام، فهو صديقهم الذي لمسوه أميناً دائماً في وقت الشدة، فيلزمهم بجانب الصلاة وانتظار مجيئه أن يستخدموا وسائل الحياة العادية، فمن له كيس لا ينبغي أن يطوح به، بل يجب عليهم أن لا يحتقروا الإمكانيات البشرية من عزيمة وشجاعة وحكمة وتدبير وبعد نظر. ويذكرهم الرب أن طريقة سيفضى به إلى احتمال الألم: "لِذلِكَ أَقْسِمُ لَهُ بَيْنَ الأَعِزَّاءِ وَمَعَ الْعُظَمَاءِ يَقْسِمُ غَنِيمَةً، مِنْ أَجْلِ أَنَّهُ سَكَبَ لِلْمَوْتِ نَفْسَهُ وَأُحْصِيَ مَعَ أَثَمَةٍ، وَهُوَ حَمَلَ خَطِيَّةَ كَثِيرِينَ وَشَفَعَ فِي الْمُذْنِبِينَ" (إشعياء ٥٣: ١٢) فيشهد أن ما كتب عن عبد الرب هناك كان يعنيه هو: إنه سيحمل خطايا كثيرين ويشفع في المذنبين، وأنه بطاعته وذبيحته سيبرر ويفدي شعبه. وهو بهذا يزيح بعض الغموض الذي يكتنف آلامه التي كان يقترب منها، وأراد أن يعرف التلاميذ أن الصليب هو طريقه إلى المجد، وأن تابعيه لا ينبغي أن يتوقعوا وهو في العالم الشرير مصيراً أفضل من مصير سيدهم وفاديهم

الجزء الثاني: القدس

١٢ـ جثسيماني.. الجهاد والانتصار.
١٣ـ جثسيماني.. مفهومها ونتائجها.
١٤ـ الهجوم المباغت.
١٥ـ قبلة الخائن.
١٦ـ السيف والكأس.

١٧ـ المسيح أمام حنان.
١٨ـ تفاصيل المحاكمة.
١٩ـ سقطة بطرس.
٢٠ـ الاعتراف العظيم.
٢١ـ دموع بطرس.
٢٢ـ تنبأ لنا أيها المسيح.
٢٣ـ المسيح أمام السنهدريم.
٢٤ـ نهاية الخائن.
٢٥ـ المسيح أمام بيلاطس.
٢٦ـ الدعاوي.
٢٧ـ مسيح ملك.
٢٨ـ ما هو الحق؟
٢٩ـ حمل الله.
٣٠ـ المسيح أمام هيرودس.
٣١ـ يسوع نائبنا.
٣٢ـ يسوع أم باراباس؟
٣٣ـ باراباس.
٣٤ـ الجلدات.
٣٥ـ (هوذا الإنسان).
٣٦ـ نهاية المحاكمة.
٣٧ـ الطريق إلى الصليب.
٣٨ـ سمعان القيراواني.
٣٩ـ بنات أورشليم.

(١٢) جثسيماني.. الجهاد والانتصار

الوقت ليل، وقد ترك الرب أورشليم مع الأحد عشر وهو عالم بكل ما سيأتي عليه، ثم ينزل مع تلاميذه إلى وادي

السرور المظلم الذي اندلعت النيران فيه مرة زمن حكم الملوك وأتت على رجاسات الوثنية التي كانت منتشرة هناك. ويتكلم الرب إلى تلاميذه بحديث مؤثر وهو يعبر معهم إلى وادي قدرون حيث عبر من قبل سلفه الملك داود عندما كان هارباً من وجه أبشالوم ابنه وهو يسير حافي القدمين، مغطى بمسوح، ووجهه إلى الأرض بسبب خطيته وخطايا شعبه. لقد كان المخلِّص يتأمل ما تشير إليه الرموز والظلال، وهو يدخل بستان حثسيماني (معصرة الزيت) حيث تنتصب أشجار زيتون ضخمة لاتزال باقية إلى اليوم ترشد الزائرين الأتقياء إلى البقعة حيث بكى رب المجد وذرف الدموع على شقاء البشرية وتعاستها وهناك صلى في أنين وتوجع لأجل خلاصهم. ومن المعروف أن الرب اعتاد أن يختلي في هذا المكان الآمن ليستريح من حر النهار ومتاعب التجوال، وبشركته المقدسة مع أبيه السماوي كان ينال قوة جديدة لأجل عمله العظيم، لذلك يذكر لوقا البشير أن الرب مضى (كالعادة) إلى جبل الزيتون، غير أنه في هذه المرة جاءه باحساس جديد يختلف عن المرات السابقة. لقد مضى الآن وقت ليس بقليل منذ أن سبح الرب مع تلاميذه وعلى إثر ذلك غادروا العلية في أورشليم. إنه الآن يبدو في صمت ونفسه مثقلة للغاية، وأحس كل واحد من التلاميذ بالتغيير الذي طرأ على مشاعر السيد، ولذلك لم يكن غريباً أنه على إثر وصولهم باب البستان سمعوه يقول لهم في نغمة من التأثر الشديد: "اجْلِسُوا ههُنَا حَتَّى أَمْضِيَ وَأُصَلِّيَ هُنَاكَ" (متى ٢٦:٣٦). ويجلس التلاميذ عند مدخل البستان طاعة لأمر سيدهم بينما يصطحب معه بطرس ويعقوب ويوحنا ويتقدمهم إلى داخل البستان، فقد رأى من اللازم ـ لخير

كنسته في المستقبل ـ أن يكون هناك شهود عيان لمشهد جهاده. ولعل ما دفعه أيضاً أن يأخذ معه التلاميذ الثلاثة هو شعور بشري مقدس بحاجته إلى رفقة من المعزين المحبين يشجعونه في صراعه الذي هو قادم عليه، ولم يكن المسيح غريباً عن المشاعر البشرية الطاهرة، فقد كان مشابهاً لنا في كل شيء بلا خطية.
إن الآب الأزلي بنفسه يشرف من علاه على هذا المشهد فماذا لنا نفعل في حضرته إلا أن نصرخ مع أيوب: "هُوَذَا اللهُ عَظِيمٌ وَلاَ نَعْرِفُهُ وَعَدَدُ سِنِيهِ لاَ يُفْحَصُ" (أي ٣٦: ٢٦). ومرة بعد الأخرى يلقي الابن بنفسه بين يديّ الآب في تضرع ولجاجة، ولاتزال كأس الأهوال لم تعبر عن المخلَّص الغارق في الآلام بل على النقيض تزداد مرارتها لحظة بعد الأخرى، ويزداد الصراخ وتعلو الزفرات، ويشتد الصراع في الصلاة، لكن الآب صامت، والسماء تبدو كما لو كان قد أحكم غلقها بآلاف المصاريع ويسجل البشير لوقا القول: "وَإِذْ كَانَ فِي جِهَادٍ كَانَ يُصَلِّي بِأَشَدِّ لَجَاجَةٍ، وَصَارَ عَرَقُهُ كَقَطَرَاتِ دَمٍ نَازِلَةٍ عَلَى الأَرْضِ" (لو ٢٢: ٤٤). ولننظر أيضاً إلى تلاميذه الذين ملأوا مكيال حيرتنا أمام هذه الأمور الغامضة، فبينما كان السيد يصارع مع الموت في جهاد لا يوصف نراهم منبطحين على الرض وقد غلب عليهم النعاس. ويوقظهم السيد وكأنه يتوسل إليهم لكي يسهروا معه قليلاً، ولكنهم يغطون في النوم مرة أخرى غير عابثين به، تاركين سيدهم لآلامه، واحد منهم هو الذي صرخ قائلاً: (لو شك فيك الجميع فأنا لا أشك، ولو أضطررت أن أموت معك)، والآخر هو تلميذ المحبوب، والثالث هو الذي سبق أن أعلن استعداده لتحمل الآلام بعزم وتصميم عندما أتاه السؤال من السيد: (أتستطيعان أن

تشربا الكأس التي أشربها أنا، وأن تصطبغا بالصبغة التي أصطبغ بها أنا؟)
ولنعود الآن لنتأمل عن أكثر قرب في هذا الصراع المرير في جثسيماني فلم يكد يسوع يخطو بضع خطوات داخل البستان مع تلاميذه الثلاثة حتى "ابْتَدَأَ" أمام عيونهم، "يَحْزَنُ وَيَكْتَئِبُ" (متى ٢٦: ٣٧)، وفي هذه الكلمات نجد إشارة إلى أن شيئاً لم يكن من قبل قد أتى عليه، وفي نفس الوقت تكشف لنا أن آلامه وأحزانه كان يتحملها طوعاً واختياراً. ويعطينا مرقس البشير بوصفه الدقيق لتفاصيل المشهد الرهيب فكرة أوضح عن الحزن الذي جاء على المخلَّص في قوله "ابْتَدَأَ يَدْهَشُ" (مر ١٤: ٣٣) وهذه الكلمة ـ في الأصل ـ تتضمن رعباً مفاجئاً بسبب شيء مخيف ويريد البشير بهذا أن يعلن أن فزع يسوع كان بسبب مناظر من الخارج قد اقتحمته وكانت تنذر بتمزيق أعصابه. وعقب هذا الهجوم الأول يعود يسوع إلى تلاميذه الثلاثة متكلماً إليها بكلمات تلقي ضوءاً قوياً على مقدار ما كان يتثقل به: "نَفْسِي حَزِينَةٌ جِدًّا حَتَّى الْمَوْتِ!" (مر ١٤: ٣٤)، وهذه لا تكشف فحسب عن مقدار أحزانه ولكن أيضاً عن طبيعتها ونوعها، فنقرأ أنه (كان في جهاد) أو كما تترجم أحياناً (كان يصارع مع الموت) لقد رأى شفيعنا ونائبنا نفسه موضوعاً في أهوال كان لابد أن يجتاز فيها، ومهما تكلم الناس عن آلامه من غير أن يدركوا الوساطة فلا يمكنهم تفسير أهوال جثسيماني تفسيراً واضحاً مقبولاً، لن الأمر لم يكن قاصراً على مجرد تجرعه كأس الموت نيابة عن الخطاة الأمر الذي لأجله جاء المسيح، لكن المخلَّص على الصليب قد انتصر على (أخر عدو) وأفرغ الكأس من أهوالها للعبيد، ولكن كواحد تثقله الآلام وفي

حاجة إلى من يشد أزره ويواسيه، فيتكلم معهم كأخوة له قد يكون في مقدورهم أن يقدموا له معونة، فيقول لهم: "أُمْكُثُوا ههُنَا وَاسْهَرُوا مَعِي" (متى ٢٦: ٣٨). وبعد أن وجه إليهم هذه الكلمات افترق عنهم نحو رمية حجر تحت جنح الظلام الذي يخيم على البستان، ثم جثا على ركبتيه، وخر على وجهه وكانت تصعد أنات وتضرعات من نفسه المثقلة بالحزن الشديد: "يَا أَبَا الآبُ، كُلُّ شَيْءٍ مُسْتَطَاعٌ لَكَ، فَأَجِزْ عَنِّي هذِهِ الْكَأْسَ. وَلكِنْ لِيَكُنْ لاَ مَا أُرِيدُ أَنَا، بَلْ مَا تُرِيدُ أَنْتَ" (مر ١٤: ٣٦). نعم إنه يود لو عبرت الكأس عنه إذ كانت قد مزجت فيها الآهوال المرعبة، ولكونه إنساناً حقيقياً له الطبيعة التي تحس بالألم رغب أن تعبر الكأس عنه، بشرط أن يكون ذلك بحسب إرادة ومشورة الآب.

وقد يتساءل البعض: (كيف يسأل المسيح عن إمكانية فداء البشرية من غير الصليب، وبدون سفك دم؟ لم يكن هذا ما يقصده المسيح، لقد كان سؤال الرب يختص بالأهوال الحالية، كأس جثسيماني. وينبغي أن نذكر هنا أن خضوع ابن الله لإرادة الآب كان يتضمن أن يجرد نفسه إلى حد معين، من استخدام صفاته الإلهية عموماً، وخاصة مقدرته التي لا تحد، لكي يكون في وضع يجعله يسلك نفس طريق الإيمان، وعلى حد تعبير الرسول "مَعَ كَوْنِهِ ابْنًا تَعَلَّمَ الطَّاعَةَ مِمَّا تَأَلَّمَ بِهِ" (عب ٥: ٨).

إن صلاة القدوس المتألم طرقت باب السماء بكل قوة الغيرة المقدسة الخضوع لإرادة الآب لكن لم تظفر أذنه بصدى، فقد لزمت السماء الصمت المطبق، فنهض من تضرعه في حزن بالغ وأسرع إلى تلاميذه لكنه وجدهم في سبات عميق، فايقظهم موجهاً كلامه لبطرس: "يَا سِمْعَانُ، أَنْتَ نَائِمٌ! أَمَا

قَدَرْتَ أَنْ تَسْهَرَ سَاعَةً وَاحِدَةً؟" (مر ١٤: ٣٧) سؤال حير التلميذ الجسور الذي امتلأ فمه منذ لحظات بأقسام الأمانة حتى الموت، ثم يوجه الرب تحذيراً إلى ثلاثتهم: "اِسْهَرُوا وَصَلُّوا لِئَلاَّ تَدْخُلُوا فِي تَجْرِبَةٍ. أَمَّا الرُّوحُ فَنَشِيطٌ، وَأَمَّا الْجَسَدُ فَضَعِيفٌ" (مر ١٤: ٣٨). إن الدافع الذي جعل الرب يسرع إلى تلاميذه هذه المرة ليس فقط شعوره بالحاجة بقرب من يواسيه بسبب نفسه المغمومة بل كان أيضاً عطفه الشديد عليهم إذ كانوا نظيره تحيط بهم قوات الظلمة وقد حانت الساعة التي أشار عنها في فرصة سابقة محذراً "ساعة الظلمة"، وكان رئيس هذا العالم قد استعد بكامل سلاحه وقد أصاب التلاميذ الذهول والعجز وكأنهم غابوا عن وعيهم، وكان من الضروري أن يجمعوا كل قواهم الروحية والذهنية حتى لا يخوروا أمام التجربة ويتعرضوا للشك والانكار ثم الارتداد، ويعود الرب مرة أخرى تحت ظلال البستان الكثيفة، ويصلي مرة ثانية بطريقة تختلف قليلاً عن الأولى: "يَا أَبَتَاهُ، إِنْ لَمْ يُمْكِنْ أَنْ تَعْبُرَ عَنِّي هذِهِ الْكَأْسُ إِلاَّ أَنْ أَشْرَبَهَا، فَلْتَكُنْ مَشِيئَتُكَ" (متى ٢٦: ٤٢)، ويذكر أحد البشيرين أنه في هذه المرة كان (يصلي بأشد لجاجة).

وبعد أن قام من الصلاة رجع إلى تلاميذه فوجدهم (نِيَامًا مِنَ الْحُزْنِ)، وكما يقول الكتاب أيضاً (إِذْ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ ثَقِيلَةً) وفي هذه الغيبوبة لم يعلموا بماذا يجيبونه. وللمرة الثالثة تركهم ومضى بمفرده وصلى نفس الكلمات بعينها، وإذا بملاك يتراءى للمخلّص في جهاده، ويقترب منه (لِيُقَوِّيهِ) وكان هذا الظهور لكائن سماوي سبب تعزية ليست بقليلة بعد أن كان ذهنه منحصراً في دائرة البشر الخطاة والأرواح الساقطة. وربما كانت إرسالية الملاك لأجل تقوية جسمه المهدود

ولإنعاش روحه المغشى عليها، حتى ـ على الأقل ـ لا يخور الجسد في المرحلة الأخيرة من الصراع الأليم. فنقرأ عنه أنه بعدما اختفي الملاك (وَإِذْ كَانَ فِي جِهَادٍ كَانَ يُصَلِّي بِأَشَدِّ لَجَاجَةٍ، وَصَارَ عَرَقُهُ كَقَطَرَاتِ دَمٍ نَازِلَةٍ عَلَى الأَرْضِ). يا له من منظر عجيب! ألا يقدم لنا هذا المنظر الفريد ضوءاً خافتاً لندرك طبيعة وأهمية آلام عمانوئيل! ألا يلقي بصيصاً من النور على أحلك وأرهب لحظة من الصراع المرير في جثسيماني؟ ونود أن نشير مرة أخرى إلى تلك الصلاة التي كثيراً ما يتعثر بها العالم، فمن الصعب جعلها تتفق مع محبتة الرب للجنس البشري، ومع خضوعه لإرادة الآب، ومع سابق علمه بكل الأشياء، ومع الهدوء الذي بدا عليه عندما أعلن عن آلامه التي تنتظره، فكيف يرغب فجأة أن تعبر الآلام عنه؟
أولاً: بالنسبة لسابق علمه بكل الأشياء نكرر ما سبق أن ذكرناه أن الابن الأزلي عندما أخلى نفسه في خضوع لإرادة الآب كان هذا يتضمن أنه أثناء تجواله في الأرض عليه أن يتخلى ويجرد نفسه من الاستخدام غير المحدود لصفاته الإلهية، وإذ ترك الأبدية التي لا يحدها الزمان والمكان، دخل إلى العالم المحدود بالزمان والمكان لكي يكون له أن يسلك طريق طاعة الايمان معنا، ويكمل نفسه فيه باعتباره رأسنا ورئيس كهنتنا ووسيطنا، و(كعبد الرب) ـ وهذا هو لقبه في العهد القديم ـ كان عليه أن يخدم لا أن يأمر، أن يتعلم الطاعة لا أن يحكم، أن يصارع ويناضل لا أن يملك في راحة عظمى بعيداً عن أى ألم أو جهاد. وكيف يمكن ذلك لمن هو معادل لله، من غير أن يحد نفسه هكذا؟ إن كل آلامه وتجاربه كانت تعد خيالية وليست حقيقية. إنه لم يكف لحظة عن أن يكون هو حقيقة متمتعاً بكل الكمال الإلهي، ولكنه منع نفسه من

ممارسة كمالاته بحسبما كانت إرادة الآب السماوي أن يمتنع.
ثانياً: نلاحظ أن الرب في جثسيماني لم يطلب أن يتخلَّص من آلامه الشديدة عامة. وإنما أن تعبر عنه الأهوال التي كان يمر فيها آنئذ، فكيف يرغب في شيء لا يتفق مع مشورة الآب، وهو نفسه الذي عندما أراد التلاميذ إقناعه بالعدول عن تسليم نفسه، انتهرهم بشدة؟ ولكنه كان يسأل فقط إن كان ممكناً أن تعبر عنه الكأس، وكان يعني فقط تلك الكأس التي كانت مرارتها على لسانه.
ثالثاً: هل كانت صلاة المسيح تتفق مع محبته للخطاة ومع خضوعه لإرادة الآب؟ لقد طلب من الآب أن تعبر الكأس عنه دون تعطيل لعمل الفداء. ووضع لإمكانية عبور الكأس عنه شروطاً وحدوداً، فلم يطلب أن تتدخل القدرة الإلهية غير المحدودة لنجاته. لقد كان يقصد أن يقول: (أيها الآب، أنا عالم تماماً أن آلامي ستؤول إلى ما فيه سرورك، ولكن هل في الإمكان أن تعبر عني من غير تعطيل لفداء الخطاة؟ إن لم يكن ممكناً فارفض طلبي هذا، وسوف أشرب الكأس حتى النهاية. وبعد أن تأكد من تمسك الآب السماوي بالصمت المستمر وأن العالم لا يمكن فداؤه بطريقة أخرى سوى أن يشرب هو الكأس إلى نهايتها، لم يعد يعبر بعد عن رغبته في أن تعبر الكأس عنه. ولم يعد يكرر هذه الصلاة ولكنه بهذه الكلمات: (يَا أَبَتَاهُ، إِنْ لَمْ يُمْكِنْ أَنْ تَعْبُرَ عَنِّي هذِهِ الْكَأْسُ إِلاَّ أَنْ أَشْرَبَهَا، فَلْتَكُنْ مَشِيئَتُكَ) تمم الفداء العظيم إذ سلم في خضوع نفسه بجملتها بين يديّ أبيه السماوي. وفرغت كأس الآلام حتى آخرها، ونهض الرب من صلاته وأسرع إلى تلاميذه وقد تغيرت الآن تعبيرات وجهه ونغمة

كلامه، وكل حركاته بما يشير إلى القوة التي نالها وإلى احساسه بالانتصار، فقد خرج ظافراً من الصراع مسلحاً ومستعداً لكل ما سيأتي عليه، فيقول لتلاميذه في تأنيب شديد: "نَامُوا الآنَ وَاسْتَرِيحُوا! يَكْفِي!" (مر ١٤: ٤١). ثم يقول لهم في ختام كلامه: (قُومُوا لِنَذْهَبَ! هُوَذَا الَّذِي يُسَلِّمُنِي قَدِ اقْتَرَبَ!) هذا يكشف عن مقدار تصميمه على مواجهة الآلام بشجاعة. إن أسد يهوذا يتقدم نيابة عنا ليقهر الموت والجحيم والشيطان في أمنع معاقلهم. فدعونا نجثو له بكل إجلال، ونسير وراءه بالتهليل.

إن أرهب مشهد حافل بالأسرار لم ير العالم نظيره، قد عبر أمامنا الآن بكل تفاصيله المثيرة، ولا يمكننا أن نجد في أى استشهاد ما يشبه من بعيد آلام جثسيماني، ولكن على النقيض كلما تأملنا فيها نجد أنفسنا أمام آلام فريدة في نوعها. فلنقدم الشكر والسجود لذاك الذي احتمل هذه الآلام نيابة عنا.

(١٣) جثسيماني.. مفهومها ونتائجها

إن الأحداث التي جرت في بستان جثسيماني قد عبرت بأهوالها أمامنا الآن، وإن كنا لا نعتبر الموقف الذي ظهر فيه المخلَّص هناك أنه فريد تماماً وغير عادي وأسمى مما يصل إليه فكر بشري فمن الأفضل لنا أن نغلق أبواب ذلك البستان لنخفي قدوس إسرائيل عن أنظار العالم.

وإن كنا ننظر إلى يسوع في جثسيماني كما ننظر إلى نبي أو معلم فبذلك يكون قد صادف نجاحاً في تأدية مهمته أو أنه قد أعوزته الشجاعة أن يموت لأجل مبادئه. وإن كنا نعتبره في جثسيماني فقط كمثل حيّ للخضوع لإرادة الله بلا قيد أو

شرط فلا مفر من القول إنه لم يصب الهدف تماماً من هذه الناحية، حيث أن اسطفانوس وشهداء كثيرين غيره قد ظهروا في مظهر أعظم من يسوع في عرقه المتساقط كقطرات دم وفي صلاته الحزينة لتعبر الكأس عنه. وإن كنا ننظر إلى يسوع هناك فقط كإنسان قد أراد أن يقدم مثلاً عملياً ليثبت أنه في وقت الشدة يكون الرب قريباً من شعبه يشجعهم ويواسيهم ففي هذه المرة أيضاً يعاودنا السؤال: أين نجد هذه الحقيقة متوفرة في حالة يسوع إذ أن عكسها هو الذي ظهر ورأينا القدوس في شدة آلامه يشكو من أن الآب قد تركه؟ وأخيراً إن كنا نعتبره كبرهان عملي على السلام الذي ينتصر على الصعوبات والذي لا يفارق البار بل يصاحبه في كل ظروف الضيق والحزن فإننا نتلفت حولنا فلا نجد دليلاً على ذلك، إذ بدلاً من السلام رأينا الرعب يستولى على القدوس فبدا كمن هو قريب من اليأس.

ينبغي إذاً أن ننظر إلى جثسيماني من وجهة نظر أخرى تختلف عما ذكرناه وإلا أمست جثسيماني مقبرة يتوارى فيها مجد الرب. إن السماء تسقط من اعتبارنا وتكون أحكام الله وشرائعه قد نسخت والمسيحية قد أبطلت إلى الأبد، لو كانت كلمة الله تلزمنا أن نعتبر الكأس التي شربها المسيح هي بعينها الكأس التي كانت لأيوب ولأرميا ولبولس ولكثيرين غيرهم، لقد كانت كأس يسوع تحتوي أهوالاً أعظم. ينبغي أن نعرف أن المبارز في جثسيماني لم يفقد شيئاً من كرامته لأننا رأيناه (يَدْهَشُ وَيَكْتَئِبُ) ولا يعثرنا أن نراه ينفصل عن التلاميذ وينبطح على الأرض، وحتى في تضرعه ثلاث مرات (يَا أَبَتَاهُ، إِنْ لَمْ يُمْكِنْ أَنْ تَعْبُرَ عَنِّي هذِهِ الْكَأْسُ)، وفي اعتزاله مع تلاميذه الخائفين في البستان المظلم، وفي

طلبه إليهم أن يسهروا معه ساعة واحدة لأجل تعزية نفسه، وحتى في العرق المتساقط كقطرات دم الذي انبثق من عروقه وسال على جسده المقدس إلى الأرض ـ كل هذا لا يعثرنا ولا يهز إيماننا. فمن جهتنا نرى نجوماً ساطعة تتلألأ في سماء جثسيماني الحالكة، فنحن نملك مفتاح أسرارها في الفكر الذي يسود الكتاب المقدس كله بطرق مختلفة: "لأَنَّهُ جَعَلَ الَّذِي لَمْ يَعْرِفْ خَطِيَّةً، خَطِيَّةً لأَجْلِنَا، لِنَصِيرَ نَحْنُ بِرَّ اللهِ فِيهِ." (٢كو ٥: ١٢). إن لم نعترف بوظيفة المسيح كوسيط ونائب فكل أحداث جثسيماني تبقى كسر مختوم، وكل محاولة لتفسير غوامضها بطريقة أخرى بخلاف هذه الحقيقة التي تختص بوساطته النيابية لابد أنها تعجز إلى الأبد، لأننا نستطيع فقط بواسطة الضياء الذي تلقيه هذه الحقيقة أن نرى تفاصيل المنظر المثير في جثسيماني بكل وضوح وجلاء، وعلى هذا الأساس فقط تتوافق المتناقضات ويختفي تماماً كل ما يبدو غريباً ومهماً. ينبغي أن ننظر إلى المخلَّص وسط آلامه في جثسيماني من حيث نيابته عن الخطاة وما تتضمنه هذه العلاقة من أسرار، فهو هنا يظهر (كآدم الثاني) مخلَّص العالم الساقط وكالضامن الذي وضع الرب عليه (إثم جميعنا).

هناك ثلاثة أسباب ورآء آلام يسوع النفسية كل منها أكثر رهبة من الآخر، فكان حزنه أولاً بسبب فزعه من الخطية عندما أذهلته رجاسات أفعالنا المشينة، كما أن تعدياتنا التي ـ بحسب مشيئة الله ـ نسبت إليه ليتألم بسببها كبديل عن الخطاة قد تراكمت كلها تحت بصره وهو يراها الآن من وجهة نظر تختلف عما ينظر إليها الإنسان في حالته المظلمة. لقد ظهرت الخطية أمام عينيه الطاهرتين في بشاعتها الفاضحة

وفي طبيعتها الدنسة وفي سلطانها المخرب للنفوس. فلقد رأى في الخطية ارتداداً عن الله القدير، وتعدياً صارخاً ضد الجلال الإلهي، وتمرداً خسيساً ضد إرادة وناموس الله. وفي نظرة واحدة يرى كل ثمار الخطية الشنيعة ونتائجها ممثلة في اللعنة والموت والهلاك الأبدي. فهل من الممكن أن نفس يسوع المقدسة الطاهرة لا ترتعد عند رؤية هذه الأمور المرعبة؟ وألا يمتعض تماماً بصورة لا نستطيع نحن إدراكها بسبب تلوثنا بالخطية إلى حد كبير؟ تصوروا القداسة مجسمة عندما يلقى بها وسط مستنقع من فساد العالم!

ولكن لا ينبغي أن يغيب عن البال أن الدهشة الشديدة التي اعترت المخلَّص في جثسيماني والكآبة التي استولت عليه ستظل سراً مبهماً لا يمكن تفسيره إن لم نعتبره أنه كان هناك يقف على صلة بخطايانا أكثر من مجرد رؤيتها، وهذا ما تؤكده لنا كلمة الله، فالفادي كوسيط ليس في امكانه أن يتألم ويحتمل عقاب خطايانا إلا إذا استقرت عليه وأحس بثقلها. فلا عقاب إن لم يكن هناك شعور شخصي بالإثم. والذين يفترضون أن قداسة المسيح تجعل من المستحيل عليه أن يحس في داخله بدينونة الناموس كمذنب هؤلاء يخطئون إذ يتسرعون في الحكم وقد فاتهم إدراك الاتحاد العجيب الذي به قد ارتبط بنا الله المتجسد، آدم الثاني، كرأس جنسنا. وبذلك قد قبل في نفسه، ليس طبيعتنا الخاطئة، فقد بقى طاهراً كما هو، ولكن الإحساس بالإثم بكل ما فيه من أهوال.

وبالإضافة إلى طبيعة الخطية الممقوته فقد اختبر الرب لعنتها أيضاً، وهذا هو السبب الثاني وراء أهوال جثسيماني. لقد كان يرى نفسه كمذنب أمام الله، وقد ذاق كل مرارة

الانفصال عن الله واحتجب عنه احسانه وغابت عنه محبته وعواطفه، وأحس كأنه هو بنفسه ابن الغضب حتى وصل إلى كرب المحكوم عليهم وعبرت عليه أهوال الجحيم التي تتحقق فيها المرثاة النبوية التي وردت في المزمور: "لاَ تَتَبَاعَدْ عَنِّي، لأَنَّ الضِّيقَ قَرِيبٌ، لأَنَّهُ لاَ مُعِينَي يَبِسَتْ مِثْلَ شَقْفَةٍ قُوَّتِي، وَلَصِقَ لِسَانِي بِحَنَكِي، وَإِلَى تُرَابِالْمَوْتِ تَضَعُنِي" (مز ٢٢: ١٥). فلم تكن روحه تحس بنعمة حضور الله، بل كان يتذوق مرارة الهجر، وعوضاً عن الإحساس المستمر باقتراب الأب كان يحس بأن الله قد تركه، ومع ذلك فلم يعف من أن تمزج في كأسه هذه القطرات المرة مرارة العلقم. لكي تتم فيه كلمات النبوة: "أَحْزَانَنَا حَمَلَهَا، وَأَوْجَاعَنَا تَحَمَّلَهَا" (إشعياء ٥٣: ٤).
أما السبب الثالث وراء مرارة أحزان الرب في جثسيماني فكان مصدره عالم الأرواح الشريرة. فمما لاشك فيه أن الشيطان قد ساهم في أهوال ذلك المشهد، ويشير الرب بنفسه إلى ذلك في كلماته: (رئيس هذا العالم يأتي)، وأيضاً: (هذه هي الساعة وسلطان الظلمة). كما أن نداءه المتكرر للتلاميذ عندما غلبهم النعاس بسبب الحزن أن يسهروا ويصلوا لئلا يدخلوا في تجربة يكشف بجلاء عن حالة الجو الذي أحاط بهم، فقوات الجحيم قد أُطلقت على المخلِّص بلا قيود، ولو كان في إمكانها أن تدفع بنفس القدوس إلى اليأس لفعلت ذلك. فلابد أنها هاجمته بأبشع ما يتصوره العقل، وجاهدت لتجعله يشك في اهتمام الآب به، وعذبته بخداعها وحيلها لتقنعه بالعدول عن عمل الفداء. ويكفي أن نقول إن إيمان الرب وصبره وأمانته ومثابرته في العمل الذي جاء لأجله لم توضع قط في محنة أقسى من

هذه عندما وجهت إليها سهام (الشرير) النارية في جثسيماني.
ليتنا نسرع إلى جثسيماني كلما شعرنا بالضغط والضيق ونحن نعيش في عالم تسوده محبة الذات، وكل ما تبقى من المحبة التي أوصانا الرب بها أوشك أن يتحول إلى الأثرة والأنانية. إن المخلِّص المحب الذي رأيناه يجاهد لأجلنا في جثسيماني سيظل يرتبط بنا بكل أمانة واخلاص. التجئ إلى جثسيماني عندما تقف متحيراً أى طريق تسلك: أن تعطي نفسك لله أو أن تقدمها لخدمة العالم. وسوف تعلن لك جثسيماني بوضوح ما هي الخطية. لنهرب إلى جثسيماني كلما عصفت بنا رياح التجارب، أو شعرنا بإبليس يجول ملتمساً من يبتلعه، فحتى في دائرة المؤمنين والأتقياء كم يوجد من ضعف في الإيمان، انهيار في الروح، حاجة إلى السلام، خوار وخوف! فكل من يريد أن يكون في أمان فليمل إلى جثسيماني.

(١٤) الهجوم المباغت

بعد أن خرج الرب ظافراً من صراعه الروحي في جثسيماني مضى ليجتاز طريقاً وعراً من الآلام الجسدية المبرحة، أن يوثق كأسير، ويقف في قفص الاتهام ليحاكم أمام السنهدريم فيحكمون عليه بالموت، ثم يمضي في طريق الصليب. ولم تكن هذه الأحداث سوى أمثلة رمزية لأحداث أعظم كانت تجرى وراء الستار بين الوسيط والله القاضي العلي.
ونتخيل أنفسنا أننا لانزال نلتحف بظلمة تلك الليلة التاريخية عندما قال الرب لتلاميذه بلهجة التحذير كلمات ينبغي أن

توجه للكثيرين في هذه الأيام: "كُلَّكُمْ تَشُكُّونَ فِيَّ فِي هذِهِ اللَّيْلَةِ" (مر ١٤: ٢٧). فلم يكد الرب يفرغ من صلاته ويقوم من على الأرض إلا وكانت تنتظره مخاوف أخرى، وقبل أن ينتبه التلاميذ من نومهم شوهدت مصابيح ومشاعل تتلألأ بأنوارها من خلال الأشجار التي خيم عليها الحزن. وها هي جماعة من السفاحين المدججين بالسلاح من سيوف وحِراب وعصى تقترب في اتجاه ضفاف نهر قدرون، وهذا الاستعداد الضخم الذي دُبر لهذه المناسبة أُريد به من ناحية أن يكون قناعاً يخفي جريمتهم وكأنهم قد خرجوا ليلقوا القبض على متمرد خارج على القانون، ومن ناحية أخرى توجسوا خيفة أن يصادفوا أموراً ليست في الحسبان. وأول من نراهم بين هذا الجمع هم الكهنة خدام الهيكل، تُرى ما هو الاتهام الذي سيوجهونه إلى يسوع؟ إنه قوض مراكز الكهنوت التي كانوا يتباهون بها وجردهم من العظمة الكاذبة، وانتزع من أيديهم صولجان السطوة والسيطرة على ضمائر الناس فقلل بذلك مما يصل إلى أيديهم من عشور وحد من مصادر رزقهم، كما أنه وضعهم بين جماعة العشارين والخطاة. كل هذه كانت أموراً لم يحتملها هؤلاء المتكبرون وخدام المال المتسلطون. ومن هنا كانت البغضة التي اشتعلت في قلوبهم من نحو رب المجد. وبجوار الكهنة نرى الفريسين أولئك العميان قادة العميان، أصحاب البر الذاتي الذين كانوا يرفضون كل عقيدة تعطي رجاء الخلاص بالنعمة فقط ولا تترك لأكثر الناس صلاحاً شيئاً ليعملوه سوى قبول البر الشخصي لواحد آخر يمنح لهم مجاناً. ومن هنا يسهل علينا إدراك مقدار البغضة التي كانوا يكنونها للمعلم الذي ينادي بأن التجديد أمر لازم للجميع. والذي كان شعاره: "ابْنَ الإِنْسَانِ

لَمْ يَأْتِ لِيُخْدَمَ بَلْ لِيَخْدِمَ،" (مت ٢٠: ٢٨)، وكان يشهد عن نفسه: "أَنَا هُوَ الطَّرِيقُ وَالْحَقُّ وَالْحَيَاةُ. لَيْسَ أَحَدٌ يَأْتِي إِلَى الآبِ إِلاَّ بِي" (يوحنا ١٤: ٦). وفي الكتبة الذين يظهرون مع الكهنة نرى صورة من الحكمة المزيفة تختلط بكبرياء روحية. ولا عجب أن نرى هذه الفئة أيضاً ضمن الخارجين على يسوع. لقد كان عليهم، وهم الطبقة المثقفة في الشعب، أن يأخذوا مكانهم عند قدميّ يسوع المعلم الجليلي، فكيف يقبلون ذلك وهم المعلمون في اسرائيل؟ وهل قوم كهؤلاء قد وصلوا إلى أقصى حدود الغرور لا تثيرهم هذه الأفكار ولا تشعل حقدهم؟ وكان هناك أيضاً غيظ كامن من جرائم الهزائم الكثيرة التي نكبوا بها والخزي الذي لحق بهم على يديّ يسوع في كل مرة أرادوا أن يجربوه. لقد كان في كل مرة يفحمهم أمام الشعب ويجعلهم يتراجعون ويختفون من المشهد. كم من مرة اصطادهم في خداعهم. وأسرهم في حبائلهم التي كانوا ينصبونها له، ثم يخجلهم ويتركهم ويمضي؟ فباتوا يغلون من الغيظ ويترقبون فرصة للانتقام.

وترى من هذا الذي يسير في مقدمة الجمع بوجه عابس مقطب ونظرة حائرة؟ من هو هذا المغطى بجبة وعلى ملامحه شجاعة مصطنعة؟ إنه ابن الهلاك، الإنسان الشقيّ الذي يتسربل برداء التلميذ كما يتغطى الأفعوان السام بجلده الأملس اللامع. إنه المرائي الذي يخفي نفسه في زيّ الرسول كما يختفي الخنجر الملوث بالدماء في جرابه الذهبي! لقد تكملت الخطية فيه ونضجت الدينونة وأصبح الأن يبغض يسوع بمرارة، كما ن الظلمة تبغض النور.

وكان جواب هذا الجمع المتسلح واضحاً وحاسماً، فقالوا "يَسُوعَ النَّاصِرِيَّ" (يو ١٨: ٥). وبعد أن أعلنوا قصدهم إذا

بالرب يجيبهم في هدوء وثبات إنه هو الوسيط الإلهي، الذي لم يكن فقط يعرف كل ما سيأتي عليه بل كان على علم تام بالأسباب التي وراء آلامه والنتائج المرتبة عليها، فقال "أَنَا هُوَ" إنه تعبير عظيم له مدلوله، ولم ينطق الرب به مرة من غير أن يصحبه تأثير قوي "قَالَ لَهُمْ يَسُوعُ:«الْحَقَّ الْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: قَبْلَ أَنْ يَكُونَ إِبْرَاهِيمُ أَنَا كَائِنٌ». فَرَفَعُوا حِجَارَةً لِيَرْجُمُوهُ. أَمَّا يَسُوعُ فَاخْتَفَى وَخَرَجَ مِنَ الْهَيْكَلِ مُجْتَازًا فِي وَسْطِهِمْ وَمَضَى هكَذَا." (يوحنا ٨: ٥٨، ٥٩). وماذا حدث عندما تفوه بهذه العبارة في هذه المناسبة؟ لم تكد الكلمات تبلغ مسامعه حتى رجعوا إلى الخلف وترنحوا وسقطوا على وجوههم، وكأن وميضاً غير مرئي من البرق قد صعقهم أو نسمة من القدير طوحت بهم. لقد أسقطهم الرب على وجوهم بقوة لعلهم يحسون بتأثير ألوهيته غير المدركة. وكأنما أراد أن يترك للعالم دليلاً عملياً أنه قد صار ذبيحة، ليس تحت ضغط أو إكراه وإنما بمحض اختباره. بعبارة واحدة خرجت من شفتيه ترنحت عصابة الجناة وأمست طريحة الأرض عند قدميه. فماذا كان يمنعه من أن يطأهم بقدميه ويدوس فوقهم بعد أن قهرهم ويمضي في طريقة بغير أن يصيبه أذى أو يلحقه ضرر؟ لكنه كان فقط يريد أن يعلن لهم عظمته وجبروته، وبعد أن تم له ما أراد سمح لهم أن يقوموا من على الأرض. وهذه الحالة التي وجدوا فيها منطبحين على وجوهم في التراب أمامه تعلن لغير المؤمنين الوضع الذي سيكونون عليه يوماً ما. فالإكرام الذي رفضوا أن يقدموه ليسوع هنا سيجبرون أن يقدموه له في الوقت المعيّن. وكل ركبة لا تجثو له الآن برغبة خالصة ستضطر أن تفعل ذلك أخيراً تحت تأثير أهوال الدينونة الرهيبة.

وبعد أن قام الجمع بسماح من الرب ووقفوا ثانية كرر لهم السؤال: "مَنْ تَطْلُبُونَ؟" (يو ١٨: ٧). وفي هذه المرة كان سؤاله في سخرية. "أَجَابَ يَسُوع:قَدْ قُلْتُ لَكُمْ: إِنِّي أَنَا هُوَ. فَإِنْ كُنْتُمْ تَطْلُبُونَنِي فَدَعُوا هؤُلاَءِ يَذْهَبُونَ" (يو ١٨: ٨). ما أجمل هذه الكلمات التي تتدفق بالمواعيد، فبينما كان يمنطق نفسه ليمضي إلى الصليب لم ينس في إخلاصه الكريم أن يحمي تلاميذه من العاصفة التي كانت تقترب. ويستطرد البشير قائلاً: "لِيَتِمَّ الْقَوْلُ الَّذِي قَالَهُ: إِنَّ الَّذِينَ أَعْطَيْتَنِي لَمْ أُهْلِكْ مِنْهُمْ أَحَدًا".

(١٥) قبلة الخائن

أمامنا الان منظر وداع مشحون بالكآبة والحزن الشديد لم ير العالم نظيره، فيه يفترق يسوع عن تلميذه يهوذا إلى الأبد. وقبل أن نرى في قبلة الخائن ثمرة فساده الداخلي التي ساعدت الجحيم على نضوجها دعنا أولاً نلقي نظرة على النبوات التي تتحدث عنه وعن سبيله في الحياة. ففي المزمور نقرأ: "رَجُلُ سَلاَمَتِي، الَّذِي وَثِقْتُ بِهِ، آكِلُ خُبْزِي، رَفَعَ عَلَيَّ عَقِبَهُ!" (مزمور ٤١: ٩). وأيضاً: "لِتَكُنْ أَيَّامُهُ قَلِيلَةً، وَوَظِيفَتُهُ لِيَأْخُذْهَا آخَرُ" (مز ١٠٩: ٨). "وَأَحَبَّ اللَّعْنَةَ فَأَتَتْهُ، وَلَمْ يُسَرَّ بِالْبَرَكَةِ فَتَبَاعَدَتْ عَنْهُ. وَلَبِسَ اللَّعْنَةَ مِثْلَ ثَوْبِهِ، فَدَخَلَتْ كَمِيَاهٍ فِي حَشَاهُ وَكَزَيْتٍ فِي عِظَامِهِ" (مز ١٠٩: ١٧، ١٨). وأيضاً: "لِتَصِرْ دَارُهُمْ خَرَابًا، وَفِي خِيَامِهِمْ لاَ يَكُنْ سَاكِنٌ" (مزمور ٦٩: ٢٥). إنه الآن يقترب من الرب تحت ستار الصداقة الوثيقة بينهما ويرحب به بعبارة اخلاص قلبي: "السَّلاَمُ يَا سَيِّدِي!" (متى ٢٥: ٤٩). ويتجاسر أن يلوث وجه ابن الإنسان، وسط تبجيلات الجحيم، بقبلته الخائنة كأفعى

سامة تنبعث من شجرة ورد. آه، ليت قبلة الخائن كانت هي الأخيرة من نوعها لكن يسوع لا يزال حتى اليوم يقاسي من مثيلاتها. فالاعتراف به بالفم بينما ينكره سلوكنا، أن نمجد شمائل إنسانيته ونرفعها إلى السماء في حين نجرده من مجده الإلهي، وأن نشيد له بترانيم المدح والإعجاب والثناء وفي نفس الوقت نطأ إنجيله بأقدامنا بالقول والفعل. كل هذه ليست سوى قبلة يهوذا التي يتجاسر الناس في وقاحة أن يلوثوا وجه المخلَّص بها.
ويصيح الخائن: (السَّلاَمُ يَا سَيِّدِي!) كانت هذه الكلمات كطعنة خنجر مسمم في قلب القدوس لكنه بكل هدوء يتقبلها ولم يرفض القبلة الخبيثة ذاتها. إنه يعرف أن هذا الكدر قطرة مما مزج له في كأسه التي تعينت له بإرادة الله الآب، وأن وراء هذا التصرف الأحمق الممقوت تختفي المشورة الأزلية التي لا تتغير. وهنا نجد شهادة عن طول أناة الرب يسوع لأن الخائن ما كان يختار هذه العلامة وسيلة لتسليم سيده لولا علمه بطول أناة السيد التي لا تحد. وبهذه القبلة عينها التي بها سلمه لأعدائه نرى مقدار التنازل العجيب والمحبة التي لا تحد التي شمله بها المخلَّص. يجيبه الرب في حزن وإشفاق: (يَا صَاحِبُ، لِمَاذَا جِئْتَ؟). من يتصور مثل هذه الرقة في ظرف كهذا؟ في نظر الكثيرين كان من الأنسب أن يقول له (اذهب عني يا شيطان)، لكننا نسمع صوتاً كنبرات صوت أب عطوف أراد أن يرد نفس الابن السادر في طريق الغواية. (يَا صَاحِبُ، لِمَاذَا جِئْتَ؟)، أو (لماذا تقف هنا؟) إن هذا السؤال المرعب كقصف الرعد يهز قلب الخائن وينبه الضمير لحظة من سباته العميق، ويحس الخائن بنفسه محمولاً كما بيد قوية ليقف

أمام دينونة الله. ولكن يهوذا يقاوم ضميره بعنف ويخمد صوته المبكت في الداخل ويفلح في إجباره على السكوت والبلادة وفقدان الشعور. وهكذا نجد أن الرب لم يترك وسيلة بل سمح بقرعة أخيرة على باب قلبه، فإن لم تفلح تكون نذيراً يرفض الخائن إلى الأبد. عندئذ يناديه الرب باسمه (يَا يَهُوذَا) وكأنه لايزال يريد أن يتأكد من صحة الأمر فيقول: "أَبِقُبْلَةٍ تُسَلِّمُ ابْنَ الإِنْسَانِ؟" (لو ٢٢: ٤٨). كان هذا هو الوداع الأخير للمرتد التعس كما جاء على فم مخلِّص الخطاة. ويل لهذا الشقي البائس! لقد انتصرت عليه الجحيم وتخلت السماء عنه وظل رعد هذا السؤال يدوي في رأس يهوذا. ونختم تأملاتنا هذه ونحن في غاية التأثر الشديد. ليت ما مر أمامنا الآن يكون له تأثيره الكامل علينا. إن الجرثومة التي عملت في يهوذا توجد في كل واحد منا، وقد تنمو وتتكاثر قبل أن نتنبه لها، وإن كنا لا نضع أنفسنا في وقت مبكر تحت حماية النعمة الإلهية فإن الشيطان لا يكف عن أن (يجول كأسد زائر ملتمساً من يبتلعه). ليتنا نسرع لأجل خلاص أنفسنا ونحصن قلوبنا كمدينة تحاصرها الأعداء. لكننا ينبغي أن نطلب الحمى حيث لا يمكن أن نجده في مكان آخر، تحت أجنحة المسيح. إنه هو صخرنا وحصننا، ملجأنا وقوتنا، وعوننا السريع في وقت الشدة.

(١٦) السيف والكأس

بعد أن وجه الرب كلماته الرقيقة غلى الخائن نراه يسلم نفسه طوعاً لأيدي أعدائه، ويا له من أمر مرعب أن نراهم يتجمهرون حول رب المجد ويلقون القبض عليه كأنه سارق أو قاتل، والتلاميذ يشاهدون المنظر. فإن كانت قبلة الخائن

جعلت الدم يتجمد في عروقهم من الرعب فقد ابتدأ دمهم يغلي الآن من الغضب ولا يمكنهم السكوت بعد، فيصيحون بصوت واحد: (يا رب هل نضرب بالسيف؟) وقبل أن يفرغوا من كلامهم جاوبوا هم على أنفسهم وقبل أن تكون للسيد فرصة أن ينطق بكلمة كان بطرس قد استل سيفه وضرب أول ضربة للدفاع. لعلنا نستطيع أن نعرف ما كان يدور في نفس سمعان، فلا يزال يذكر الكلمات التي تكلم بها الرب إليه في الطريق إلى جثسيماني عن إنكاره له وكيف كان جوابه، وقد حرص سمعان أن يظهر بمظهر يتفق مع ما صرح به، إنه يفضل أن يموت من أن يتخلى عن سيده، وإذ اختمرت هذه الأفكار في ذهنه وساعد على ذلك أن الأمر اختلط عليه بسبب القول الذي قاله الرب من جهة اقتناء السيوف فإذا به يضرب بسيفه ضربة عشواء فيصيب ملخس واحداً من عبيد رئيس الكهنة فيقطع أذنه اليمنى. لم يكد سمعان يفعل ذلك حتى تقدم المخلَّص موجهاً كلامه للجمع المضطرب (دعوا إلى هذا) (أى تمهلوا حتى أفعل ما أريد) إنه يطلب هدنة ليتسنى له أن يشفي المصاب. تعجبوا من هذه الوداعة والهدوء وضبط النفس التي يظهرها الرب في أحرج المواقف، فحتى مع هؤلاء الغوغاء يحترم السلطان الذي أرادوا أن يظهروا به ولم يرد أن يصدر أمراً ولكنه يطلب إليهم أن يمنحوه مهلة. وأجابوه إلى طلبه وهدأ الموقف قليلاً، وكم كانت دهشتهم عندما رأوا الرب في شفقة يميل على ملخس ويلمس أذنه المصابة بيده الشافية فتوقف سيل الدم في الحال وعادت أذنه سليمة في مكانها!

ونحن أيضاً نتعجب من هذه المعجزة التي قام بها الرب، التي وإن كانت الأخيرة فهي ليست صغيرة، فيها أظهر الرب مرة

أخرى أنه هو الله والإنسان. وما يثير إعجابنا ليس فقط قوته التي أظهر بها مجده، ولكن الأكثر من ذلك محبته التي لا تستثني الأعداء من أعمالها النافعة، وفي نفس الوقت ظهرت عنايته بتلاميذه. كما لا يجب أن يفوتنا أن الرب إذ قام بهذا العمل أراد في حكمة وبعد نظر أن يحمي ملكوته من أى خطأ قد يظهر فيما بعد في فهم حقيقة طبيعته، فملكوته ليس من هذا العالم ولذلك لا مكان فيه للانتقام بل للوداعة التي تجمع جمرات النار فوق رأس الأعداء وفيه يجازى عن الشر بالخير.

وبينما كان الرب يمد يده الشافية ليلمس الأذن الجريحة يقول لبطرس: "رُدَّ سَيْفَكَ إِلَى مَكَانِهِ. لأَنَّ كُلَّ الَّذِينَ يَأْخُذُونَ السَّيْفَ بِالسَّيْفِ يَهْلِكُونَ!" (متى ٢٥: ٥٢). والسيف ليس له استعمال اطلاقاً في دائرة ملكوت الله، بل بالعكس ففي هذه الأحوال تطبق الكلمات: "لاَ بِالْقُدْرَةِ وَلاَ بِالْقُوَّةِ، بَلْ بِرُوحِي قَالَ رَبُّ الْجُنُودِ." (زك ٤: ٦)، "إِذْ أَسْلِحَةُ مُحَارَبَتِنَا لَيْسَتْ جَسَدِيَّةً، بَلْ قَادِرَةٌ بِاللهِ عَلَى هَدْمِ حُصُونٍ." (٢كو ١٠: ٤)، فالنصر يحرز هنا بقوة الشهادة، وبدم الحمل وصبر القديسين، ودم الشهداء هو بذرة الكنيسة، وتاجها هو إكليل من شوك، والوداعة هي سلاحها، تُشتم فتبارك وتُضطهد فتحتمل ويُفترى عليها فتعظ. وبهذه الوسيلة السامية يمكن فقط أن نخضع العالم ونأتي به لرئيس السلام الذي هو نفسه قائدنا الذي يسير أمامنا. لنسمع ماذا يقول: (رُدَّ سَيْفَكَ إِلَى مَكَانِهِ. لأَنَّ كُلَّ الَّذِينَ يَأْخُذُونَ السَّيْفَ بِالسَّيْفِ يَهْلِكُونَ! أَتَظُنُّ أَنِّي لاَ أَسْتَطِيعُ الآنَ أَنْ أَطْلُبَ إِلَى أَبِي فَيُقَدِّمَ لِي أَكْثَرَ مِنِ اثْنَيْ عَشَرَ جَيْشًا مِنَ الْمَلاَئِكَةِ؟ فَكَيْفَ تُكَمَّلُ الْكُتُبُ: أَنَّهُ هكَذَا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ؟). يالعمق هذه الكلمات التي تكشف لنا

علمه وإدراكه ببنوته للآب! وهو هنا يزيح ستار هيئته المتواضعة قليلاً ليكشف لنا عن مقدار عظمة الابن الوحيد، كوميض من البرق في ليلة حالكة، ولكنه يظل كما هو في عمق تواضعه، وفي إحساسه بمركزه الإلهي يرتفع ويسمو في هيئته المتواضعة التي تخفي جلاله. لو أراد لطلب من الآب فأرسل له اثني عشر جيشاً من الملائكة لكي تحميه، وكم كان شعور بطرس بالخجل إذ تصور أنه إن كان لا يتدخل فسيكون سيده وحيداً بلا معين. وسمعان يعلم أن سيده لم يتعوّد أن يتكلم كلمات جوفاء، فيجب أن يفهم كلام سيده عن القوات السماوية التي تقف رهن إشارته بمعناه الحرفي. لكن هل صحيح أن الرب كان في مقدوره أن يخلص نفسه من آلامه بمعونة ملائكة؟ نعم، بدون أدنى شك، لقد أقدم على هذا العمل العظيم بمحض اختياره، ويستطيع في أية لحظة ـ إن هو أراد ـ أن ينسلخ منه وليس ما يرغمه على تحمل الآلام ولكنه قبل ذلك طوعاً، ويندر أن نجد في كل حياته منظراً يكشف لنا عن محبته لجنسنا الساقط مثلما تظهر هنا. لقد أشار المخلَّص عدة مرات إلى الكأس التي قسمت له، فهو يسأل تلميذيه: "أَتَسْتَطِيعَانِ أَنْ تَشْرَبَا الْكَأْسَ الَّتِي سَوْفَ أَشْرَبُهَا أَنَا، وَأَنْ تَصْطَبِغَا بِالصِّبْغَةِ الَّتِي أَصْطَبِغُ بِهَا أَنَا" (متى ٢٠: ٢٢)، وكان يقصد بالكأس آلامه المريرة التي قسمت له. وفي جثسيماني سمعناه يتسأل إن كان ممكناً أن تعبر عنه الكأس، وهنا نجده يتكلم بهدوء عن الكأس التي أعطاه الآب. ونحن نعرف ماذا كان في الكأس، فكل ما مزج فيها كان مقدراً لنا من العدل الإلهي بسبب خطايانا. في الكأس كانت لعنة الناموس الذي لا يسقط منه حرف أو نقطة، وكذا أهوال الخطايا الإرادية،

وأهوال تجارب الشيطان القاسية، وكل الآلام التي يمكن أن تقع على النفس والجسد. إنها كانت تتضمن أيضاً احتجاب وجه الله عنه، والعذابات المبرحة، والموت بسفك دماه، هذه هي محتويات الكأس التي كان سيشربها بينما تكتنفه قوات الظلمة.
وهنا ندرك ما تعنيه هذه الكلمات: "اَلَّذِي لَمْ يُشْفِقْ عَلَى ابْنِهِ، بَلْ بَذَلَهُ لأَجْلِنَا أَجْمَعِينَ" (رو ٨: ٣٢)، "وَالرَّبُّ وَضَعَ عَلَيْهِ إِثْمَ جَمِيعِنَا." (إش ٥٣: ٦)، "أَنِّي أَضْرِبُ الرَّاعِيَ فَتَتَبَدَّدُ خِرَافُ الرَّعِيَّةِ" (متى ٢٦: ٣١)، "اَلْمَسِيحُ افْتَدَانَا مِنْ لَعْنَةِ النَّامُوسِ، إِذْ صَارَ لَعْنَةً لأَجْلِنَا" (غل ٣: ١٣)، "اَلْمَسِيحُ افْتَدَانَا مِنْ لَعْنَةِ النَّامُوسِ، إِذْ صَارَ لَعْنَةً لأَجْلِنَا" (٢كو ٥: ٢١). إن كل ما ذخره الجنس البشري لنفسه ليوم غضب الله العادل من جحود وابتعاد عن الله، أنانية، عصيان، كبرياء، محبة للعالم، شهوات دنسة، رياء، خداع، قساوة قلب، كذب، كل هذه اختلطت وامتزجت في الكأس وتخمرت وتحولت إلى علقم وسم رهيب. (ألا أشرب هذه الكأس؟) نعم ،إلى نهايتها أيها المخلِّص المحبوب، وسوف نلثم قدميك ونقدم لك نفوسنا على مذبحك المقدس. ولقد شرب الكأس حتى الثمالة، ولم يترك قطرة واحدة لشعبه، وبذا أكمل العمل، وأتم الصلح، "إِذًا لاَ شَيْءَ مِنَ الدَّيْنُونَةِ الآنَ عَلَى الَّذِينَ هُمْ فِي الْمَسِيحِ يَسُوعَ" (رو ٨: ١). لن تكون عليهم لعنة فيما بعد، "تَأْدِيبُ سَلاَمِنَا عَلَيْهِ، وَبِحُبُرِهِ شُفِينَا" (إش ٥٣: ٥)، ولم يبق علينا شيء سوى أن نهتف: هللويا. ومن ثم لا تدع الشكوك تزعجك فيما بعد، فلن تأتي ساعة في الأبدية عندما تضطر أن تقول لأعدائك والمشتكين عليك: (هذه ساعتكم وسلطان الظلمة)، لقد قالها نائبك عوضاً عنك وعن الجميع، ومن ذلك

الحين لم تبق سوى ساعة الانتصار والابتهاج تنتظرك. لقد حمل عنك (أناثيما) لتهتف أنت بابتهاج طول الأبدية مردداً: (يهوه صدقينو ـ الرب برنا).

(١٧) المسيح أمام حنان

يسوع موثق بالأغلال! يا له من منظر تحققت فيه الرموز الكثيرة التي ذكرت في العهد القديم بروح النبوة! فإن أردت أن تعرف ماذا كان يرمز إليه إسحق عندما ربطه أبوه كخروف ليقدمه ذبيحة، أو ما يدل عليه تابوت العهد المقدس عندما وقع في أيديّ الفلسطنيين فجعل أصنامهم تسقط على وجوها، أو من جهة يوسف بن يعقوب عندما طرح في سجن مصر وكان طريقه وسط جماعة من المذنبين حتى وصل إلى عظمة الملوك ووضعت على رأسه أكاليل المجد، أو ما تشير إليه خرفان الفصح عندما تربط عند باب الهيكل قبل أن تقدم ذبيحة لأجل خطايا الشعب ـ فستجد أن كل هذه قد تلاقت وتحققت بصورة كاملة في يسوع المقيد. يسوع موثق! هل نستطيع أن نصدق عيوننا؟ الاقتدار يقيد بالأغلال والخالق تربطه خليقته، رب الخليقة أسير بين يديه! ما كان أيسر عليه أن يحطم تلك الأغلال أسرع مما فعل شمشون قديماً! لكنه لا يفعل ذلك، ويرتضي أن يسلم نفسه لأيديّ أعدائه كإنسان ليس له قوة مغلوب على أمره. إن هذا الخضوع والتسليم الاختياري لابد وله في أساسه هدف عظيم.

تأملوهم وهم يسيرون في احساس بالنصر وأسيرهم في أيديهم، ويمضون به أولاً إلى حنانيا رئيس الكهنة المتقاعد حمى قيافا، خاطئ في المائة من العمر. ويمثل الرب في المحاكمة الأولى أمام قاضٍ من أشر الناس وأتعسهم (ميت

مضاعفاً) تباعد عن حق الله، يهتم بأتفه الأمور ولا يحفل بعظائمها، ويحمل على جبهته سمة اللعنة. ومما لاشك فيه أنه لم يكن هيناً على نفس القدوس أن يمثل ليحاكم أمام إنسان كهذا تجرد تماماً من كل شعور نبيل. وتأملوا هذا الخاطئ الأشيب وهو يتسلط في غطرسة على رب المجد رغم أنه لم يكن هو رئيس الكهنة الفعلي، ومع ذلك فنرى يسوع يتحمل في إذعان كل الإهانات التي تعرض لها، ونحن الآن نلم بأسرار الموقف الغامض الذي يقفه. فهو لا يرينا فحسب أن مملكته ليست من هذا العالم، ولكنه إذ يقف كضامن ونائب عنا يقدم مثلاً عن أسمى الفضائل من انكار للذات وخضوع لإرادة الآب.

وبعد أن يسمع حنانيا تفاصيل القضية يسأل يسوع عن تلاميذه وعن تعليمه، وهو يرجو أن يجد في أجوبته ما يمكنه أن ينسب للتلاميذ تهمة تكوين اجتماع سياسي خطير، وأن يُوجه للسيد تهمة بأنه شخص خطير مبتدع ومجدف. وبهذه الأسئلة كان مصمماً على اعتبار يسوع متآمراً وزعيم جماعة سرية بصرف النظر عن أنه علم جهاراً وسار في كل مكان في وضح النهار. ويجيب الرب على أسئلة رئيس الكهنة بخصوص تعليمه فهو لا يهمه هنا أن يدافع عن نفسه، ولكنه يرى من واجبه أن يبرر تعاليمه التي هي في نفس الوقت تعاليم الله. وأراد أيضاً أن يعلن لكل الأجيال في المستقبل أنه قد حكم عليه وصلب لا لشيء سوى أنه ابن الله، فيقول: (أَنَا كَلَّمْتُ الْعَالَمَ عَلاَنِيَةً). ويستطرد قائلاً: "أَنَا عَلَّمْتُ كُلَّ حِينٍ فِي الْمَجْمَعِ وَفِي الْهَيْكَلِ حَيْثُ يَجْتَمِعُ الْيَهُودُ دَائِمًا" (يو ١٨: ٢٠). ولم يوجد بين اليهود من استطاع أن يثبت أنه ينادي بأمور لا تتفق مع ما كتب في العهد القديم، أو أن تعاليمه لا

تمجد طبيعة الله القدوس وصفاته. إن معلمي إسرائيل اضطروا أن يقفوا صامتين أمام أحاديثه وتعاليمه. (وَفِي الْخَفَاءِ لَمْ أَتَكَلَّمْ بِشَيْءٍ) كلا، فلم يكن في كلامه غموض، أمّا ما كان فيه من أسرار فيكتشف معظمها على مر الزمن، بينما يبقى بعضها مغلقاً عليه إلى هذه الساعة ينتظر أن تفك ختومه، والرب يعلم أن هذه الأمور ستبقى غامضة ولن يفهمها شعبه، ولكن هذا لم يمنعه أن يتكلم بها. وهذا برهان جديد على أنه كان يعلم كل العلم أن تعاليمه هي من الله، وهي لذلك ستبقى إلى أواخر الدهور. ثم قال الرب في ختام كلامه. "لِمَاذَا تَسْأَلُنِي أَنَا؟ اِسْأَلِ الَّذِينَ قَدْ سَمِعُوا مَاذَا كَلَّمْتُهُمْ. هُوَذَا هؤُلاَءِ يَعْرِفُونَ مَاذَا قُلْتُ أَنَا" (يو ١٨: ٢١). وليس من دليل يشهد بقوة عن نقاوة تعاليم الرب وعلى أنها تعاليم إلهية أكثر من أنه يطلب إلى القاضي أن يستدعي أمامه كل الذين سمعوه، أصدقاء كانوا أم أعداء، ثم يسألهم إن كان لهم أن يقدموا شيئاً ضده كإثبات للاتهام وحتى إلى هذا اليوم لا يقدم الرب شهوداً من عنده ولكنه يطلب إلى كل من يسمعون كلمته ويقبلونها أن يقدموا شهادتهم، وهؤلاء بنفس واحدة يؤكدون ويثبتون أن تعاليم يسوع هي من الله وأنه لم يتكلم شيئاً من نفسه. وبينما كان الرب يتكلم إذا بواحد من عبيد رئيس الكهنة يقوم ولطم يسوع على وجهه قائلاً: (أَهكَذَا تُجَاوِبُ رَئِيسَ الْكَهَنَةِ؟)، فلم يُخفَ على العبد أن سيده أفحم من جواب المتهم البسيط. وكانت هذه اللطمة الوضيعة هي الوسيلة الوحيدة لتخليصه من الورطة المشينة المخزية. ونحن كثيراً ما نواجه بنفس هذا التصرف، عندما يعجز أهل هذا الدهر عن مقاومة الحق الذي نعلنه لهم، ولا يكون أمامهم إلا أن يصفونا بالعناد والكبرياء.

وفي مثل هذه المواقف ليس علينا إلا أن نستخدم كلمات السيد التي قالها: (إِنْ كُنْتُ قَدْ تَكَلَّمْتُ رَدِيًّا فَاشْهَدْ عَلَى الرَّدِيِّ، وَإِنْ حَسَنًا فَلِمَاذَا تَضْرِبُنِي؟)

(١٨) تفاصيل المحاكمة

لم تزل ظلمة الليل تغطي أورشليم، ومعظم أهلها في سبات عميق ولا يحسون بالأحداث الرهيبة التي تجري داخل أسوار المدينة، ومن حين لآخر يسمع صوت وقع أقدام في الطريق في اتجاه دار رئيس الكهنة الذي تشير نوافذه المفتوحة التي تنبعث منها أنوار المصابيح والمشاعل في هذا الوقت من الليل على غير العادة على أن هناك أحداثاً غير عادية. وأول ما يقابلنا هناك اجتماع على مستوى عالٍ في قاعة الاستماع الفسيحة. إنه مجلس من سبعين من رؤساء إسرائيل يرأسهم رئيس الكهنة. وهذا الاجتماع له احترامه بالنسبة للمراكز التي يضمها، وليس نظيره في كل العالم بما يوحيه من رهبة، وهو يشغل كرسي موسى في وسط الشعب المختار، ووظيفته أن يقرر العدالة بحسب كتاب الناموس وباسم الله العلي. وبجانب رئيس الكهنة الرجال الذين شغلوا من قبل مركز رئيس الكهنة، وليهم ممثلون عن الأربعة والعشرين رتبة من رتب الكهنوت هم الشيوخ أو رؤساء المجامع، وباقي المجلس يتألف من أستاذة الناموس وهم حجة في الشرائع الموسوية وتقاليد الشيوخ وفرائض المعلمين. وكان الواجب الأساسي لهؤلاء الرجال كحفظة القدس أن يتأكدوا من إتمام الفرائض التي أمر بها الله بين الشعب، وأن يحكموا في المنازعات القضائية بين الأسباط، وأن يفحصوا أى بدع قد تجد طريقاً للظهور ويصدروا أحكامهم

فيها. وبلاشك فإنه من حقهم أن يحضروا أمامهم رجلاً قال عن نفسه إنه المسيا ليفحصوه بكل تدقيق، ولم نجد أبداً أن القدوس كان يناقشهم في حقهم أن يفعلوا ذلك، وهذا واضح من احترامه لهم رغم الصفات الأخلاقية غير الحميدة التي كان أفراد المجلس يتصفون بها.
وأمام هذه المحكمة العليا يمثل مخلِّص البشرية وهو موثق بالسلاسل، ولكنهم كانوا قد عقدوا النية أن يسلموه للموت. لماذا؟ لقد كان يفسد ألاعيب هؤلاء القوم المتكبرين الذين يحاكمونه الآن، وكان يوبخهم على أعمالهم الصادرة عن أنانية بغيضة ويزعجهم في أوكار خطاياهم ولا يوافق على طريق الضلال التي يسلكونها، ويدين أفعالهم الجسدانية الشريرة ويكشف لهم عن حاجتهم إلى ذلك البر الذي به فقط يمكنهم الوقوف أمام الله، ومن أجل هذه الأسباب يبغضونه ويطلبون شهوداً ضده. وترى أى شهود سيحضرونهم؟ إنهم يهود لا يناقضون فقط أحدهم الآخر في كل كلمة بل كانوا يناقضون أنفسهم! في حين أن الشهود الذين نستند نحن عليهم ليقفوا في جانب إيماننا هم الأنبياء والبشيرون والرسل وآلاف الشهداء الذين رنموا له تسابيح الحمد وسط النيران. هذا فضلاً عن تاريخ الكنيسة والاختبارات التي يحصل عليها المؤمنون في كل يوم لتكون شهادة دامغة على صدق تعاليم ذاك الذي هو موضوع محبتنا. ويحاول المجلس بمشقة أن يلبس جريمته مظهراً من مظاهر العدالة، ويجد صعوبة في إيجاد الشهود ضد يسوع. ويدفعهم اليأس أن يلجأوا إلى وسيلة في منتهى الضعة، فأغروا جماعة من المرتشين وحرضوهم ليكونوا شهود زور، لكي يلصقوا تهمة كاذبة أو أكثر بهذا القدوس،

ولكن ماذا كانت النتيجة؟ لقد فضحوا أنفسهم والذين استأجروهم ولم يعملوا أكثر من أنهم أضافوا براهين جديدة على براءة المتهم، وما أوردوه كان يحكم على نفسه ببطلانه، وحتى ما ذكروه من تهم لم يكن لناموس موسى أن يدينها. ويزداد ارتباك الشهود، ويناقض أحدهم الآخر ضد إرادتهم. وجد المجلس الموقر نفسه الآن في ورطة أليمة، وفي النهاية يقدم شاهدي زور على أمل أن يسدوا النقض في توفر الأدلة في كلام الشهود السابقين بعبارة وردت في كلام الرب قبل هذا التاريخ بعام، وهي الكلمات الواردة "انْقُضُوا هذَا الْهَيْكَلَ، وَفِي ثَلاَثَةِ أَيَّامٍ أُقِيمُهُ" (يوحنا ٢: ١٩).وقد أساء اليهود حينذاك فهم هذه العبارة بإرادتهم ليجدوا عليه فرصة، فقالوا: (في ست وأربعين سنة بُني هذا الهيكل وأنت في ثلاثة أيام تقيمه؟). ولكن كما يقول البشير: (إنه كان يتكلم عن هيكل جسده). وكان الشاهدان يظنان أن هذه العبارة تصلح ليس فقط في إظهار المتهم بمظهر المفتخر الشرير، ولكن أيضاً بارتكابه جرماً ضد عظمة الله بتجديفه على الهيكل.
ومع كل هذا لم يجد رئيس الكهنة الجرأة الكافية لينطق بالحكم عليه مستنداً على أدلة واهية وموضع شك كهذه، وكان ضميره لايزال يعلن له ضعف وتفاهة هذه الشهادات الأخيرة أيضاً. وكان يعلم في نفسه أن الشعب لن يقتنع بهذه المحاكمة، كما أن الهدوء العجيب المؤثر الذي ظهر به المتهم عندما واجه الاتهام الخبيث لهذين الشاهدين منع القاضي أن ينطق بالحكم. وفي النهاية كان كل ما جرى في المحاكمة في جانب مجد الرب الأمر الذي جعل قداسته التي لا تشوبها شائبة واضحة كل الوضوح أمام أنظار الجميع.

نعم، فهو حمل الله الذي بلا عيب. ويلتفت القاضي بنظرات عابسة أراد بها أن يخفي حيرته وارتباكه ولو قليلاً، ثم يوجه سؤالاً إلى المتهم: "أَمَا تُجِيبُ بِشَيْءٍ؟ مَاذَا يَشْهَدُ بِهِ هؤُلاَءِ عَلَيْكَ؟" (مر ١٤: ٦٠). ويخبرنا الكتاب أن يسوع (فَكَانَ سَاكِتًا) وما أبلغه من صمت! ولماذا يتكلم كثيراً بينما شهد له أعداؤه ـ على غير إرادتهم ـ بقوة حتى لم تعد بعد حاجة إلى أن يبرر نفسه؟! فبقى ساكناً.

(١٩) سقطة بطرس

بالإضافة إلى كل الآلام التي كان على ربنا المبارك أن يتحملها كان عليه أن يحتمل إنكار واحد من جماعة التلاميذ القلائل. كان يجب ألا يكون قلبه غريباً عن أى حزن أو ألم لكي يكون قادراً أن يرثي لضعفاتنا، وكيف تكمل الكتب إن كان لا يجتاز فيما اجتاز فيه من جاءوا قبله وكانوا يشيرون إليه ـ يوسف يبيعه إخوته، داود يذوق مرارة الخيانة في وقت المحن ـ وكيف يتم فيه ما قيل في النبوة: "أَبْعَدْتَ عَنِّي مُحِبًّا وَصَاحِبًا. مَعَارِفِي فِي الظُّلْمَةِ " (مز ٨٨: ١٨).

ودعونا الآن نتبع سمعان بطرس، فليس نظيره شخص قد التصق بالمخلَّص برغبة قلبية شديدة، ولكنه لم يدرك إلا جزئياً ماذا دفعه إلى أن يحب يسوع. فأسرار تضحيته والضرورة الحتمية التي دفعته أن يقدم نفسه ذبيحة عن خطايا العالم كانت لا تزال مخفية عنه، لكن كانت لديه فكرة عامة أن خلاصه يعتمد بطريقة ما على رفقته ليسوع وأنه بدون يسوع هالك لا محالة. وكانت حالة بطرس تدل على أن الإيمان والمحبة قد سبقا المعرفة والإدراك الروحي والأمر معه يعتمد على الشعور أكثر من كونه استنارة ذهنية إلهية.

ويعد بطرس عينة من بعض إخوتنا اعتدنا أن نقول عنهم إن لهم قلباً ملتهباً لكنهم في حاجة إلى نور الروح القدس، وفيهم تكمن بذرة الحياة الجديدة، لكن النضوج لم يتم بعد ومازالوا يحتاجون إلى الكثير من عمل الروح القدس. كان بطرس يشبه ذلك الرجل الذي تكلم عنه الكتاب أنه مضى إلى الحرب دون أن يجلس أولاً ويعمل حساب النفقة، فقد أعلن جهاراً أنه لن ينكر سيده ولو اضطر أن يذهب معه إلى الموت، فماذا يقال عنه الآن لو أنه نكث عهوده وغاب عن المشهد؟ إنه حيث يكون السيد ينبغي أن يوجد هو، لذلك نراه يتقدم بخطوات مرتعشة إلى الأمام بينما في القلب إحجام، ويود من كل قلبه لو أن مانعاً لا يمكن تحاشيه قد اعترض طريقه وعطل تقدمه. وكادت العقبة المبتغاه أن تقدم نفسها في أبواب دار رئيس الكهنة التي أغلقت بمجرد أن دخل الجميع وأسيرهم معهم. ولا نخطئ إن قلنا إنه في هذه اللحظة كان يستعد للهرب، لكنه حدث أن التقى بزميل له في الإيمان كان معروفاً عند رئيس الكهنة، وبما له من خطوة عنده كان يدخل ويخرج بحرية، فهذا أوصى الجارية البوابة أن تسمح لبطرس بالدخول. وسواء برغبته، فهذا أوصى الجارية البوابة أن تسمح لبطرس بالدخول. وسواء برغبته أو بدون رغبته دخل بطرس إلى الداخل. ويخطو سمعان بخطوات مرتعشة ويدخل من الباب المفتوح، وبذلك يضع القدم الأولى في طريق الانزلاق نحو التجربة التي كانت في انتظاره. آه، لو أنه القى بنفسه الآن أمام الله في الصلاة، ولكنه لايزال يعتمد على نفسه وعلى ما تقدمه الصدف والظروف، وعلى أرض المعركة يقف الشيطان والعالم بكامل أسلحتهما، ولم يكن بحاجة أن يخشاهما لو أنه حمل

ترس الإيمان. ودعونا الآن نتأمل في الحادث المؤسف الذي وقع في دار رئيس الكهنة. ففي اللحظة التي فيها دخل سمعان من الباب رفعت الجارية البوابة المصباح في يدها ثم تفرست فيه وكأنها تعرفه ولكنها لم تكن متأكدة تماماً. وفي فناء الدار كان العسكر قد اضرموا ناراً والتفوا حولها ليصرفوا الوقت في الكلام والمزاح بينما كانت تفاصيل المحاكمة ضد يسوع تدور في الداخل. وفي هذا الجو الذي لا يشعر فيه بطرس بالارتياح يقترب من ضجيج الملتفين حول النار بمظهر عدم المبالاة، وكأنه لا يريد سوى أن ينعم ببعض الدفء، وهكذا يأخذ مكاناً بين هذه الجماعة حول النار. وفي الحقيقة لقد بدأ إنكاره من هذه اللحظة، فقد أراد أن يظهر أمام هؤلاء المرتزقة وكأنه ينتمي إلى جمهورهم، وأنه يشاركهم إحساسهم من نحو الناصري. وفكرت البوابة أن تتأكد من شخصية الغريب الذي سمحت له بالدخول، فنظرت بينما كان لهيب النار المتراقص يلقي وهجاً ساطعاً على الوجوه، فاكتشف مكمن الشخص الغريب، وعندما تطلعت إلى وجهه من فوق كتفه سألته في مكر وسخرية: (ألم تكن مع يسوع الناصرى؟ ألست واحداً من تلاميذه؟)

من يستطيع أن يصف مقدار الارتباك الذي أصاب بطرس بسبب هذا السؤال؟ في اللحظة التي ظن فيها أنه في أمان يأتيه الهجوم بغته! ومع ذلك فقد حاول أن يجمع نفسه ليجيب على السؤال بلهجة من طعن في كرامته (لست أعرفه يا امرأة، لست أعرف ما تقولين). واأسفاه! أهذا هو الذي تعهد أن ينازل العدو بدلاً من يسوع حتى نالته طعنة من ملك الأهوال؟ إنه يستسلم الآن أمام أول إحساس بالخطر ينقله إليه سؤال جارية. وبعد أن تلعثم بهذه المراوغة

التي يؤسف لها ينهض من مكانه بعد أن أحس بالخطر من الخارج وتبكيت ضميره من الداخل ويحاول أن يعتزل المأزق الخطير دون أن يراه أحد، فيتسلل نحو الباب حتى إذا وجده مفتوحاً يسرع بالهرب. وهنا صاح الديك للمرة الأولى، ولكنه بسبب الاضطراب الذي استولى عليه فإنه في هذه المرة أن يصغي لصوت التحذير، وفي نفس اللحظة تعترض طريقه دون أن يتوقع جارية أخرى. فصاحت للعسكر الواقفين وهي تقول بوضوح أكثر من سابقتها: (وهذا أيضاً كان مع يسوع الناصري!) وسر العسكر أن يسقط عن بطرس رداء تنكره الأمر الذي يهيئ لهم فرصة جديدة للاستمرار في المزاح لصرف الوقت. فقالوا له بصوت أجش وبلهجة التهديد: (ألست أنت أيضاً واحداً من تلاميذه؟ إنك أنت أيضاً منهم).
ماذا يفعل الآن بطرس المسكين؟ بعد أن انزلقت قدمه مرة نراه الآن يستسلم ويتمادى في الإنكار، فالطريق غلى السقطة الثانية يكون معداً ومهيئاً بعد السقطة الأولى، وللمرة الثانية ينكر بطرس سيده، وفي هذه المرة بأكثر جسارة عن الأولى، فيقول: (يا إنسان لست أنا) ثم يؤيد كلامه بقسم، بل إنه ينسى نفسه ويتكلم عن سيده بلهجة التحقير: (لا أعرف الرجل). وفي شعور بالقلق وعدم الاستقرار والشرود، كظبي جريح، يتحول التلميذ المسكين في فناء الدار بعيداً عن النظار، وقد أذهله أن يجد كل طرق الهرب مغلقة أمامه. ولفترة من الوقت ينجح في الابتعاد عن الأنظار وعن معاكسة الجنود والخدم، وبعد انقضاء نحو ساعة من الزمن يجد نفسه محاطاً بجمهور جديد، وهؤلاء يقررون أخيراً أن هذا الشخص الغريب لابد وأنه ينتمي لتلاميذ يسوع، فيقولون له بلغة التأكيد: (بالحقيقة أنت أيضاً منهم).

وعندما شرع في الدفاع عن نفسه من جديد حكموا عليه بالكذب من كلامه وهم يصيحون: (إنك جليلي ولغتك تظهرك) ويقترب عسكري آخر على صوت الشغب، ويتفرس في وجهه جيداً ويؤيد كلام الآخرين: (بالحق هذا أيضاً كان معه). وأخيراً جاء واحد من عبيد رئيس الكهنة، وهو نسيب الذي قطع بطرس أذنه في البستان، فيقول: (أما رأيتك أنا معه في البستان؟)

ويجد بطرس نفسه الآن وقد التفت به حبائل الشرك، ماذا يفعل؟ أمامه طريقان: فإمّا أن يعترف بصراحة بإنكاره المشين وإمّا أن يستمر في تمثيل دوره المحزن حتى النهاية، وفي هذه الحالة عليه أن يتمادى في هذا النفاق والبهتان السافر، وفي استسلام لليأس يقرر أن يختار الطريق الأخير، فيرسل قسماً تلو القسم، ولعنة بغير حساب، ليؤكد زعمه أنه لا يعرف الرجل. وكلما انفجر بعنف ليحتج ويصيح مبعداً التهمة عن نفسه كلما ظهرت لهجته الجليلية بوضوح وازداد تأكيدهم أنهم لم يخطئوا فيه. لقد فاض الآن مكيال خطيته فافترق عنه العسكر دون أن يزعجوه أكثر، وتركوه ومضوا.

(٢٠) الاعتراف العظيم

نعود الآن إلى قاعة اجتماع السنهدريم حيث تدور محاكمة يسوع، لحظة ساد فيها صمت عميق مطبق، ولكن حتى هذه الفترة من السكون لها معناها، فقد كان روح الحق يعمل عمله في الاجتماع بينما ملكت الحيرة والارتباك على كل عقل، وشهود الزور قد فرغوا من أداء دورهم المشين ووقفوا بلا حياء، وآلت شهادتهم المتناقضة إلى خزيهم وعارهم، أما طول أناة المتهم التي تدل دلالة واضحة على

براءته فقد أخجلت أعداءه تماماً. وتتجه الأنظار الآن إلى رئيس المجلس الذي يجد نفسه في موقف محرج أليم معذباً من جراء القلق لأجل حفظ هيبة وظيفته والخوف من عواقب هذه الأمور كلها، ويحاول في ذهن مشوش أن يتغلب على العقبة ويخرج من المأزق. كانت هذه هي الصورة التي انتهت بها المحاكمة التي أجريت ضد قدوس إسرائيل. وإنني أتساءل الآن: من خسر القضية، يسوع أم قضاته؟ إن موقف العالم ضد المسيح سوف ينتهي بطريقة مماثلة، وستكون النهاية اليأس المطبق والارتباك لكل الذين يقفون ضده.
إن رئيس الكهنة الآن في حيرة شديدة وتدور الأفكار برأسه كدوامة عميقة، وفجأة تتبادر إلى ذهنه فكرة يعتبرها مخرجاً من المأزق، فيخطو بضع خطوات للأمام ويطلب منه باسم العلي أن يشهد إن كان هو حقيقة المسيا كما أعلن عن نفسه أو مجرد نبي كاذب ومنافق، إن هذا يدعو لسرورنا نحن وإن كان هذا الإجراء قد جاء نتيجة لليأس أكثر من كونه تفكيراً هادئاً، إلا أن الجمع أعطى اهتماماً أحرى لأن أخطر لحظة في كل هذه المحاكمة قد حانت، ويفتح رئيس الكهنة فاه لينطق بأعظم سؤال فيقول ليسوع: "أَسْتَحْلِفُكَ بِاللهِ الْحَيِّ أَنْ تَقُولَ لَنَا: هَلْ أَنْتَ الْمَسِيحُ ابْنُ اللهِ؟" (متى ٢٦: ٦٣). تلك كانت صيغة القسم القانوني الذي كان مستعملاً في إسرائيل، وهكذا كانوا يأخذون العهود. وكان على الشخص أن يجيب بنعم أولاً من غير أن يعيد صيغة القسم، وهو عالم تماماً أنه إن كان في جوابه حيدان عن الحق فإنه سوف ينال قصاصاً رهيباً من الله القادر على كل شيء الذي في هذه الحالة يكون قد استدعى كشاهد، ويطلب رئيس الكهنة من يسوع أن يقدم شهادته وهو بذلك قد جعل

أساس الديانة المسيحية محور السؤال. كان على يسوع أن يشهد إن كان هو المسيح ـ المسيا المنتظر، وكان قيافا يعلم أن هذا الاسم الذي هو موضوع النبوة ستتحقق فيه كل النبوات، وأن المسيا كنبي سيأتي إلى الأرض بنور ومجد السماء وكرئيس كهنة عظيم كان سيقدم حياته فدية عن خطايا العالم وكملك سوف يؤسس مملكة أبدية بالنعمة والسلام، وهذا الكائن العظيم يدعى (المسيح) أو (مسيح الرب). وكان قيافا يعلم أيضاً أن المسيح سيكون إنساناً كما هو (الرب من السماء) كان يعلم أن المسيا سيكون ابن الله، وليس غيره في السماء أو على الأرض يتسمى بهذا الاسم، ومن ثم فهو الله نفسه، ومن وجهة النظر هذه يقدم قيافا سؤاله قائلاً: (هل أنت هو؟) وهو ينوي إن أجاب يسوع بالإيجاب فسيكون له الحق أن يوجه له تهمة التجديف ثم يصدر عليه الحكم بالموت.
هل وُجه ليسوع سؤال أعظم وأخطر من هذا؟ لو أن سؤال رئيس الكهنة أجيب عنه بالنفي أما كان في ذلك زوال وفناء لكل رجاء لنا، وكان كصاعقة تنقض فوق حصن تعزياتنا، وأما كان صرح خلاصنا قد انهار وطوح بنا بين أنياب اليأس؟! يستفسر قيافا إن كانت ساعة الفداء قد حانت؟ وإن كان هناك أمل في خلاص الخاطئ؟ وإن كانت هناك قوة للفداء من وراء طاعة يسوع؟ وإذا ما كانت وساطة المسيح ستكون حقاً بذات فائدة للأثمة؟ كل هذه الأسئلة وأكثر منها سيجاب عنها بالنفي إن كان جواب يسوع على السؤال (هل أنت ابن الله؟) قد جاء بالنفي، ولكن إن أجاب بنعم فإن كل هذه النتائج المترتبة تكون قد صارت ثابتة إلى الأبد. في هذا المشهد يقف يسوع أمام مجلس الأمة اليهودي وهو يبدو

لكل عين أنه (دودة لا إنسان)، أما العظمة والكرامة فتبدو أنها تستقر فقط على كل الذين حوله، ولكن عليه لا نلاحظ شيئاً سوى الاتضاع والفقر. إنه يقف هناك ويداه مربوطتان كأنه لص يحيط به قوم مسلحون، ويمثل بينهم ويكاد يصيبه الخوار بسبب الاعياء والآلام التي احتملها حتى تلك الساعة، متروكاً من الأصدقاء، يعيره ويسبه الأعداء، وكأنه حثالة الأرض وبائس منقطع النظير. ولهذا الإنسان المحتقر والمرذول والمضروب يقدم السؤال من الرجل الأول بين شعبه رئيس المجلس، أن يحلف باسم الإله الحي هل هو ابن الله؟ وفي هدوء تام يفتح فاه ويقدم شهادته أمام عرش الله الحي: (أنت قلت أنا هو). هنا يقدم يسوع الاعتراف العظيم، وياله من تصريح إنه يرفعنا فوق كل شك وخوف، ويثبت إيماننا على أساس أبدي، وفيه ضمان وختم لفدائنا يتوارى فيه كل وسواس وريب. وحتى لا يدع الرب ظلاً من الغموض يكتنف المعي الحقيقي لشهادته يستطرد قائلاً: "مِنَ الآنَ تُبْصِرُونَ ابْنَ الإِنْسَانِ جَالِسًا عَنْ يَمِينِ الْقُوَّةِ، وَآتِيًا عَلَى سَحَاب السَّمَاءِ" (متى ٢٦: ٦٤)، وبذلك يزيح النقاب عن المستقبل. فإن كان ما قرره في شهادته حقيقي فإنه حق أيضاً أن كل من لا يؤمن به سيهلك، ولن يبقى أمام كل من يرفض أن يحني الركبة أمامه إلا انتظار دينونة مخيف وغيرة نار عتيدة أن تأكل المضادين، وإن كل من لا يؤمن بالابن لن يرى حياة بل يمكث عليه غضب الله، فالذي أجاب على السؤال أمام المجلس قائلاً (أنا هو) هو الذي يشهد بذلك، وإن كان الأول حقيقياً فكذلك الأخير. فأسرعوا إذاً لتخضعوا ذواتكم تحت يديه، فليس غيره لا في السماء ولا على الأرض يستطيع أن ينقذكم من الهلاك، ولا تكونوا أعداء لأنفسكم باختياركم

الموت واللعنة بعد أن أُنيرت لكم الحياة والخلود وقدمت لكم مجاناً بالإنجيل. هلموا الآن، في استناد على قسم المخلَّص المقدس، وألقوا بأنفسكم بين ذراعيّ الوسيط الوحيد.
أجاب يسوع قائلاً (أنا هو)، وإن لم يشهد هو عن نفسه أنه حمل المحرقة المزمع أن يتالم لأجل الجنس البشري لكانت ملايين الصلوات قد ختمت شهادته قائلة (آمين)، ولكان السيرافيم بفيثاراتهم الذهبية قد رفرفوا فوقه صارخين: (يا يسوع أنت هو)، ولكانت الأرض التي وضع هو أساسها قد رددت صدى هذه الشهادة، ولكان الآب الذى من السماء قد أعلن بصوته الذي يزلزل الأرض والجبال قائلاً: (هذا هو ابنى الحبيب الذي به سررت)، ولكن الصمت يسود في الأعالى وعلى الأرض وفي كل مكان، فكاهن الله الآن في القدس يقدم ذبيحته، وهناك كل إنسان صامت، فقط أعداؤه يغلون من الغيظ. وبعد ساعات قليلة تغلق أبواب الهيكل، وتأتي أمام الله نهاية تقديم الحملان والتيوس، ويغادر رب السماء والأرض قدس الأقداس إلى الأبد لأنه مصنوع بالأيادي، ليجعل مسكنه في كل قلب تائب منكسر. ويمزق رئيس الكهنة ثيابه ويقول: (ما حاجتنا بعد إلى شهود). وللأنسان حق في ذلك، فلو كان يسوع قد أعلن عن نفسه أنه هو ابن الله وديان العالم بدون حق لا اعتبر أكبر مجدف، ولكن يا قضاة اسرائيل هل من المحتم أن تكون شهادته عن نفسه كذباً وزوراً ؟! ولماذا يعد عندكم أمراً لا يصدق أن يكون هو الرب من السماء الذي تكلمت عنه النبوات؟! وهل يوجد في حياته ما يناقض هذا الإعلان الصريح؟! وهل يمكنكم أن تنسبوا إليه أنه قد مجد نفسه بدون حق أو نسب إلى نفسه كرامة إلهية ليست له؟... أخبروني، هل شهادته التي شهد بها عن

بنويته للآب لا يوجد ما يدعمها وهل تقف بلا سند؟ ألم يكن في كل ما ظهر به على الأرض إثباتاً لهذه الحقيقة؟ ألم تتأيد بأصوات من الأعالي؟! ألم توجد في المعجزات والعجائب الكثيرة براهين وفيرة تثبت هذه الحقيقة؟! ألم تكن كل أقوال الأنبياء التي تحققت فيه حرفياً دلائل قوية تساندها الحقيقة؟ هذه هي الأسئلة التي نضعها أمامكم يا قضاة أورشليم لكنكم لم تريدوا أن هذا يملك عليكم، ولذلك رفضتم أن تعترفوا به أنه هو ابن الله كما شهد عن نفسه يقسم. الويل لكم يا من صرتم مثلاً لإنتهاك العدالة! وماذا ستفعلون عندما يأتي اليوم الذي فيه تحضرون للدينونة، وكل ما كان في الظلام يخرج إلى النور؟! ويتسأل رئيس الكهنة قائلاً: (ماذا تريدون؟) فيجيب المجلس بصوت واحد آخذين الكلمة من فمه: (إنه مستوجب الموت).

وأختم هذه التأملات، واضعاً أمامكم هذه الكلمات التي سجلها الكتاب فإمّا أن ترفضوا يسوع موافقين على حكم السنهدريم المتعطش الدماء، وإمّا أن تصرخوا قائلين (أوصنا) للناصري المتواضع وتجثوا في انكسار عند قدميه، فهو الله الظاهر في الجسد، ولا يوجد هنا طريق وسط. والعقل الراجح يشير عليكم أن تشتركوا معنا. إن شهادة يسوع التي أعلنها بقسم أمام رئيس الكهنة هي الصخر الراسخ الذي عليه يتأسس إيماننا به، فابنوا عليه بيت رجائكم الأبدي، ولن تخزوا، لأن فم الرب تكلم!

(٢١) دموع بطرس

نعود لمقابلة بطرس بعد أن أتم إنكاره ليسوع، وبعد أن أعلن بقسم وبسيل من اللعنات عدم إنتمائه إلى جمهور التلاميذ

ولاحظوا كيف يصدر هذا من الشخص نفسه الذي من شفتيه خرجت التعهدات العظيمة، ولكن ماذا ننتظر من أفضل الناس إذا ما تركوا لحظة لذواتهم؟ وماذا يصدر من أخلص تابعي المسيح إن كان الرب يرفع عنهم حواجز نعمته قليلاً؟!
كان على بطرس أن يتعلم من الاختبار أن البشر يبالغون كثيراً إن كانوا يعتمدون على ذواتهم حتى في أبسط التجارب. عندما تحصرنا محبة المسيح نستطيع أن نخاطر بأي شيء لأجله ولكن سر النصرة هو في إيماننا بمحبته وثقتنا في قدرته وقوة نعمته، والذي يرتعد لمجرد التفكير في تعرضه لإنكار سيده هذا يحرز نصراً عظيماً عن الذي يثق في نفسه ويقول: (لو أنكرك الجميع أنا لا أنكرك). وانهزم بطرس، وانتصرت الجحيم عليه، وانصتوا الآن إلى الصوت المنبعث من قاعة المحاكمة في دار رئيس الكهنة، قد أجمع الرؤساء على الحكم على الله، ويستوجب الموت، وهذا المحكوم عليه هو بعينه الذي قال سابقاً: (أنا أضع حيأتي لأجل الخراف)، وهو مستعد الآن أن يفعل ذلك وبطرس ينتمي إلى قطيعه، وواحد من خرافه الذين نقلت اللعنة من عليهم لتوضع على الضامن والوسيط، وينطبق عليهم هذه الكلمات: (لن تهلك إلى الأبد ولن يخطفها أحد من يدي). وما كاد بطرس يملأ مكيال خطيته بإنكاره علناً نسبته للسيد وإذا بالديك يصيح، وماذا كانت النتيجة؟ تيقظ من غفلته، والله وحده يعلم مقدار الضجة التي أصم بها الشيطان أذني التلميذ حتى الصيحة الأولى من الرقيب المكسو بالريش لم تصل إلى أذنيه. إن لكل إنسان أصوات تنبيه من هذا النوع أو ذاك، فأينما كنا هناك أصوات تنادينا للتوبة، تصدر سواء من الطبيعة أو من ظروف الحياة المحيطة بنا، لكن آذاننا ثقيلة ولا

تريد أن تصغي. هناك صوت الرعد الذي يتكلم إليك عن جلال الله، وكذلك في الصواعق التي تنقض حاملة معها الدمار الشامل، وفي النجوم التي تتطلع إليك من الأعالي، وزنابق الحقل التي في إزهارها وذبولها السريع الخاطف تناديك معلنة لك أن حياتك على الأرض بخار يظهر قليلاً ثم يضمحل. وأين لا تحيط بنا هذه الأصوات المنبهة. إنها تنبعث من حجارة القبور قائلة: "وُضِعَ لِلنَّاسِ أَنْ يَمُوتُوا مَرَّةً ثُمَّ بَعْدَ ذلِكَ الدَّيْنُونَةُ" (عب ٩: ٢٧)، وتأتينا من سنابك الخيل التي تجر عربات الموتى، ونسمعها حين يحتفل بأعياد ميلادنا، وفي كل وعكة مرض، وفي كل خطر يحدق بنا، كما في ذلك الشعور الداخلي بعدم الاستقرار والقلق الذي يعم نفوسنا بلا انقطاع.
ودعونا الآن لحظات قليلة لنرى ما حدث في قاعة المجلس قبيل صوت التحذير الثاني الذي صدر إلى بطرس، فقد صدر الحكم بالموت على قدوس إسرائيل وسط الصياح والهرج، فاقتادوه خارج الدار ليصبوا عليه غضبهم بما ينافي العدالة، وما أن وصل القدوس المتألم إلى الفناء الخارجي حتى سمع صياح الديك يصل إلى أذنه، (فالتفت الرب) وكلنا نعلم لمن كانت هذه الإلتفاته. لقد أعلن هذا الصوت سقطة تلميذه، فاتجهت عينه وقلبه المتدفق نحو التلميذ، هذا هو يسوع المخلص! إنه يشمل تابعيه بعطف يفوق عطف الأمهات، وإن عدم أمانتهم لا يمنعه من أن يكون أميناً لهم. إن أمواج الحزن تطمو فوق رأسه الآن، لكنه يتجاهل كل شيء بسبب مشغوليته واهتمامه بالتلميذ الساقط! إنه لا يحول نظره عن واحد من صغاره فطوباكم يا من أنتم ضعفاء في قطيعه، وفقراء ومحتاجين أكثر من غيركم! فعلى ما يبدو إنكم أقرب

إلى قلبه من الآخرين. كان بطرس غارقاً في حمأه ضعفه وإنكاره ومع ذلك فقد التفت الرب إليه، ومن منا كان يهتم بشخص كهذا وصل إلى هذه الدرجة من الجمود كجندي هارب من الخدمة؟! ما أسرع ما نصف الاخوة المتعثرين أنهم مراءون ونرفض التعامل معهم! ودون أن نحرك ساكناً لنردهم نعاملهم بقسوة فينغمسون في الوحل أكثر، ونضطهدهم أكثر مما يفعل العالم. إن الرب يحب أولاده أكثر مما نحب نحن أخوتنا. قولوا لي أيها الآباء هل أولادكم المخطئون وبناتكم غير الطائعات فقدوا بنويتهم بسبب انحرافهم؟ ألا تزالون تحسون بأنهم لحم من لحمكم وعظم من عظامكم؟ وألا تزداد محبتكم لهم بازدياد الخطر الذي يتعرضون له فتحسون بأن حياتكم ترتبط بحياتهم أكثر مما لو سببوا لكم الفرح؟ فبطرس وإن كان قد سقط لكنه لم يزل من خاصته، ومع أنه قد سلك في حماقة لكن محبة السيد لم تتغير، أنظروا كيف يبحث عنه بكل اهتمام! (والتفت يسوع ونظر الى بطرس). لم تكن هي صيحة الديك التي أيقظت التلميذ من غفلته ولكنه آخر أقوى: (فالتفت الرب ونظر الى بطرس)، ويا لها من نظرة بما فيها تعبير عن حزن ومحبة الرب، وكيف اصطحبت بتأثير الروح واشعاع الله! لقد عملت كسيف يجرح وبلسم يشفي، وأصابت كصاعقة مدمرة ثم انبسطت كندى منعش، فلم تكد عينا التلميذ تلتقيان بعينيّ سيده حتى ذاب القيد الخفي الذي ربطه العدو به، وانفتحت أذناه وعاد إلى صوابه، وأحس بخطيته وذاب قلبه، وانكسر الفخ وانفلت العصفور ليغرد (بنعمة الله).
(كيف وصلت إلى هذا الحد من السقوط! ويحي أنا الإنسان الشقي! ألم يخبرني في الطريق قائلاً لي، قبل أن يصيح

الديك مرتين تنكرني ثلاث مرات؟ ويل لي لأني في غرور الحمقى لم أحفل بالتحذير، ولم أتذكره إلا بعد فوات الوقت! لقد تعهدت أن أمضي معه إلى السجن وإلى الموت ومع ذلك كنت أول الكل في الإنكار والجحود! كيف تستطيع الأرض أن تحتملني، وكيف لا تنقض على صواعق السماء! ولكن على النقيض أجده يتلطف على بنظرة شفقة وعطف على الرغم من أني تجاهلته وأنكرته!). لابد أن تكون هذه لغة بطرس عندما (تذكر كلام الرب الذي قاله له). ولو لم تكن محبة المخلِّص المشفقة قد أعدت كل شيء لتمنع الشيطان من أن يغربل التلميذ المسكين بقسوة لكان قد صار فريسة لليأس، ولكن صلاة السيد لأجله لكيلا يفنى إيمانه قد أحاطت وهده الهلاك بسور، كما أن وصيته له أنه بعد رجوعه يثبت أخوته ويشددهم قد ساعدت في تجفيف دموعه قبل أن تفيض بغزارة. وقد ذاب قلب بطرس تماماً من الحزن والانكسار بنظرة الرب له فصار يبكي بمرارة كما لو كان لا يستحق أن يظهر أمام الله والإنسان، وكم من الأمور تعلنها هذه الدموع! إنها دليل التوبة الحقيقية أمام الله والغضب المقدس ضد الخطية، إنها تكشف عن تعطف شديد للنعمة، كما أنها برهان عن المحبة الكاملة الملتهبة من نحو الرب والأشواق التي انبعثت من قلبه، فكل رغباته تتلاقى الآن في أن يعود ويبتهج برضى الرب، وكانت دموعه تعلن ميلاد إنسان جديد، فآدم الأول العنيد الذي يفكر في نفسه ويعتمد على ذاته قد مات، ليقوم من رماده إنسان متواضع في خضوع لله. وله الرغبة الصادقة أن يتمجد اسم الرب وحده. لم ينس بطرس قط حادث انكاره للسيد، وبدرجة ما فإن ذكر الحادث حفظه في اتضاع وأرهف بصيرته الروحية لإدراك

أسرار الصليب والخلاص بالنعمة، وهذا واضح بجلاء في رسالته الأولى إذ يكتب معزياً المؤمنين باليقين المفرح أنهم "أَنْتُمُ الَّذِينَ بِقُوَّةِ اللهِ مَحْرُوسُونَ، بِإِيمَانٍ، لِخَلاَصٍ مُسْتَعَدٍّ أَنْ يُعْلَنَ فِي الزَّمَانِ الأَخِيرِ" (١بط ١: ٥)، ويحثهم أن (يلقوا رجاءهم بالتمام على النعمة التي يؤتى بها إليهم)، ويذكرهم مشدداً بضعف وبطل كل ما هو بشري، مذكراً إياهم يقول النبي: "كُلَّ جَسَدٍ كَعُشْبٍ، وَكُلَّ مَجْدِ إِنْسَانٍ كَزَهْرِ عُشْبٍ. الْعُشْبُ يَبِسَ وَزَهْرُهُ سَقَطَ" (١بط ١: ٢٤)، كما أنه يتكلم عن دم المسيح "بَلْ بِدَمٍ كَرِيمٍ، كَمَا مِنْ حَمَلٍ بِلاَ عَيْبٍ وَلاَ دَنَسٍ، دَمِ الْمَسِيحِ" (١بط ١: ١٩)، وبغيرة تدل على أنه قد اختبر عمق قوته للشفاء، وبطرس هو الذي يقدم لنا هذا التحذير: "اُصْحُوا وَاسْهَرُوا. لأَنَّ إِبْلِيسَ خَصْمَكُمْ كَأَسَدٍ زَائِرٍ، يَجُولُ مُلْتَمِسًا مَنْ يَبْتَلِعُهُ هُوَ" (١بط ٥: ٨). وعندما يقتبس من المزمور قوله: (لأن عيني الرب على الأبرار وأذنيه إلى طلبتهم ولكن وجه الرب ضد فاعلي الشر)، ألا يظهر من ذلك أنه يقصد أن يشير إلى تلك النظرة التي أذهلته وجعلته يضع وجهه في التراب؟

(٢٢) تنبأ لنا أيها المسيح!

صدر الحكم بالموت على يسوع، ثم رفعت الجلسة ـ التي استمرت أثناء الليل ـ لوقت قصير وسط ضجيج وهرج الانتصار، وفي هذه الأثناء سلم القدوس المتألم لثلة من الجنود المستهترين الذين إذ أخذوا وصية من رؤسائهم أساءوا معاملته وأمعنوا في تعذيبه بوحشية.

وقبل أن نقترب من المشهد المضطرب في فناء دار رئيس الكهنة دعونا نذكركم بشخصية هذا الذي عاملوه بهذه

الصورة المهينة التي من هولها تتفتت الصخور، ولو كان الشخص الذي أمامنا مجرد إنسان له كرامة ومكانة في الأرض فإننا حتى في هذه الحالة ننتفض من هول هذا التعذيب الوحشي الذي لا يتفق مع كرامة الإنسان. ولكن هذا الشخص يرتفع بجلاله فوق كل عظماء الأرض، إنه ملك الملوك ورب الأرباب الذي فيه يحل كل ملء اللاهوت جسدياً، هذا هو الذي يطأه هؤلاء الحقراء بأقدامهم الدنسة، وإنه وجه المحبة الإلهية الذي يبصقون عليه، ونبع الحياة هو الذي يكيلون له اللطمات، والذي تقدم له السماء كل سجود وإكرام يهينونه بألسنتهم التي تضرم من جهنم، وهذا التأديب يقع على نفس الشخص الذي منذ قليل أكد بقسم وفي احساس كامل بعظمته الإلهية أنه هو المسيح ابن الله الحي. إن هذا المنظر يدعونا للدهشة والعجب الشديد، لكن كل إنسان يجب أن يعرف يقيناً أن المسيح طوعاً واختياراً قد سلم نفسه للآلام، وأن هذا الذي تنهال عليه الإهانات ليس أضعف ولا أقل قوة منه عندما بكلمة واحدة جعل أعداءه يسقطون على وجوههم. قد يبدو الآن كقصبة مرضوضة ودودة وطأتها الأقدام، لكنه لا يزال يتمنطق بالعز والاقتدار الإلهي، لم ينثلم سيفه ولم ينكسر قوس قوته، ولكنه لا يستخدم قوته ليدافع عن نفسه، فقد كان يتألم باختياره، وفي إذعان وتسليم ترك هذه الأهوال تطمو فوقه. إنه الآن ذليل في يدهم، يقذفونه بأحقر الإهانات والشتائم، ولا يكتفون بذلك بل يصفعونه على وجهه، ولا حتى هذا يروي ظمأهم وتعطشهم للانتقام، فيجب أن يحس بمزيد من الألم، ليعرف أنه يحتقر غاية الاحتقار، فيفغرون أفواههم عليه، ويؤلمنا أن نذكر أنهم بصقوا في وجهه الطاهر. ولم يفرغوا

بعد من ابتداعاتهم الأثيمة لكن الأثمة الفجار يبحثون عن وسائل أخر إمعاناً في تعذيبه، وسريعاً تم لهم ما أرادوا. لقد سمعوا أن ما أثار غضب الرؤساء هو تصريحه أثناء المحاكمة أنه هو المسيح ابن الله الحي، فرأوا أن يعاقبوه بنوع خاص بسبب هكذا الأمر، فوجهوا إليه أمر سهام السخرية والاستهزاء بكونه هو المسيا، وخاصة من جهة وظيفته كنبي، فعصبوا عيني القدوس الصابر على الألم، وأخذوا يلطمونه وسط صيحات الاستهزاء وهم يقولون له: (تنبأ لنا أيها المسيح من ضربك؟)
سأترك الستار ينسدل فوق هذا المشهد، فمن يستطيع أن يحتمل التأمل في هذا المنظر؟ إن كان يوجد بيننا الكثيرون ممن يقولون: (من هو يسوع حتى نخشاه أو نتذلل أمامه)، لكنه عندما يجب عليهم مرة فسيطلبون من الصخور أن تسقط عليهم والتلال أن تغطيهم لكي يختفوا من وجه الجالس على العرش ومن غضب الخروف، فلا يظن أحد أن ديان العالم سيترك المستهزئين به من غير عقاب، ولكن ليعلموا بالحري أنه خير لهم أن "قَبِّلُوا الابْنَ لِئَلاَّ يَغْضَبَ فَتَبِيدُوا مِنَ الطَّرِيقِ. لأَنَّهُ عَنْ قَلِيل يَتَّقِدُ غَضَبُهُ" (مز ٢: ١٢).
(تنبأ لنا أيها المسيح من ضربك؟). إن المستهزئين لم يتلقوا جواباً عن هذا السؤال لأن يسوع بقى ساكتاً، فليت أولئك الذين يفتشون عن الخلاص باهتمام أن يأتوا بقلب تائب متضع، ولن يمضي وقت طويل حتى تأتيهم رسالة من النعمة هذه فحواها: (اليد التي ضربتني كانت ستسحقكم، واللعنة التي وقعت عليَّ كانت مقدرة لكم، وقد شربت كأس الغضب التي ملأتها خطاياكم، لتملأ لكم من جديد بالرحمة الأبدية). وعندما يأتيكم هذا التبكيت فلتتأكدوا أن مصدره هو

الله، (لأنه جعل الذي لم يعرف خطية، خطية لأجلنا)، المسيح افتدانا من لعنة الناموس إذ صار لعنة لأجلنا. أليس عجيباً أنه قد ترك معذبيه يمضون في سبيلهم دون عقاب؟ يطأون ابن الله في الطين وديان الأحياء والأموات صامت لا يتكلم! ولكننا نعلم أن ما وقع عليه من الآلام كانت ضرات السيف التي قال عنها الرب (استيقظ يا سيف على راعيَّ وعلى رجل رفقتي)، وأنهم عندما ألقوا القبض عليه كان هذا لنعتق نحن الخطاة إلى الأبد. هذا هو الحل لهذا اللغز العظيم، والجواب السليم عن السؤال: (من ضربك أيها المسيح؟) فلا يكاد نور حقيقة الوساطة وفكرة المصالحة يسطع على غوامض حوادث وآلام الصليب إلا وكل شيء يصبح جلياً وبذلك تعلن أعظم الأسرار.

(٢٣) المسيح أمام السنهدريم

الفجر يرسل خيوطه الفضية معلناً بدء يوم من أخطر الأيام وأهمها، إنه يوم الجمعة العظيمة، يوم ميلاد الخلاص، وفجر الفداء الأبدي. ورغم أنها ساعة مبكرة لكن أعضاء مجلس السنهدريم مستيقظون في نشاط تام، إنهم الآن يعدون العدة لإعادة فحص يسوع ثانية (لكي يسلموه للموت) ورغم أنهم أصدروا حكمهم عليه بالموت منذ قليل، إلا أنهم يبدون غير مقتنعين، لذلك طلبوا أدلة وبراهين جديدة حاسمة ضده أكثر من تلك التي بنوا عليها حكمهم. وينعقد الاجتماع في قاعة الاجتماع الملحقة بمباني الهيكل لأن الاجتماع الأول الذي عقد في دار رئيس الكهنة علاوة على تخلف عدد كبير

من أعضاء المجلس فقد كان ارتجالياً وغير منظم، ومجلس السنهدريم كان يعد هيئة القضاء العليا عند اليهود في القديم، وكان يتألف من واحد وسبعين عضواً، منهم رؤساء الكهنة، والشيوخ، والكتبة أو أساتذة الناموس، تحت رئاسة رئيس الكهنة الأعلى، وعلى نظام السبعين من شيوخ إسرائيل الذين جعلهم موسى معه لإفراز العدالة أثناء رحلة الشعب في البرية فكان لهم أن يقضوا ويصدروا أحكامهم في كل المسائل التي بين اليهود وخاصة في الأمور الدينية. واعتراف المسيح بهذه السلطة كمعتمدة من الله وخضع لأحكامها بغير اعتراض "عَلَى كُرْسِيِّ مُوسَى جَلَسَ الْكَتَبَةُ وَالْفَرِّيسِيُّونَ" (متى ٢٣: ٢). وقد وقف بطرس فيما بعد أمام هذه المحكمة بتهمة التظاهر بصنع المعجزات، ثم وقف مرة أخرى بصحبة يوحنا بتهمة تضليل الشعب، ومثلّ أمامها استفانوس كمجدف، وبولس متهماً بالتعليم ضد الناموس. ويمضون بالرب ليمثلّ للمرة الثانية أمام هذه المحكمة، وهذه هي المرة الأخيرة له أن يعبر هذا الطريق فوق الجبل الذي يقام عليه الهيكل، وكان هذا في نفس اليوم الذي يسرقون فيه حملان الفصح إلى الكهنة لتقدم ذبيحة، ترى ماذا كان شعور الرب في هذه المناسبة؟

وينتظم أعضاء المجلس في أماكنهم، ويقف المتهم في قفص الاتهام ويعود القاضي يسأله مرة أخرى: (هل أنت المسيح؟) وكأنه لم يصرح لهم بوضوح منذ قليل أنه هو، ولكن يبدو أنهم مترددون أن يسلموه للموت كمضل ومجدف بغير توفر أدلة أخرى. ويفتح الرب فاه، ولنلاحظ كيف يتغير الوضع ويصبح المتهم قاضياً والقضاة مذنبين، إذ يقول الرب: (إن قلت لكم لا تصدقون وإن سألت (أي إن حاولت إقناعكم

بالأدلة والبراهين) فلا تجيبونني ولا تطلقونني). وما أكثر الناس الذين ينطبق عليهم هذا القول في هذه الأيام، ولا أشير الآن إلى أولئك القوم الذين يناقضون الدين تماماً ولكن أعني الذين يظهرون دائماً أنهم يريدون أن يعرفوا ما هو المسيح وأنهم لن يستريحوا حتى يقتنعوا، ولكن على الرغم من أنه قد صار ظاهراً أمامهم بصورة أو بأخرى ولكنهم لا يزالون في عدم إيمانهم به، ويريدون أن يعلن يسوع لهم عن نفسه، فيتقدم يسوع ويعلن ذاته ليس فقط كنور العالم، وكالحق والحياة، بل أعظم من ذلك، فهو المساوي للآب، والكائن قبل إبراهيم، والذي قد دفع إليه كل سلطان مما في السماء وما على الأرض. لكنهم لا يريدون أن يؤمنوا، والسر في ذلك لأنهم يخافون أن يرغموا على صلب أصنام حكمتهم وبرهم الذاتي، أو أن يطلب إليهم أن يتخلوا عن أمجاد العالم وشهواته من أجل يسوع، ويحسون بفجوة بينهم وبين الله تنذر بأن تبتلع كل مجدهم واتكالهم على الذات، وإذ ذاك يتراجعون للخلف بعيداً عن هذا الموت، فلا يزال الضمير يشتكي ضدهم لكي لا يفرطوا فيه كما فعل أهل كورة الجدريين، لكن ليس لديهم جرأة كافية للاعتراف بالحق، ومن ثم يتركون الأمر معلقاً من غير أن يتخذوا قراراً حاسماً. ويجدد الرب تصريحه بقوله: (من الآن يكون ابن الإنسان جالساً عن يمين قوة الله). ولم يشك الكهنة والكتبة لحظة أنه بهذا التصريح قد أعلن ذاته أنه هو المسيا الموعود به، والذي رآه الأنبياء في القديم مسوقين بالروح، وعلى ذلك يلزمهم الاعتراف بطبيعته الإلهية وأن يقدموا له السجود والإكرام. وهذه النبوة عن قرب جلوسه عن يمين القوة في مجده الأبدي ليست سوى الإعلان الصريح بأنه سيجلس في

عرش المجد مع أبيه السماوي في سلطان مساوٍ له. إن أعضاء السنهدريم بما لديهم من خبرة بلغة الأنبياء أخذوا كلمات الرب بهذا المعنى، فصرخوا جميعاً بصوت واحد: (أفانت ابن الله؟) فأجابهم بكل احساس بالعظمة والجلال الإلهي: (أنتم تقولون إني أنا هو). وبذلك كرر الرب اعترافه العظيم. ونهض المجلس عن بكرة أبيه في هياج وسخط، وهم يصيحون: (ما حاجتنا بعد إلى شهادة لأننا نحن سمعنا من فمه) هذا حق، لقد سمعوها من فمه، واعترافهم هذا قد تسجل في السماء ولابد أن يشهد ضدهم في يوم الدينونة الرهيب.

وبعد أن تأيد الحكم بالموت على القدوس، يقترب منه الجنود ليضعوا القيود في يديه، بعد أن كانوا قد نزعوها عنه إلى حين، أما هو فبكل خضوع وتسليم يقدم يديه ليتم قول إشعياء: "ظُلِمَ أَمَّا هُوَ فَتَذَلَّلَ وَلَمْ يَفْتَحْ فَاهُ. كَشَاةٍ تُسَاقُ إِلَى الذَّبْحِ، وَكَنَعْجَةٍ صَامِتَةٍ أَمَامَ جَازِّيهَا فَلَمْ يَفْتَحْ فَاهُ" (إش ٥٣: ٧). إنه هو الذي منذ قليل قد صرح بمساواته مع الآب، يظهر الآن، بموافقة السماء، في أغلال وكأنه مذنب، يا لهول الفارقة! كم هو واضح أن الرب سلم نفسه لأيدي أعدائه طوعاً واختياراً، وفي استطاعتنا أن نقرأ في نفس القدوس المتألم هذه الكلمات: (عندئذ رددت الذي لم أخطفه). إن قيوده قد ساهمت في تدبير فدائنا، لأن الشيطان كان سيربطنا بقيود أبدية لو أن يسوع اختار الحرية على القيود. وكم هو مفجع أن نرى هاتين اليدين اللتين لم يستخدمهما إلا في صنع الرحمة تقيدان بالسلاسل وكأنهما يدا مجرم، ولكن شكراً لله لأنه حجز صواعق غضبه عن أن تنقض لتهلك الأشرار الفجار عندما ألقوا القبض على القدوس ووضعوا

السلاسل في يديه! ففي هذه القيود تختفي الأغلال التي كان سيربط بها الخطاة إلى الأبد في الجحيم. وبعد أن أدى العسكر عملهم يقوم أعضاء المجلس ليأخذوا المتهم على غير ما جرت العادة والعرف ليقدموه للوالي ليحصلوا منه غصباً على تصديق على حكمهم عليه بالموت، وبذلك تمت نبوة المخلّص التي قالها إنه سيسلم إلى أيدي الأمم.

(٢٤) نهاية الخائن

ويجد يهوذا نفسه في موقف مرعب وقد ولت عنه الفكرة الوهمية التي كان يهدئ بها ضميره صانع المعجزات في إمكانه أن ينجي نفسه من أيدي أعدائه إن أراد، إذ رأى أن الحكم قد صدر فعلاً ضد سيده وأنهم يسوقونه الآن مقيداً إلى الوالي تحت حراسة السنهدريم، وعندئذ انفصم آخر حبل كان يحميه من عاصفة اليأس. انظروا إليه وهو يهرول مسرعاً، مثقلاً بحزن شديد، ولا يكاد يسيطر على عقله، فالله قد تركه، والسماء تخلت عنه. ويندفع التعس المسكين نحو الهيكل وهو يريد أن يتخلّص من أجرة الخطية الملعونة، ويذهب إلى رؤساء الكهنة والشيوخ، ويقترب منهم في غضب وغيظ شديدين، إذ كانوا أداة سقوطه الشنيع، فيعترف لهم بجسارة وصراحة قائلاً: (أخطأت إذ سلمت دماً بريئاً). إن صرخة اليأس التي تصاعدت من قلب الخائن تمجد بدون شك قداسة حمل الله وتشهد ببراءة يسوع، ويهوذا هنا يقدم لنا مثلاً مخيفاً أن الإنسان قد يلجأ بكل وسيلة ليحرر نفسه من لعنة الخطية ومع ذلك لا ينجح، لأن يسوع ليس نصيبه ولا هو من خاصته. هذا هو الإنسان التعيس! لقد أتم العمل البشع، وها هو يعترف بجريمته. إننا لا نرى فيه شخصاً عاتياً قد

تقسى قلبه تماماً لكنه يشعر بشناعة جرمه، وهو مستعد أن يعترف بخطيته ويندم عليها بمرارة نفس، ويود لو استطاع أن يوقف تنفيذ هذا العمل الشرير! فيعود مسرعاً إلى الرجال الذين أعانوه على ارتكاب جريمته ويعيد لهم الرشوة اللعينة، ويفضل أن يحتمل العار والخزي وأي شيء آخر من أن يبقى ثمن الدماء عالقاً بيده، ويعترف بصراحة وجهاراً بالإثم الذي ارتكبه بغير أن يحاول إخفاءه.
وهل يطلب من الخاطئ أن يفعل أكثر مما فعل هذا؟ افنرى هنا تبكيت الضمير، عزماً على إصلاح الطريق، محاولات صادقة للتوبة، ومع ذلك فهل أجتنى يهوذا من وراء كل ذلك فائدة؟ لقد ظلت الخطية لاصقة به، ولم يزل قيد الشيطان لم يتحطم، وارتعاد الرجل التعس كان بلا جدوى، وهكذا كانت توبته واعترافه وعزمه وتعهداته غير كافية أن تطهره من الخطية، وليس في مقدورها أن تقدم له رحمة. ويهلك يهوذا بصورة مخيفة، لماذا؟ هل لأن خطاياه زادت عن مقياس الغفران الإلهي؟ هل لأنه كان سارقاً ومنافقاً؟ هكذا كان اللص على الصليب؟ بل أكثر منه مضاعفاً، ورغم ذلك فقد وجد الطريق إلى الفردوس. هل لأنه خان السيد الرب؟ كثيرون فعلوا ذلك وقد خلصوا. هل لأنه شنق نفسه؟ أقول إنه حتى لو لم يفعل ذلك، ولو بقى على قيد الحياة فرصة أطول، ولو كان قد قضى بقية عمره في محاولات صادقة في إصلاح نفسه، لكان أيضاً قد هلك، لسبب واحد ـ إنه لم يكن تحت دم يسوع المسيح. إن هلاك يهوذا يقدم لنا مثلاً واضحاً عملياً عن استحالة الحياة بدون يسوع. هنا نرى بوضوح كيف تسخر الخطية من كل محاولة بشرية للتخلّص من أجرتها ودينونتها، فلا التوبة تحرر منها، ولا الدموع تغسلها، ولا

العهود الصادقة تستطيع أن تضع نهاية لها، ولكنها تبقى تتحدى في عناد كل هذه محاولات، وبعد أن تحوّل الحياة إلى مرارة دائمة، تنقل أسرارها في النهاية إلى دليل الموت الأبدي، وتسلمهم للهلاك الذي لا ينتهي.
انظروا إلى الخائن في حالة اليأس الذي استولى عليه، وكيف تستقر الخطية على كتفيه كشبح مخيف، ويهرول مسرعاً في قلق وتردد، ولكن الشبح يلازمه ويزيد من مخاوفه. ويظن أنه يستطيع أن يتخلَّص من حمله المخيف عندما يعيد الثلاثين من الفضة، ولكن عبثاً يحاول أن يصفي الحساب مع الخطية بهذه الطريقة. ويتكلم يهوذا مع رؤساء الكهنة والشيوخ لكنهم لا يملكون علاجاً للخطية. وأخيراً يستسلم لليأس، ويلقي بنفسه في أحضان الموت، ولكن حتى هذا لا يستطيع أن يريح النفس من سلطان إبليس.
فمن استطاع إذاً أن يكسر نير إبليس وينتصر عليه؟ إن ذاك الذي يسوقونه موثقاً في أغلاله ليمثل للمحاكمة أمام كرسي وثني، والذي من منظره تملك الرعب واليأس على قلب يهوذا بدلاً من أن يهتف هتاف الفرح والانتصار ـ هذا هو الذي استطاع أن ينازل العدو، فالمسيح كان هو الحمل الذي عليه وضعت خطية العالم، وبتحمله اللعنة نيابة عنا كسر شوكة الخطية، حتى إن كل من يؤمن به ينجو من الهلاك، وبهذا قد صار المسيح مخلِّص العالم، ومن ثم ينبغي أن كل إنسان يعرف تماماً أن ابن الهلاك قد هلك لأنه لم يرض في كبرياء قلبه أن يلقي بنفسه بصبر وإيمان بين يديّ سيده الذي سلمه، ولو فعل ذلك لكان يسوع بكل تأكيد قد أتى به إلى مرفأ السلام الأبدي. ولكن لماذا لم يفعل يهوذا ذلك؟ لأنه استسلم لليأس، فلم يكف الشيطان عن أن يهمس في

أذنيه أنه لم يبق له أمل في النجاة. ولو أن يهوذا بكل تواضع وشجاعة قد حول وجهه إلى يسوع بعينين دامعتين مثلما فعل اللص فيما بعد لكان قد ظفر بنظرة الرحمة الغافرة، فلن تعجز النعمة أمام إنسان في حالة اليأس، ولو كانت خطيته (حمراء كالقرمز) فدم الفداء يكفي لغسلها وتبيضها أكثر من الثلج، لكن الشيطان حمله في دوامته كما يجر النسر فريسته التي انقض عليها، ولم يسترح حتى أنتصر عليه تماماً، ولم يهدأ حتى اطمأن على النفس التي اقتنصها لإرادته. وينفصم الحبل الذي شنق التعس نفسه به، والشجرة التي اختارها لتكون مقصلة تختم عليها حياته تنفضه عنها في فزع، فيهوى المسكين إلى الأرض وينشق من الوسط وتنسكب أحشاؤه كلها.
وبينما كانت هذه الحوادث تدور كان رؤساء الكهنة والشيوخ يتشاورون فيما بينهم. ماذا يفعلون بالثلاثين من الفضة التي طرحها يهوذا في يأسه، فاتفقوا أن يقتنوا بأجرة الإثم حقل الفخاري ليكون مقبرة للغرباء الذين يموتون في أورشليم، وألا نرى في هذا العمل لمحة مما فعله المسيح إذ نستريح في سلام؟ أما هذا الحقل الذي اقتنوه بآجرة الإثم فأطلق عليه بالأرامية (حقل دما) أي (حقل الدم)، وبذلك جعل تذكاراً للتلميذ الهالك ولجريمته الشنعاء، لينادي للعابرين بهذه الكلمات: (كل من داس دم ابن الله لا تبقى له بعد ذبيحة عن الخطية). ليت كل من يسلم نفسه للمسيح يفعل ذلك بغير تحفظ، وليت كل من يريد أن يتبعه يسير وراءه بدون تنكر، وكل من أخذ في زلة ليسرع إلى عرش النعمة بلا تأخر، وليت كل من أحس بسلطان الخطية لا يكف السهر

والصلاة حتى تنكسر شوكتها برحمة ذاك الذي سحق رأس الحية.

(٢٥) المسيح أمام بيلاطس

أشرق الصبح، وطلع نهار يوم من أخطر الأيام الحافلة بالأحداث الحاسمة في تاريخ العالم، والمدينة المقدسة في هرج ومرج على غير المعتاد، وفي موكب صاخب مضى أعضاء السنهدريم وفي أيديهم أسير حكموا عليه بالموت، قاصدين السلطة الرومانية ليستصدروا منها غصباً تصدقاً للحكم الذي أجمعوا عليه. ترى من هذا الذي يجرونه بعنف؟ إنه بعينه ذلك الإنسان الذي استقبلوه بالحفاوة في هذه المدينة، وهم نفس الشعب الذي تعالت هتافاته، وارتجت المدينة في استقباله بصورة لم تحدث قط من قبل. إنه رئيس السلام الذي يستحق السجود والإكرام هو الذي يوثقونه هكذا كمجرم وقد لحق به هذا العار! ولكن هذه الآلام المبرحة الظاهرة في الجسد التي تحملها رب المجد لم تكن إلا انعكاساً باهتاً للآلام الرهيبة التي كان يعاني منها خفية، وهؤلاء الجند الذين يحيطون به بسيوفهم وحرابهم هم فقط قليل من كثير، إذ كانت هناك قوة أخرى خلف المنظور بقيادة الشيطان نفسه، فإننا نعلم أن المسيح اجتاز الآلام التي كنا نستحقها وكان علينا أن نحتملها نحن بسبب خطايانا، فما أعظم العطية والبركة التي نلناها في الحمل المذبوح لأجلنا! وهل كثير عليه أن نصرف الحياة كلها في سجود دائم وتمجيد لاسمه؟!

جاءوا بالرب يسوع إلى بيلاطس الحاكم الروماني، وهكذا يسمح الله القادر على كل شيء أن تتكاتف الظروف معاً

ليشترك العالم له ممثلاً بكل طوائفه في الحكم على القدوس البار، ومن ثم يصبح موته جريمة عامة صادرة عن الجنس البشري قاطبة ليستد كل فم أمام كرس الدينونة، وبذهابهم بالرب إلى بيلاطس تم حرفياً ما سبق وأنبأ الرب به عندما تكلم عن آلامه: "هَا نَحْنُ صَاعِدُونَ إِلَى أُورُشَلِيمَ، وَابْنُ الإِنْسَانِ يُسَلَّمُ إِلَى رُؤَسَاءِ الْكَهَنَةِ وَالْكَتَبَةِ، فَيَحْكُمُونَ عَلَيْهِ بِالْمَوْتِ" (متى ٢٠: ١٨). ونرى الآن هذه النبوة تتم، وبذلك ملأ إسرائيل مكيال خطيتهم، وللمرة الثانية يسلمون أخاهم يوسف لأيدي الغلف الغرباء، وبهذا العمل كانوا في نفس الوقت يعبرون في رموز عما سيصيبهم أخيراً، ويرسمون بأيديهم صورة المصير الذي ينتظرهم. إن خلاص العالم المدبر لأجلهم أولاً تحول إلى الأمم بسبب جحودهم، أما هم فقد تركوا من ذلك الحين يتعثرون في وادى الظلمة والموت. ويصل الموكب إلى دار الولاية، ويمسكون بأسيرهم ويدفعونه بوقاحة إلى الداخل، ولم يدخلوا هم إلى دار الولاية لكي لا يتنجسوا فيأكلون الفصح، ولم تكن فكرتهم تتفق مع الفهم الصحيح للناموس الإلهي، ولكنهم أطاعوا فرائض معلميهم التي ابتدعوها من وحيهم الخاص، والتي كانت تقرر أن دخول بيت فيه مختمر ينجسهم خاصة وإن كان بيتاً أممياً، ولكنهم لا يكترثون إن كان أسيرهم يتنجس هكذا، فيدفعون به إلى داخل البيت الذي اعتبروه غير طاهر وبذلك يعدونه كالوثني والعشار ينبغي أن ينبذ من رعوية إسرائيل. لكن كل هذا قد حدث لتصبح وظيفة المسيح كوسيط عن الخطاة واضحة كل الوضوح، ولكي يرى كل إنسان أن المسيح قد وضع عليه كل ما كان سيأتي بنا إلى الدينونة.

ولكن ماذا عسانا أن نصف مسلك اليهود الذين امتلأوا بخمير الشر والخبث، ففي الوقت الذي يلقون فيه أيديهم الآثمة على القدوس ابن الله الوحيد في غير حساب للضمير نراهم يسلكون وكأنهم في غاية التدقيق، ويمتنعون أن يدخلوا بيت وثني غير مقدس لكيلا يتنجسوا بالخمير الذي لا يمكنه أن ينجس. وياله من مثل حي يبرهن به هؤلاء "قُبُورًا مُبَيَّضَةً" (متى ٢٣: ٢٧) على الحق الذي ورد في كلمات الرب، وهو أيضاً تفسير يقدمونه لنا عن الكلمات التي قالها الرب: "أَيُّهَا الْقَادَةُ الْعُمْيَانُ! الَّذِينَ يُصَفُّونَ عَنِ الْبَعُوضَةِ وَيَبْلَعُونَ الْجَمَلَ" (متى ٢٣: ٢٤). إننا نصادف هذا النوع في كل الأوساط حتى بين المدعوين مسيحيين، فمن منا لا يعرف أشخاصاً في تدقيقهم يمتنعون عن المسرات العالمية وبكل حرص يتجنبون التعامل مع أهل العالم، ومع ذلك يعيشون مع العالم في كل فنون الرياء والنفاق، وبلا شفقة يدينون الآخرين ويسعون بالنميمة البغيضة؟

ويبدأ بيلاطس في الاستفسار عما حدا باليهود أن يدفعوا أسيرهم بعنف داخل دار الولاية وهو لا يريد أن يظهر ضجره بل يحاول تجاهل الأمر، وبكرم أخلاق مصطنع يخرج إليهم ليستفسر عن سبب مجيئهم، ويضع في اعتباره أنه إنما يتعامل مع يهود ضيقي الأفق والتفكير، ويرى أنه مما يتفق مع دمائة خلقه وعظمة كرسيه أن يحتمل تعصبهم. (فخرج بيلاطس إليهم وقال أية شكاية تقدمون على هذا الإنسان؟) وهو يتظاهر بعدم المبالاة، وكان في إمكانه أن ينظر إلى الأمر بغير تعصب وليس كما فعل اليهود، وبعد كل ما وصل إلى سمعه عن الناصري كان يجب أن يشك في مقدرة اليهود على تقديم أية تهمة صادقة ضده. فأجاب اليهود على

سؤال الوالي بعجرفة، ولم يكن جوابهم يتفق مع العقل السليم: (لو لم يكن فاعل شر لما كنا قد سلمناه إليك). وفي هذا الجواب الوقح يظهر جنوحهم وعنادهم ضد الرومان المكروهين، وهذا هو تمرد العبيد المذلين وغضب الذئاب في أقفاصها الحديدية، وهنا نلمس أيضاً جنوح الفريسية ظاهراً في الكهنة والشعب، لأنه على الرغم من أنهم كانوا يسعون إلى قتل البريء وتنفيذ أعمال الشيطان، ولكن مادامت هذه الأعمال صادرة عنهم فلابد أن تكون صحيحة لا ذنب فيها ولا جريرة، وهذا ما تفعله الكبرياء. ولا يجب أن يفوتنا أن نعرف أنهم أرادوا بأسلوبهم المتعجرف أن يخفوا اضطرابهم وحيرتهم التي أغرقوا أنفسهم فيها، ولم يكن لديهم شيء يمكنهم على أساسه أن يقدموا تهمة مدعمة بالأدلة ضد أسيرهم، ولذلك فقد ظنوا أن الجسارة التي ألصقوها بجباههم وهم يقدمون دعواهم ستعوض عن النقص في الأدلة والحجج ضد يسوع. ويترك بيلاطس لهم الفرصة أن يريعوه بنظراتهم المتجهمة، وبذلك يخطو الخطوة الأولى في ذلك الطريق الزلق الذي سنراه فيه محمولاً ليرتكب جريمة تلو الأخرى ضد إرادته، ليصل في النهاية إلى وهدة الهلاك الأبدي. (فقال بيلاطس خذوه أنتم واحكموا عليه حسب ناموسكم). يا له من مسلك مشين من قاضٍ وظيفته أن ينفذ القانون ويقر العدالة في الأرض! إننا نراه من البداءة لا يكترث إن كان يسوع يعيش أو يموت، ولكن كل ما كان يسعى إليه ألا يأتي عليه دم إنسان يشهد ضميره ببراءته. (خذوه أنتم واحكموا عليه حسب ناموسكم) يود الوالي الوثني بسرور أن يتنصل من الاشتراك في جريمة قتل البار القدوس الذي سلمه اليهود إليه، ولكنه سوف لا ينجح ولن يصل إلى غايته من

هذا الطريق الذي يسلكه الآن، فينبغي عليه إمّا أن يعلن براءته جهراً وإمّا أن يقف ضده، ينبغي عليه إمّا أن يقف في جانب القدوس واضعاً كل الاعتبارات الخاصة جانباً، وإمّا أن يعلن قبوله وتصديقه على أبشع جريمة دموية عرفها التاريخ. وهكذا الحال معنا، فما أقصر الفرصة التي أمامنا لتحدد موقفنا كما كان الحال مع بيلاطس، إن يسوع يشهد بوضوح لضمائرنا أنه هو الرب، ليس لنعبر عنه في هدوء بمجرد تحية عابرة، فإن كنا نريد أن نفترق عنه فليس أمامنا إلا أن نعلن رفضنا بوضوح: (لا نريدك أن تملك علينا). ليت الله لا يسمح أن تكون هذه حالتنا، ولكن ليقوينا لنصرخ مع توما: (ربى وإلهي). وأغلق اليهود طريق الخروج في وجه بيلاطس بجواب كان يجب أن يجعله يشعر بالعار الشديد، فقالوا: (لايجوز لنا أن نقتل أحداً)، وكان بيلاطس يعلم ذلك جيداً، وقد أوقعه ذلك في حيرة شديدة وارتباك واضح لم يستطع الرجل أن يخفيه، إنه وهو القاضي الأعلى يسمح لليهود أن ينفذوا عملاً من أعمال العدالة ليس لهم الحق فيه كما كانت تقضي بذلك القوانين الموضوعة. إن هذه المحاولة الحمقاء للهروب من المأزق قد أُحبطت تماماً كما كان مقدراً لها، ولكنه أمر مفجع بالحق أن نرى الظروف تتلاقى معاً وتتفق بهذا النظام وتتكاتف بعضها مع بعض ليظهر وكأن بيلاطس كانت تُجر قدمه ليكون شريكاً لليهود في جريمتهم الدموية، وهذه نتيجة حتمية طالما أنه لا يستطيع أن يصمم أن يعطي قلبه ويقدم السجود ليسوع، مثل كل إنسان يقاوم في عناد وإصرار دعوة الله لنوال الخلاص فيملأ مكيال خطاياه ويعجل نضوجه للهلاك.

(٢٦) الدعاوي

ويتقدم الرؤساء اليهود وهم يتمالكون أنفسهم أكثر ويعرضون شكاياتهم ضد يسوع محاولين أن يؤثروا على الوالي الروماني ليدفعوه إلى تأييد الحكم الذي أصدروه عن يسوع بالموت، وهم يعلمون أن الوالي ضعيف كما أنه متكبر ومتشامخ، فضلاً عن حرصه على أرضاء سيده القيصر، فركزوا هجومهم على هذه الناحية الضعيفة. ولم يفكروا أن يعيدوا أمام هذه المحكمة الوثنية تكراراً الدعاوي التي نجحوا في إقامتها ضد يسوع أمام السنهدريم اليهودي، وبدلاً من أن يوردوا تهماً دينية قدموا أمام بيلاطس شكاوي سياسية متهمين الرب بتهمة مثلثة وجهها إليه خصومه وأعداء ملكوته، وهي تستحق الفحص الدقيق حتى لو حدثت في هذه الأيام.

أما التهمة الأولى التي وجهت إليه فهي هذه: (وجدنا هذا يفسد الأمة)، ويقصدون بذلك أن يقولوا: (إن هذا الإنسان يعمل على التقليل من أحترام الشعب للسلطات)، ولكن لكي يقدموا تهمة كهذه لابد من توفر ولو ظل للحق، وهذا وجدوه في الموقف الذي اتخذه يسوع تجاه الكهنة والكتبة، فبالنسبة للكهنة لم يُعلم الرب تلاميذه أن يضعوا ثقتهم فيهم كوسطاء حقيقين عنهم أمام الله، أو أن يجعلوا من ذبائحهم أساس تبريرهم أمام الله، وإن كان بهذا قد قلل من السلطة التي كانت لأبناء هرون فهو لم يفعل أكثر من أنه قد وضعهم في المكان الصحيح المعيّن لهم من قبل الله. ولكنه لم ينكر على الكهنوت اليهودي سلطانه كمحفل إلهي ولم يرفض أن يقدم له الاحترام والخضوع الواجب له. فطالما أن يسوع لم يتمم بعد كل مطاليب دعوته الكهنوتية العليا، وطالما أن

ذبيحة الفداء العظمى لم تقدم بعد على الصليب كان الرب يقدم كل احترام للكهنوت اللاوي لأنه مرتب من الله، ولم يكن فقط يزور الهيكل ويشترك في الأعياد اليهودية المقدسة ولكنه أيضاً خضع في طاعته لكل الشرائع الموسوية التي أوصى الرب بها من الختان والتقدم للهيكل حتى أكل خروف الفصح. وليس هذا فحسب ولكن لم يفته أن يوصي ويُعلم بضرورة إتمام الواجبات الدينية، وهكذا أمر الأبرص الذي شفاه أن يمضي ويُرى نفسه للكاهن ويقدم القربان الذي أمر به موسى في مثل هذه الحالات.

أما الدعوى الثانية التي أقامها اليهود ضد الرب يسوع فهي أنه (يمنع أن تعطى جزية لقيصر). وفي الحقيقة أنهم لم يستطيعوا أن يبتدعوا تهمة زائفة لا تقوم على أساس مثل هذه، ونحن مضطرون للاعتقاد أنهم فكروا فيها لأنهم كانوا لايزالون متوجعين من جراء الهزيمة التي لحقت بهم على يديه عندما حاولوا أن يمسكوه بتصريح يدل على عدم ولاء، ويذكر لوقا البشير هذا الحادث في (ص٢٠) عندما طلب رؤساء الكهنة والكتبة أن يلقوا الأيادي على يسوع ولكن ضميرهم الشرير جعلهم يخافون الشعب، فالتجأوا إلى الخداع والدهاء لينفذوا ما لم يجسروا عليه بالقوة، متسترين بمظهر البراءة والرغبة في استقصاء الحقائق، ولأجل هذا الغرض أرسلوا جواسيس يحاولون أن يمسكوا كلمة ليكون لهم أساس شكلي لتسليمه للسلطات المدنية، وجاء الرسل المرتشون إلى المخلِّص في ثياب الخضوع والاحترام وسألوه بمظهر الأبرياء الذين يقصدون المعرفة: "فَلَمَّا جَاءُوا قَالُوا لَهُ:«يَا مُعَلِّمُ، نَعْلَمُ أَنَّكَ صَادِقٌ وَلاَ تُبَالِي بِأَحَدٍ، لأَنَّكَ لاَ تَنْظُرُ إِلَى وُجُوهِ النَّاسِ، بَلْ بِالْحَقِّ تُعَلِّمُ طَرِيقَ اللهِ. أَيَجُوزُ أَنْ

تُعْطَى جِزْيَةٌ لِقَيْصَرَ أَمْ لاَ؟" (مر ١٢: ١٤). لقد نصبوا له الشرك بدهاء ولكنهم أُمسكوا في حبائله، وسرعان ما أبصر الرب الفخ ونزع عنهم قناع الرياء الذي تنكروا به: (لِمَاذَا تُجَرِّبُونَنِي؟) وطلب منهم أن يقدموا له ديناراً ثم سألهم: (لِمَنْ هذِهِ الصُّورَةُ وَالْكِتَابَةُ؟)فأجابوا وقالوا: (لِقَيْصَرَ)، فقال لهم: (أَعْطُوا مَا لِقَيْصَرَ لِقَيْصَرَ وَمَا ِللهِ للهِ). ويخبرنا الكتاب أنهم لم يقدروا أن يمسكوه بكلمة قدام الشعب وتعجبوا من جوابه وسكتوا. "لِتَخْضَعْ كُلُّ نَفْسٍ لِلسَّلاَطِينِ الْفَائِقَةِ، لأَنَّهُ لَيْسَ سُلْطَانٌ إِلاَّ مِنَ اللهِ، وَالسَّلاَطِينُ الْكَائِنَةُ هِيَ مُرَتَّبَةٌ مِنَ اللهِ، حَتَّى إِنَّ مَنْ يُقَاوِمُ السُّلْطَانَ يُقَاوِمُ تَرْتِيبَ اللهِ، وَالْمُقَاوِمُونَ سَيَأْخُذُونَ لأَنْفُسِهِمْ دَيْنُونَةً. فَإِنَّ الْحُكَّامَ لَيْسُوا خَوْفًا لِلأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ بَلْ لِلشِّرِّيرَةِ. أَفَتُرِيدُ أَنْ لاَ تَخَافَ السُّلْطَانَ؟ افْعَلِ الصَّلاَحَ فَيَكُونَ لَكَ مَدْحٌ مِنْهُ" (رومية ١٣: ١ـ ٣).

وفي تعاليم المسيح لا نجد تشيجيعاً للعصيان والثورات، وهو يتوعد بالدينونة كل من يقاوم السلطات الكائنة، مهما كانت، كما لو كان ذلك عصياناً ضد جلاله هو، وهو يوصينا في كلمته أن (نخضع لسادتنا بكل هيبة، ليس للصالحين المترفقين بل للعنفاء أيضاً).

والدعوى الأخيرة التي أقاموها ضد الرب يسوع أنه قال عن نفسه إنه (مسيح ملك)، وهم يريدون أن ينظر بيلاطس إليها من وجهة نظر سياسية. لقد حاول اليهود بالقوة أن ينصبوه ملكاً، أرادوا أن يحملوه على الأكتاف وأن يقدموا له له السجود ويكللوه بتيجان المجد، ولكنه في كل مرة أحس بحركة من هذا القبيل كان يخرج من بين الجموع ويختفي، وعندما ظهرت في تلاميذه أفكار مماثلة تختص بالملكوت الذي جاء ليؤسسه لم يتأخر عن أن يوبخهم بشدة لكي

ينقيهم من أخطاء مثل هذه ولكي يضع أمامهم الحق أن ملكوته لا يأتي بمراقبة ولكنه داخلهم. واليهود أنفسهم كانوا على يقين أن المسيح كان دائماً بعيداً عن هذه الفكرة، ولم يكن في قصده أن يؤسس مملكة بحسب فكرهم، وهذا الأمر بالذات هو الذي ضايقهم وأثار غضبهم أكثر من أى شيء آخر وجعلهم يكنون الحقد والكراهية له، ومع ذلك نراهم يصلون إلى هذا الحد من الوقاحة فينسبون إليه أمراً حاولوا هم أنفسهم عبثاً أن يقنعوه به. ولكنه كما أنها حقيقة أن المسيح لم يأت ليؤسس ملكوتاً أرضياً فهي حقيقة أيضاً أن سلطانه سيمتد سريعاً على كل ممالك العالم، وسيأتي ملوك الأمم والرؤساء ليطرحوا تيجانهم وصولجاناتهم عند قدميّ يسوع ليستردوها ثانية كمنحة وعطية من ملك الملوك، والشعوب الذين استناروا ورجعوا إلى راعي نفوسهم وأسقفها سيخضعون بسرور وولاء لحكم لا يرى فيه سوى القيادة المترفقة من رئيس السلام العظيم، وستسن الشرائع على أساس كلمة الله الحي، وسيبني إقتصاد البلاد على أساس الإنجيل، وستُقدم التقدمات طواعية بدافع المحبة الخالصة، (تطبع السيوف سككاً والرماح مناجل) ولا يوجد شيء لا يقوم على أساس أكثر من هذه الدعاوى التي أقيمت ضد الرب أمام بيلاطس. (صدّيق وعادل هو) إثم لم يوجد في شفتيه، تكتمل فيه كل فضيلة وهو من هذه الناحية قد ترك لنا مثالاً لنتبع خطواته.

(٢٧) مسيح ملك

بعد أن استمع الحاكم إلى شهادات الكهنة ورؤساء اليهود نراه يعود ثانية إلى داخل القصر ويأمر بإحضار يسوع أمامه،

فيمثل القدوس المتألم صامتاً أمام القاضي، ويبدو هذا الروماني لا يستطيع أن يتحاشى الشعور بالاحترام نحو هذا الشخص العجيب. ويبدأ بيلاطس فحصه بالسؤال: هل أنت ملك اليهود؟ ويبدو أنه نطق بهذا السؤال في نغمة هادئة رقيقة وهو متيقن تماماً أن جواب المسيح سيكون: (حاشا لي من قبل الله أن أسعى لهذه الأمور العالية). وكم كان بيلاطس يود أن تكون إجابة الرب على هذا النحو ليكون له مستند قانوني يرفض على أساسه دعاوى اليهود الكيدية، ومن جهة أخرى لكي يتخلّص من الناصري الذي كان يعلم تماماً ببراءته. ولكن يسوع لا يجيب عن سؤاله بالنفي كما كان يرغب بل على العكس يؤكد صحته بعد أن ينقيه من الأفكار الخاطئة التي كان الحاكم قد تشبع بها عن طبيعة ملكوت المسيح. فيجيب الرب على سؤال الوالي قائلاً: (أمن ذاتك تقول هذا أم آخرون قالوا لك عني؟). وجاءت هذه الكلمات لتذكر القاضي بواجبه، إنه لا يليق به أن يصدر حكمه على أساس أمور مشتبه فيها كما هو الحال في الاتهام المقدم من اليهود والذي كان يحمل بوضوح طابع الزور والبهتان. لقد كان المخلَّص يقصد أن يقول له: (لا يمكنك أن تقول ذلك من ذاتك، وإذ أنك تعلم سيرتي، وأنك مقتنع تماماً ببطلان إتهام اليهود، فكيف يتفق مع شرف مهنتك أن تنزل لتفحص تهمة باطلة لا تقوم على أساس، وهي في نفس الوقت على درجة من الخطورة؟).

وهناك أيضاً معنى أعمق في كلمات الرب يمكن التعبير عنه هكذا:

(هل يهمك أن تعرف الحقيقة فيما يختص بأنني ملك وما هي طبيعة مملكتي، أم أن ما دفعك للاستفسار هو كلام

الغير؟). ولو كان بيلاطس قد أجاب عن السؤال الأول بالإيجاب لكانت تلك اللحظة ساعة خلاصه الأبدي، ولكن جوابه جاء بطريقة لم تحفز المخلَّص أن يدخل معه إلى عمق أسرار ملكوته. إن سؤال الرب لا يزال يقدم لكل واحد بمعنى ما، فمن الأهمية القصوى، إن كنا نستقصى حقائق ملكوت المسيح، أن نأتي بدافع أو بشعور داخلي بالحاجة إلى المعرفة فإن أولئك الذين يقتربون إلى الرب ويطلبون كلمته بدافع داخلي وهم يقصدون خير نفوسهم لابد أن يروا (الملك ببهائه) ويعرفوا سر التقوى العظيم.
لم يخطىء الوالي كلية في فهم كلمات الرب رغم عمق معانيها وأحس بوضوح أن يسوع يريد أن يؤثر على نفسه وأن يحفزه ليكون جاداً في معرفة حقائق ملكوت المسيح، ولكن لا يكاد يفطن لقصد الرب حتى يتجنبه ويتحاشاه بلباقة وسرعة خاطر، فيجيب قائلاً: (ألعلي أنا يهودي؟ أمتك ورؤساء الكهنة أسلموك إليّ، ماذا فعلت؟) ومن هنا نرى كيف يحاول بيلاطس بكل حيلة أن يتنحى بعيداً، وكأنه قد خاف لئلا يقوى تأثير الهيبة والرهبة الذي عكسته هيئة يسوع على نفسه، فيتمكن منه في النهاية (ألعلي أنا يهودي؟) وبهذا يعني أن يقول: (هل تتوقع أن أعير اهتماماً إن كنت أنت حقيقة المسيا الموعود به أم لا؟ فماذا يعنينا نحن أهل روما بما ينتظره اليهود؟) ويدرك الرب بسرعة أن الوالي لا يريد أن يعطي أذناً صاغية لإيضاحات أكثر، ومن ثم يكتفي أن يلقي ضوءاً على الاتهام الذي وجهه إليه اليهود فيقول: (مملكتي ليست من هذا العالم، لو كانت مملكتي من هذا العالم لكان خدامي يجاهدون لكي لا أسلم لليهود، ولكن الآن ليست مملكتي من هنا). وإياك أن تعبر بغير أن

تلاحظ كيف يختار الرب ألفاظه بدقة وهو يفند التهم التي وجهت إليه لئلا يختفي شيء من الحق بمجرد حذف كلمة، فلا ينكر الرب أنه جاء لكي يؤسس مملكة، ويتكلم عنها صراحة أنها مملكته، ولكنه فقط يبعد الشبهات التي لا تستند إلى الحق والتي رماه اليهود بها أنه كان يعمل على قلب السلطات الكائنة ليؤسس نظاماً سياسياً جديداً. ولو كان هذا غرضه كما يقول هو (لكان خدامي يجاهدون لكي لا أسلم إلى اليهود) إنه لا ينفي أن مملكته ستعلن سيادتها على العالم كله في النهاية وإلا كان قد أنكر الكثير من الحق، ولكنه فقط يعلن أن مملكته ليست من هذا العالم وبذلك يعلن بصراحة ـ إذ يضع اهتماماً خاصاً على كلمة (هذا) ـ أن عالماً آخر غير هذا العالم الحاضر سيرى بكل تأكيد شيوخه جالسين على العروش وكلمته وإنجيله هما دستور الشعوب كلها. ويجب أن نلاحظ بنوع خاص أن كلمة (الآن) في العبارة (الآن ليست مملكتي من هنا) تشير إلى حقبة من الزمن ستحتل فيها مملكته مكاناً يختلف تماماً عما هي عليه الآن. وينصت بيلاطس لحديث الرب في دهشة واستغراب، ويعمه شعور القلق بسبب شخصية المتهم وهو لا يستطيع أن يمنع إحساساً بالاحترام من (نحوه) فيقول: (أفانت إذاً ملك؟) كنا نظن أنه يقول له: (إنني أرى بوضوح أنك لست ملكاً) ولكن يبدو أنه كاد يقتنع أن يسوع هو بالحقيقة ملك، وإن كان بمعنى آخر غير الذي اتهمه به اليهود. ونفس الموقف يتكرر من الكثيرين في هذه الأيام، إنهم يحسون أن يسوع في طبيعته ينفرد عن البشر، ومع ذلك يستمرون في عدم إيمانهم ولا يريدون أن يصلوا إلى معرفة صحيحة لشخصية المسيح، وفي قرارة نفوسهم يتردد سؤال بيلاطس مرة

أخرى: (أفأنت إذاً ملك؟) ورغم ذلك يعملون على تحصين أسوار الشك وعدم الإيمان ولا يبقى أمامهم إلا أن يخمد صوت الحق المتكلم فيهم لأن معرفة المسيح كملك ستكلفهم فقدان البهجة التي يجدونها في خدمة العالم.
ياله من جواب أجاب به الرب على سؤال بيلاطس: (أنت تقول إني ملك، لهذا قد ولدت أنا ولهذا قد أتيت إلى العالم لأشهد للحق، كل من هو من الحق يسمع صوتي) إن يسوع إذاً ملك، إنه بنفسه يعلن ذلك جهاراً ولم تستطع الآلام التي كان يحتملها ولا العار الذي لحق به أن يمنع إلى لحظة إحساسه بالعز والجلال الإلهي.
ليتكم، يا من أنتم إخوة لنا في الرب وأنتم في أشد حالات الضعف الجسدي وفي الضيقات المتنوعة التي تجتازون فيها، ليتكم لا تفقدون احساسكم ببنوتكم لله، فالمسيح ملك ومن ثم فإنكم لستم تتبعون خرافات وأوهاماً أنتم الذين ترتدون زيه وقد وضعتم حياتكم ومستقبلكم بين يديه، وأنتم قد تبررتم ليس بسبب شهادتكم عن مملكة المسيح بل لأنكم قد ودعتم الشك إلى الأبد من جهة انتصار ملكوته أخيراً وامتداد سلطانه سريعاً على ممالك العالم، رغم أن مملكته ليست من هذا العالم كما يعبر هو عن ذلك بقوله: (الآن ليست مملكتي من هنا) أى أنها ليست من أصل أرضي. وجميل أن نلاحظ كيف يقود الرب الوالي بغير أن يشعر وينتقل به من مركزه كملك إلى الشهادة التي لأجلها جاء ليشهد للحق، وكان الرب يهدف من ذلك أن يلمس الوتر الذي قد يكون أول ما يردد صدى الإنجيل. لقد كان الروماني التائه عن الحق يستفسر هو الآخر عن الحق، وهذا يدخل ضمن البحوث اليونانية التي يعني الرومان بدراستها

واستقصاء الحقائق عن خصائص الطبيعة البشرية، وحسن ما قاله أحدهم في هذا الصدد: (إن يسوع أراد أن يصطاد بيلاطس بالموضوع الوحيد الذي به فقط يمنكه أن يؤثر عليه) وهكذا نرى الرب يتقدم بحكمة وهو يمارس عمله الرعوب في روح التقوى واضعاً في اعتباره الحالة الداخلية لكل نفس يسعى لخلاصها.

(٢٨) ما هو الحق؟

قال الرب: (كل من هو من الحق يسمع لصوتي) فقال له بيلاطس: (ما هو الحق؟) ويرى البعض أن سؤال بيلاطس ينم عن تهكم خفيف ويرى الآخرون أنه تعبير عن الإعراض الكامل عن الدين، لكن كلا الرأيين لا يتفقان مع شخصية الرجل، فكلماته عميقة وعلى جانب من الخطورة، وهي تلقي ضوءاً على حالة جيل كامل والأفكار التي تجول في خاطر الآلاف من أبنائه. ويقف بيلاطس أمامنا كمثال حقيقي عن التقدم الفكري في جيله، وقد عكس مظهر المسيح تأثير غير عادي على هذا الوثني متكلماً إليه عن عالم آخر وعن مملكة سماوية ثم عن حق قد ظهر ينبغي أن يبحث عنه ويعرفه. ويتفوه بيلاطس بقوله المشهور (ما هو الحق؟) وبهذه العبارة يكشف لنا هذا الوثني المهذب في جيله ـ وهو واحد من خيرتهم ـ عما يدور في نفسه. وسؤال بيلاطس يزيح الستار عن فيلسوف من مذهب (اللاأدرية) الذين يؤمنون أن استقصاء الذهن البشري للحقائق لا يؤدي إلا إلى نتائج عكسية، مما يعزز الرأى أن بيلاطس بنفسه قد انشغل بما توصل إليه حكماء العالم وقد توصل من دراسته أنه لا يمكن إدراك الأمور التي تقع وراء المنظور والمحسوس، ومن ثم كان

قوله (ما هو الحق؟). ونلمس أيضاً من سؤال بيلاطس كبرياء المواطن الروماني التي فاقت الحد. فقد كان الرومان يظنون أنهم فوق كل أمم الأرض ـ وخاصة اليهود ـ من حيث الثقافة والمعرفة، وكأنه كان يريد أن يقول: (هل تظن أنني وأنا الروماني الشريف الجنس سأطلب المعرفة من معلم يهودى؟). ولكن النغمة السائدة في سؤال بيلاطس تحتمل معنى آخر. فكلماته تنم عن حزن وكآبه نفس، بل وأيضاً عن يأس خفي في القلب، لأنه إذ يعتقد في نفسه بوجود عالم فوق النجوم لا يستطيع أن يدفع عنه الرغبة والإحساس بضرورة الاهتمام بذلك العالم. وتعبر فوق بيلاطس موجة من الحزن وهو يجد نفسه تائهاً في فراغ عدم الإيمان المخيف. وكلما تكرر في مسمعي سؤال بيلاطس يبدو لي وكأنه لم ينطق به منذ تسعة عشر قرناً وإنما في وقتنا الحاضر معبراً عن حالة الكثيرين من فلاسفة العصر، بل إن السؤال كما يصدر من أفواه معاصرينا مُلام ومدان أكثر مما هو على فهم بيلاطس الذي لم تر عيناه ما نراه نحن الآن، لأن يسوع لم يكن قد مجد بعد، ولم يكن قد سكب الروح القدس في الأعالي، ولم يكن صرح كنيسة المسيح قد تشيد بعد. ولكن بعد أن تم كل هذا فإن الإنسان الذي يرجع ويتخذ موقف بيلاطس الوثني إنما هو من أبناء إبليس، لأن عدم الإيمان هنا صادر عن إرادة شريرة معاندة تعرض عن النور. لربما نشعر بإحساس الشفقة والعطف نحو بيلاطس أما من جهة المتشككين في عصرنا الحاضر فلا يبقى لهم سوى (قتام الظلام إلى الأبد).

(ما هو الحق؟) يسهل الوصول إليه بمجرد البحث عنه بشغف واهتمام. يوجد الكثيرون ممن يسعون لاستقصاء

بعض الحقائق المعينة لكنهم يعطون ظهورهم لحق الإنجيل حينما يصادفهم. إنهم يسرون عندما يصلون إلى حل لعدد كبير من المسائل العويصة في الطبيعة وفي حياة الإنسان. إنهم يهتمون بالجدل حول خلق الكون والخلود بعد الموت ونوع الحياة بعد القبر ولكنهم يعرضون عن الحق كما هو في يسوع، ويسعون بكل وسيلة أن يتحاشوه ويتجنبوه... منذ سنين عديدة مضت ظهر إنسان على الأرض لم يستطع أحد أن يبكته على خطية وأعلن عن نفسه أنه هو الحق، وقال عن نفسه إنه المسيا الذي لابد أن يخضع كل العالم لصولجانه.

لا ينبغي أن يتكرر سؤال بيلاطس (ما هو الحق؟) على الأرض مرة أخرى، لقد دخل الحق إلى العالم وهو يقيم بيننا قريباً من كل الذين يطلبونه بإخلاص، وكل فلسفة تسعى وكأنها تعمل على إصعاد الحق من العمق أو أن تأتي به من السماء ستعاقب جزاء جحودها الدنيء نحو إله النعمة بأن تترك تتلمس طريقها في الظلمة إلى الأبد، ولن تصل قط إلى نهاية لسعيها غير المثمر. إن الهدف الحقيقي للفلسفة الآن ينبغي أن ينحصر في الاهتمام بحاجة الإنسان، وأن تحاول متجردة من كل تعصب أن تختبر كفاية الحق الذي ظهر في المسيح لإشباع حاجات الإنسان الأبدية والزمنية. فإن فعلت الفلسفة ذلك فإنها سوف تضع مرساتها أخيراً، بعد طول ضلال، على شاطئ الأمان. لاشك أن كل الذين يطلبون الحق بإخلاص واهتمام لابد أن صلوا أخيراً إلى مرفأ الإنجيل، ومن ثم كان اعلان المخلَّص في ثقة ويقين: (كل من هو من الحق يسمع لصوتي).

(٢٩) حمل الله

بعد أن فرغ بيلاطس من محاودثته الأولى مع المسيح خرج إلى خارج الدار ومعه الأسير. أما عن حالة الوالي الداخلية فهي ليست مخفية عنا الآن، فقد عرفناه كإنسان لا ينقصه الاستعداد للحياة الصالحة، ولم تكن كلمات الرب التي شهد بها أمامه بلا تأثير عليه، كما أن صمت الرب ونظرته وطول أناته وتواضعه وعظمته واحتماله في وداعة الحملان وضبط النفس الذي أظهره كل هذه كان لها تأثير على بيلاطس، وقد سطعت عظمة عمانوئل بقوة على نفس هذا الروماني وتركت له حرية التصرف فيه كما يحسن في عينيه. وقد تغلب عليه تأثيره إلى حد ما وصار مضطراً أن يبرره من كل اتهام منسوب إليه وليس في إمكانه أن يتجنب الشعور الخفي باحترامه، والأكثر من ذلك إنه مدفوع أن يقف موقف المحامي والشفيع لأجل البار، وأي جلال ذاك الذي بدا على حمل الله حتى وهو في شدة آلامه وفي أحزانه التي طمت فوقه وبأي إشعاع سطع شمس البر من خلال سحب هيئته المتواضعة ليدفع إنساناً كهذا متنعماً ومحباً للعالم إلى هذا الشعور بالاحترام؟!.

وكما كان الحال مع بيلاطس هكذا لابد أن يكون مع كثيرين نظيره في هذه الأيام إن كانوا لا يلتقون بيسوع عن قرب، وأعني بهم أولئك الذين هجروا كلمة الله وانصرفوا عن الكنيسة منذ زمن بعيد وقد جرفهم تيار روح العصر وتسمموا بفيضان العصرية الغامر، وقد أعرضوا عن الدين بغير أسف وانصرفوا عن المسيح دون أن يعرفوه عن كشب وكأنه ليس سوى معلم يهودي غير منزه عن الخطأ كسائر البشر. آه لو فكروا مرة أن يقتربوا منه بعد أن يرفعوا العصابة من على عيونهم فإنني على يقين أنهم سيجدون من الصعوبة أن يستمروا في ابتعادهم عنه، كما سيجدون أنفسهم مضطرين ـ بغير أن يدروا ـ إمّا أن يقدموا السجود ليسوع مقدمين ذواتهم له من كل القلب، وإمّا أن يعلنوا بغضتهم له كمن له الحق أن يحكم عليهم بغير منازع ولكنهم لا يريدون أن ينحنوا أمام صولجانه.

ويعلن بيلاطس في صراحة أمام رؤساء الكهنة وكل الشعب: (إني لا أجد علة في هذا الإنسان)، وبذلك كان يؤكد كلمات الرسول بطرس عنه أنه (حمل بلا عيب ولا دنس)، وبلا شك أنه بعد أن قدم بيلاطس هذه الشهادة في جانب الرب كان يرغب في إطلاقه، ولكن الخوف من اليهود والقيصر وحرصه على مركزه وأسباب أخرى منعته من أن يفعل ذلك. وبعد أن شهد بيلاطس عن براءة يسوع أثار ذلك رؤساء الكهنة وأشعل غيظهم بسبب الهزيمة التي لحقتهم فانفجروا ينفثون اتهامات جديدة ضد القدّوس، وكما يقول الكتاب: (كانوا يشددون) ساكبين عليه غضبهم وغيظهم وقد تم بذلك قول إشعياء النبي إنه ظلم وتذلل لكنه لم يفتح فاه. ويسوع ساكت، وكأنه مذنب حقاً في كل ما نسب إليه. ولا يستطيع بيلاطس أن يصمد أمام العاصفة التي ترعد حوله بسبب ثورة الجمع الصاخب في فناء الدار ويكاد يتوسل إلى يسوع لكي يورد ما يدافع به عن نفسه، ولكن يسوع صامت، فينفرد به بيلاطس ويقول له: (أما تجيب بشيء، أنظركم يشهدون عليك!)، (فلم يجبه ولا عن كلمة واحدة حتى تعجب الوالي جداً).

وكيف لا يتعجب وهو يقيس سلوك الرب بمعيار البشر؟ فأي إنسان آخر في لحظة تعرض الحياة للخطر كان يورد عاجلاً كل ما يدفع عنه الاتهامات المنسوبة إليه، خاصة وإن كان له ما كان ليسوع من القوة والسلطان، لكن يسوع كان ساكتاً. أي إنسان آخر كان على الأقل يطلب أدلة عن صدق كلام خصومه، ولكن يسوع لم ينطق بكلمة. بل أي إنسان آخر في مكانه كان لابد أن يتكلم إلى ضمائر الآبرياء التي أسكنتها أكاذيب الكهنة ويثير كل شعور صالح ومستقيم في النفوس التي لم تنعس قلوبها بعد، لكن يسوع لا يطلب إلى أحد لا في السماء ولا على الأرض. آه لو علم بيلاطس من هو هذا الشخص الذي يقف أمامه في وداعة الحملان كم يكون عجبه شديداً! إنه الذي ستقف أمام كرسيه كل الملايين التي خرجت من أنفها نسمة حياة على الأرض لينطق عليهم بالحكم الأخير الأبدي. هو الذي يكيل له أبناء بليعال اليوم اتهاماتهم الكاذبة لكنهم سيقفون أمامه في النهاية في قيود اللعنة، وأمام رعد صوته سيطلبون من الصخور أن تسقط عليهم والتلال أن تغطيهم لتخفيهم من وجه الجالس على العرش ومن غضب الخروف، وهو الآن يقف بينهم صامتاً كمن ليس في فمه حجة. وهكذا نرى الرب أيضاً يلزم الصمت عندما يجدف عليه في الوقت الحاضر، وسكوته بدافع الصبر وطول الأناة، لكنه أيضاً صمت الازدراء إنهم يجدفون عليه رغم النور الذي وصل إليهم لكنه عندما سيتكلم إليهم أخيراً سيرتعدون من صوته لأنهم لم يريدوه أن يملك عليهم. والمسيح يظل ساكناً أيضاً عندما يتذمر عليه شعبه ويتضجرون من معاملاته، وهو يصمت هنا لشعوره الكامل بأنه بار في كل طرقه، ولأنه يعلم تماماً أنهم عندما يرجعون إليه

تائبين سيلثمون يديه لأنه قادهم في هذه الطريق وليس في غيرها. لكننا لم نتعرض بعد للسبب الرئيس وراء صمت يسوع وهو يواجه عاصفة الاتهام التي أثارها عليه أعداؤه، وهذا السبب يختفي في وظيفته كوسيط، إنه هو حمل الله، رئيس الكهنة العظيم، والضامن الإلهي، إنه صامت لأنه يحتمل أمام الله كل الاتهامات التي وجهت إليه، لأنه يريد أن يفي عنا ـ كوسيط ـ كل ديوننا.

(٣٠) المسيح أمام هيرودس

لم تفلح شهادة بيلاطس عن براءة يسوع في إقناع المشتكين عليه فوقفوا في ذهول وهم يحسون بالخطر الذي يتهددهم من عواقب هذه الأمور كلها، ولو كان بيلاطس قد استمر في نفس الشجاعة التي بدأ بها المحاكمة لكان ذلك قد حطم القيود التي قيدت الكثير من المشاعر الطيبة في نفوس عدد كبير من الجمع المحتشد، ولكان المسيح قد حل من وثاقه وأطلق سراحه، بل وهتفوا له من جديد (أوصنا) ولكان الشغب والتجمع الذي حدث قد جر عواقب وخيمة على رؤساء الكهنة والشيوخ. ولذلك اضطر هؤلاء أن يقفوا بكل قوتهم في وجه أي تغيير في مجرى الأمور فعادوا يصرخون مقدمين دعاوي جديدة ضد المتهم. ورغم أن الاتهامات التي أوردوها هذه المرة كانت في صراخ شديد أكثر من الأول لكنها كانت تدل دلالة واضحة على الوهن الذي أصابهم، وعوضاً عن أن ينسبوا للرب تهمة التآمر والخيانة كما فعلوا في الأول اكتفوا بالقول إنه (يهيج الشعب وهو يعلم في كل اليهودية مبتدئاً من الجليل إلى هنا). ما كان أسهل على بيلاطس أن يستغل هذه الفرصة المناسبة بحكمة وسرعة ليطلق سراح الأسير ومعه نفسه المتعبة وضميره المعذب، ولم يكن في حاجة إلا أن يشير بكلمات قليلة في رصانة واتزان إلى أعمالهم الدنيئة. وكان ذلك يكفي ليجرد أعداءه مما تبقى لديهم من شجاعة بعد أن أوشكو على التراجع ولكن الخوف قد تملك على الرجل المسيكن وخيل له وهو يسمع زئير الجمع ـ الذي لم يكن يدل إلا على الضعف ـ أن عاصفة جديدة في طريقها إليه. وعندما جاء ذكر الجليل ابتهج الرجل إذ أن ذلك بدا له مخرجاً من المأزق ومناصاً للهروب. فتساءل بسرعة: (هل الرجل

جليلي؟) وسُر إذ علم أنه من سلطنة هيرودس. وفي الحال أعطى أوامره ليمضوا بيسوع إلى هيرودس، الذي تصادف ـ من حسن الحظ ـ وجوده في أورشليم في ذلك الحين، وأحس وهو يرى الأسير يمضي ـ ومعه المتاعب ـ في حراسة رؤساء الكهنة والعسكر والجمع وراءهم وكأن جبلاً قد أزيح من على صدره.

ونحن نعلم بعض الأمور عن هيرودس أنتيباس رئيس ربع الجليل وأنه بعينه ذلك الخليع الماجن الذي كان سبباً في قطع رأس يوحنا في السجن، وكان ضميره يبكته بقسوة على هذه الجريمة الشنعاء. وعندما سمع عن يسوع وعن المعجزات التي صنعها خطر بباله أن صانع المعجزات هذا ليس سوى يوحنا الذي قطع هو رأسه وأنه قد قام من الأموات. ويؤتى بربنا المبارك أمام هذا الفاجر المستبيح الذي تجرد تماماً من كل شعور نبيل حتى لا يعفي الرب من اجتياز أي نوع من الألم، وحتى لا تبقى هناك هيئة قضائية لم يمثل أمامها. ويصل جمهور الكهنة والفريسيين الذين سممهم الحقد في ضجيج وصخب ومعهم أسيرهم إلى دار الملك الجليلي الذي بعد أن يستعلم عن سبب تجمهرهم غير المعتاد يأمر أن يؤتى أمامه برؤساء الشعب ومعهم المذنب، فيمثل يسوع أمامه في صمت ووقار. ولكن هيرودس ـ كما يقول الكتاب ـ (لما رأى يسوع فرح جداً لأنه كان يريد من زمان طويل أن يراه لسماعه عنه أشياء كثيرة وترجى أن يرى آية تصنع منه). قد يبدو غريباً أن هسرودس لم ير يسوع من قبل مع أن الرب قد أقام في الجليل مراراً كثيرة، ولكن الرب لم يشرف طبرية ـ حيث كان يقيم هيرودس ـ بزيارة على الرغم من أنه كثيراً ما كان يمر بالقرب منها، ولم يخطر قط ببال هيرودس أن يخطو خطوة واحدة ليتعرف على الناصري الذي كانت معجزاته على كل لسان وهو الذي يخلو تماماً من كل اهتمام بالأمور الدينية، كما أن كبرياءه منعته من ذلك. وإذ ذاك كان سروره عظيماً عندما تحققت له أخيراً رغبته التي اشتاق إليها كثيراً من قبل. ويلقي هيرودس على الرب نظرة فضولية، وبعد أن يتأمله من فوق إلى أسفل

يقدم له بعض الأسئلة التي تدل على الحماقة، لكن الرب لا يعطيه جواباً ويظل صامتاً. ويستمر الملك في تقديم أسئلته والمخلِّص مستمر في صمته، ويظن هيرودس أنه من اللازم أن يصنع أمامه معجزة لكن يسوع لا يجيبه إلى طلبه ويستمر في صمته ويعبر عن رفضه في صمت أبلغ من الكلام، فيشتعل غضب رؤساء الكهنة والكتبة من هذا المسلك السلبي فيبدأون حملة جديدة من الاتهامات في عنف وشدة. ولكن الرب يعتبرهم أنهم لا يستحقون جواباً ويبقى متمسكاً بصمته. وبعد أن رفض الرب أن يحقق رغبة هيرودس وحاشيته فهم أولئك الجبناء من مسلكه أنه لا يستطيع أن يصنع معجزة فابتدأوا يحتقرونه ويهزأون به، وما أبشع الإهانات التي كان يسوع أن يحتملها، وكم كان عليه أن يحتمل الكثير في محضر هيرودس وبلاطه الذين عاملوه وكأنه ساحر مشحوذ. لقد طلبوا إليه أن يعرض فنونه لتسليتهم، وآذوا أذنية بأسئلتهم السفيهة، وعندما أبى أن يجيب عليهم فاض مكيال احتقارهم واستهزائهم به.

كيف يحتمل الآب القدوس ساكن الأبد أن يرى امتهان كرامة ابن مسرته من غير أن يسكب جم غضبه على مرتكبي هذه الإهانات التي فاقت الحد! إن الرب يسوع قد احتمل هذه المعاملة المهينة ليس لأجل أي سبب آخر إلا لأنه كان في هذا الموقف وسيطاً ونائباً، ولكنكم تعلمون أنه كان هناك يقف نيابة عنا، كآدم الثاني، مثقلاً بآثامنا، (وَالرَّبُّ وَضَعَ عَلَيْهِ إِثْمَ جَمِيعِنَا ـ تَأْدِيبُ سَلاَمِنَا عَلَيْهِ). وشكراً لله لأن الأمر كان كذلك، لأنه لم يكن في إمكاني أن أدرك أن خطاياي قد رفعت عني لو لم يقل لي في نفس الوقت أين ذهبت هذه الخطايا، إذ لا يمكنني أن أصدق مطلقاً أن خطاياي الحمراء كالدم قد غفرت اعتباطاً أو أنه يمكن التجاوز عنها كأشياء تافهة لا تستحق الاعتبار. ولو أن الأمر كذلك فكيف لي أن أؤمن فيما بعد في إله عادل وقدّوس؟ إن الرب قد وقف أمام هيرودس كما فعل أمام حنان وقيافا وبيلاطس ليس فقط ليحاكم من الناس ولكن في نفس الوقت ليحاكم من الله، وإنها خطيتي التي كان يحتمل عقابها وديني الذي يوفيه. فلا عجب إذاً أنه يترك نفسه كهدف للسهام المسمومة لتخترق شغاف قلبه وأن ينصت في صمت إلى الاتهامات الكاذبة الأثيمة، وفي صبر الحملان يدعهم يقولون عنه إنه مجدف ومضل ويصفونه بالتآمر والخروج على القانون ـ وكم كان عليه أن يحتمل من الإهانات عندما تحول إعجاب هيرودس تدريجياً إلى احتقار لشخصه، وكم هي أمور يرعبنا التفكير فيها عندما يسمح رب المجد لقوم فاسقين أن يجعلوه هدفاً لاستهزائهم مع أنه في سلطانه أن يطوح بهذه الجماعة المستترة بمجرد أن يلوح بيده، ولكنه لا يحرك ساكناً ويظل

في صمته لأنه يعلم أن هنا مذبح الله وهنا النار والحطب وأنه هو الحمل للمحرقة.
وذاب الخصام العميق القديم الذي استمر طويلاً بين بيلاطس وهيرودس وتحول فجأة إلى شعور بالصداقة لما رآه الأخير من لطف عندما أرسل إليه الوالي المعلم اليهودي المتهم، فإن كان الموقف الموّحد ضد الرب يستطيع أن يحوّل عدوين لدودين إلى صديقين حميمين فكم تكون قوة روابط الألفة التي يؤلفها الحب المشترك للفادي الممجد! إنني أؤمن في شركة القديسين، فليت الرب يلهب في قلوب أولاده مشاعر الحب الأخوي الصادق بعضهم نحو بعض.

(٣١) يسوع نائبنا

مرة أخرى يجد بيلاطس نفسه في ورطة شديدة. لقد كان يأمل أن يتخلَّص من الموقف الأليم عندما نقل المشهد إلى هيرودس، ولكن على غير ما توقع عاد الرئيس الجليلي فأرسل المتهم إليه ثانية تاركاً له الفرصة أن ينهي المهمة التي بدأها. ودون أن يظهر بيلاطس ضجره بسبب الخطأ الذي حدث في تخمينه نجده يحوّل وجهه إلى المشتكين على المخلَّص ويجدد محاولته لإطلاق يسوع ومعه سلام نفسه المضطربة وذهنه المتعب. وبينما الكل في صمت في انتظار ما سيحدث يفتح بيلاطس فاه لينطق بالحكم الأخير فيعلن جهاراً أمام الجمع المتواكب: (قد قدمتم إليّ هذا الإنسان كمن يفسد الشعب وها أنا ـ وهذه نعلنها للعالم أجمع ـ قد فحصت قدامكم ولم أجد في هذا الإنسان علة مما تشتكون به عليه، ولا هيرودس أيضاً لأني أرسلتكم إليه، وها لا شيء يستحق الموت صنع منه). ويختم الوالي كلامه والصمت يسود الجميع لأنهم يعلمون أن بيلاطس إنما قد تكلم بالحق. وعلى الرغم من أن ذاك الذي لم تكن فيه خطية البتة لم يكن بأي حال من الأحوال مستحقاً للموت سواء بحكم البشر أو بحسب العدل الإلهي بسبب ما يطلق عليه (أجرة الخطية) لكنه رغم ذلك يموت، إنه يموت رغم أنه ـ كما يقضي العدالة وبحسب وعد الله ـ لا ينبغي أن يموت بل يحيا، ويموت ميته لا تشبه من قريب أو بعيد أي استشهاد. ولنلاحظ أنه إن كان قد أراد بموته أن يبرهن عن صدق مبادئه لاعتبر أنه لم يحقق رسالته، إذ أننا نتحير ماذا نقول في دعوة اضطر صاحبها أن يعترف على أبواب الأبدية. الاعتراف الخطير أن الله قد تركه. ولكن أخبروني الآن لماذا مات يسوع؟ "وَكَمَا وُضِعَ لِلنَّاسِ (الخطاة) أَنْ يَمُوتُوا مَرَّةً ثُمَّ بَعْدَ

ذلِكَ الدَّيْنُونَةُ" (عب ٩: ٢٧)، ولكن يسوع لم يكن إنساناً خاطئاً، وحتى المفديين ليس أمامهم طريق آخر إلى الوطن السماوي إلا الموت لأن أجسادهم قد تدنست بالخطية، لكن المسيح في تجده لم يرث الخطية ومع ذلك نراه يموت، ويموت ميته رهيبة، فسروا لنا كيف يكون ذلك؟ تأملوا في الأمر طويلاً، ولكن مهما طالت وتعمقت دراستكم له فإنني أنبئكم مقدماً أنكم لن تصلوا إلى حل مقنع سديد لهذا اللغز الغامض.

اسمعوا إذاً كيف يكون حكمنا على هذا الأمر واحكموا أنتم إن كان هناك مجال لغيره. إن الحقيقة الهائلة أن يسوع البار قد حُكم عليه بالموت على الرغم من أنه قدّوس وبلا عيب لابد أن تؤدي بنا إلى الشك في وجود إله بار متسلط في مملكة الناس وتدفعنا إلى الاعتقاد بأن إرادة الإنسان أو الصدفة فحسب هي التي تتحكم في مصائر البشر، وأنه لا يوجد على الأرض من قصاص وأنه لن يجازى الشرير والأثيم بغير ما سيجازى به البار، أقول إننا لابد أن ننتهي إلى نتائج كهذه إن لم يسمح لنا أن نعتبر أن ابن الله الطاهر قد جاز الموت عوضاً عنا، وثمة نظرة إلى الأمر هي المفتاح الوحيد للسر الذي يختص بالنهاية الأليمة التي كانت ليسوع القدوس البار. وإن كنا نفترض سلفاً أن المسيح قدم نفسه فدية عن الخطية كما تشهد بذلك بوضوح كلمة الله المقدسة فعندئذ يصبح كل شيء واضحاً جلياً وتختفي المتناقضات ويؤلف بينها معنى سام عظيم ويجمعها رباط مجيد. لقد حذر الله آدم في الفردوس قائلاً له: "لأَنَّكَ يَوْمَ تَأْكُلُ مِنْهَا مَوْتًا تَمُوتُ" (تك ٢: ١٧)، وقد أكلنا من ثمر الشجرة المنهي عنها وارتكبنا التعدي ولكن الابن الأزلي قد ظهر لكي يحمل عنا إثمنا فنحيا ولا نموت.

وعلى جبل سيناء تردد هذا الصوت: "مَلْعُونٌ كُلُّ مَنْ لاَ يَثْبُتُ فِي جَمِيعِ مَا هُوَ مَكْتُوبٌ فِي كِتَابِ النَّامُوسِ لِيَعْمَلَ بِهِ" (غل ٣: ١٠، تث ٢٧: ٢٦)، ولم نستطع أن نثبت في المكتوب، وتقرر مصيرنا، لكن شفيعنا قدم نفسه وتحمل اللعنة عوضاً عنا فأخلى سبيلنا وأطلق سراحنا. وقد صمم الرب أن يخلّص الخطاة على الرغم من أنه قال: "مَنْ أَخْطَأَ إِلَيَّ أَمْحُوهُ مِنْ كِتَابِي." (خر ٣٢: ٣٣)، ونحن قد تيقنا من خلاصنا لأن الرب وضع على المسيح عقاب تعدينا، لقد وعد الرب أن يعطي إكليل الحياة فقط للذين يطيعونه. ولكن بعد أن أطاع المسيح ممثلنا فإن الله يستطيع أن يهب إكليل الحياة للخطاة ويظل كما هو قدّوساً، وعلى هذا النحو فقط يتضح الأمر وتتلاقى المتناقضات معاً في انسجام، ورغم ذلك لايزال الناس في إصرارهم على عدم الإيمان بحقيقة الفداء.
وبعد أن أعلن بيلاطس بجرأة أنه لا إثم على المتهم يستطرد قائلاً (فأنا) أطلقه؟ كلا، بل (أؤدبه (بضربات) وأطلقه). لقد جرت العادة في إسرائيل أن يؤدبوا المتهمين الذين بعد الفحص تثبت عليهم تهم خفيفة ثم يطلقون سراحهم، وكان بيلاطس يريد أن يعامل يسوع كمذنب من هذا النوع، تفكروا في هذا الظلم! ونحن نود أن نقول: (كيف يصل بك الأمر إلى هذا الحد يا بيلاطس، هل تجلد الذي أعلن لك بكلمات الحق الصريح (إنى ملك، لهذا قد ولدت أنا ولهذا أتيت إلى العالم)؟ هل تجلده كأثيم وهو الذي من هيئته يشع ضياء القداسة التي لا يشوبها دنس، والذي لا تستطيع هيئته المتواضعة أن تخفي أنه الإله المتجسد؟ إلى أي حد يدفعك الخوف من الإنسان أن تتخطى الحدود، وإلى أين سيؤدي بك حرصك على الكرامة الزائفة؟!

(٣٢) يسوع أم باراباس؟

نعود لنأخذ مكاننا بين الجمع الثائر المحتشد أمام جباثا حيث جرت العادة أن تصدر الأحكام، ويحاول بيلاطس الذي أصبح الآن مقتنعاً ببراءة رجل الناصرة العظيم أن يعطي الأمر اهتماماً جديداً لأجل نفسه ويحس الوالي في أعماق نفسه بثورة كلما تصور هذا الإنسان البريء يموت موت المجرمين. الوالي غارق في أفكاره وتكاد جبهته تتوهج من شدة التفكير، وذهنه مثقل ومهموم. إنه مستعد أن يدفع أي ثمن في سبيل مشورة حكيمة تنقذه من هذه الضيقة! وفجأة تبرق له بارقة أمل، ويحس أنه اهتدى إلى وسيلة موفقة، وهذه الفكرة لم تخطر بباله عفواً بل ساقتها له التدابير الإلهية، إنها تختص بأمر اعتاد أن يفعله كل عام في عيد الفصح. فقد كان يسمح للشعب أن يختار من بين المذنبين الأشقياء أسيراً واحداً من أرادوه ليطلق سراحه من السجن وذلك كرمز لخروج آبائهم من أرض مصر ولكي تعظم الفرحة بالعيد، ويتشبث بيلاطس بهذه العادة كالوسيلة الوحيدة للخروج من المأزق، ويستعرض بسرعة في ذهنه مرتكبي الجرائم المختلفة الذين يضمهم السجن لعله يجد من بينهم مذنباً لا يمكن للشعب أن يفضله عن يسوع، وسرعان ما يظن أنه قد اهتدى إلى واحد، وبمعنى أفضل لقد دلته العناية إليه لأن هذا هو الخاطئ بعينه الذي عينه الله ليأخذ مكانه المناسب في المشهد الذي كان سيعرض حينذاك أمام أنظار العالم. ذلك الرجل هو باراباس، شرير فاقد الضمير، مجرم وسافك دماء. ويخطر ببال الوالي أنه ليس من يرضى أن الحرية والحياة تُمنحان لإنسان كهذا نبذه الجنس البشري وليس من يقبل أن يفضله عن الناصري البار. ويشعر بيلاطس في نفسه بالنجاح الذي ستلاقيه خطته، ويتقدم في شعور

بالانتصار وينادي على الجمع المحتشد في فناء الدار وهو واثق تماماً من التوفيق فيقول: من تريدون أن أطلق لكم، باراباس أم يسوع الذي يدعى المسيح؟ لأنه (علم أن رؤساء الكهنة قد أسلموه حسداً) وهذه هي الحقيقة لأن ما أثار حقد الرؤساء أنهم رأوا الجموع تتبعه. ولكن كم كان تصرف الوالي في جهالة عندما أثار هؤلاء القوم المتكبرين بقوله عن يسوع (ملك اليهود)، فقبل هذا الوقت بقليل فرشت طريقه بسعف النخل وبآغصان الأشجار وبثياب الناس وسط تهليلات الجموع، ولكن بيلاطس كان بذلك يدفعه للموت وهو لا يدري! لكن الله لابد أن يأخذ الحكماء بمكرهم الذين إذ يترفعون عن أن يسيروا بحسب كلمته وإرادته يطلبون النجاح باختراعاتهم.

لم يعد مصير المخلَّص فيما بعد في يد بيلاطس ولكن الأغلبية من الجمع تقرر وهو مضطر أن ينفذ توصياتهم، ولو توفرت لديه الجرأة الكافية أن يتصرف كما يملي عليه الضمير وأن يعلن في هدوء: (لابد أن تقرر العدالة ولو كان في ذلك هلاك العالم، سيطلق سراح الناصري البريء، وأفراد الكتيبة هنا يعلمون كيف ينفذون تعليماتي). لو كان قد فعل ذلك، لكان بهذا القول قد وبخ الخصوم ولكانوا قد انسحبوا يجرون أذيال الخيبة ولكان الشعب قد أفاق من انخداعه ولكانوا قد صفقوا بحماس للقاضي الشهم لكن بيلاطس يقف هنا مثلاً وعبرة عن عاقبة من يحاول أن يجمع بين إرضاء الحق الذي يتكلم من الداخل وفي نفس الوقت يرضي العالم الذي يضج في الخارج. ويصيح بيلاطس قائلاً: (مَنْ من الاثنين تريدون أن أطلق لكم؟). ثم يجلس على كرسي القضاء الرخامي في انتظار قرار الشعب. ويتردد الشعب في الإجابة، ولا يكاد يحس الكهنة والشيوخ بذلك حتى يندفعوا بين الجموع محاولين بكل وسيلة أن يخمدوا الشعور الطيّب الذي بدأ يستيقظ في النفوس وليشعلوا من جديد نار العداوة ليسوع. وفي هذه الأثناء يحدث أمر هام وإذا برسول يبعث به من خارج نطاق المشهد ويقف أمام الوالي برسالة من زوجته تخبره قائلة: (إياك وذاك البار لأني تألمت اليوم كثيراً في حلم من أجله) ويا له من أمر يستحق التأمل! فهو يرينا كيف أثرت حياة يسوع وأعماله في قلوب أولئك الذين هم غير مبالين به بل وأعداء له لتضطرهم أن يقدموا له الاحترام.

نعم، في الليل وبعد هدوء ضوضاء النهار، عندما يقع سبات على الناس يأتي روح الحق إلى مخادعهم ويقترب من مضاجعهم، الذين لا يكترثون بعظائم الأمور وهم لاهون في سكر وأوهام هذه الحياة، وفي الليل تهب الضمائر المغشى عليها من سباتها وتعود تسمع صوتها حتى في صدور أشر الناس. ويضطر الكثيرون أن يعترفوا مع صاحب المزمور في قوله: "جَرَّبْتَ قَلْبِي. تَعَهَّدْتَهُ لَيْلاً" (مز ١٧: ٣). وواضح أن للتدابير الإلهية يداً في الرؤيا الأليمة التي رأتها زوجة الوالي، فكثيراً ما يتحكم الرب بسلطانه في عالم الأحلام ويجعل تصورات الروح الطليقة خاضعة لإرادته. ورغم أن بيلاطس تلقى إنذاراً إلهياً جديداً عن طريق زوجته لكن الرجل كان قد رضح ولم يعد سيد الموقف، لقد أثرت فيه وصية زوجته كثيراً وهمس له ضميره المعذب: (بيلاطس، استمع للصوت الذي جاءك من عالم الرؤى والأحلام، والذي يحذرك من جريمة لا تتفق مع العدالة). لقد أتاه هذا الصوت حقيقة وقد أثار اضطرابه، ولكنه لا يزال يأمل أن يتصرف الشعب تصرفاً عادلاً. مسكين يا إنسان! هل هذا هو رجاؤك الأخير؟ ويترك الوالي مقعده في ضجر، ويعود ينادي الجمع في لهجة توسيلة: (مَنْ من من الاثنين تريدون أن أطلق لكم؟). ولكن عبثاً يتقدم بهذه التوسلات لأن الكهنة والشيوخ نجحوا في أن يكسبوا الشعب إلى صفوفهم، وإذا بالوالي السيء الحظ يسمع آلاف الأصوات تجيبه بجسارة بنفس واحدة: (ليس هذا بل باراباس).

هذان هما الشخصان اللذان قدما للشعب ليختار منهما واحداً في عيد الفصح: أحدهما قاتل للناس والثاني رئيس وواهب الحياة، الأول شرير تعس ألقى القبض عليه وهو يسفك الدماء في ثورة دموية، لكن باراباس لا يقدم لنا كمجرد فرد، لكنه يمثل في نفس الوقت الجنس البشري في حالته الطبيعية، ساقطاً في عصيانه ضد جلال الله، يرسف في قيود لعنة الناموس، محفوظاً ليوم الدينونة الرهيب، ورغم ذلك ما أكثر ما نجد الإنسان يمجد نفسه بأضخم الألقاب بينما لا يحمل في نفسه أي سمو حقيقي، ويفخر بالمراتب الشرفية بغير جدارة واستحقاق. قبل أن يُعرض باراباس مع يسوع لاختيار الشعب، كان قد انقطع أمل باراباس في النجاة من المصير المحتوم الذي ينتظره، وهذه هي حالتنا، لم يكن هناك أي أمل في نجاتنا أو في الخلاص من الجب حيث كان مغلقاً علينا، ولم يكن هناك أي أمل في حكم رحيم أفضل من مصير هذا القاتل. وصدقوني إن حالتنا لم تكن أخف وطأة من حالته، لأنه ماذا كان يمكننا أن نقدم لفداء نفوسنا؟ وكيف يبرئ قاضٍ ساحتنا بلا قيد أو شرط وهو الذي قيل "الْعَدْلُ وَالْحَقُّ قَاعِدَةُ كُرْسِيِّهِ" (مز ٩٧: ٢)؟ إن حالة باراباس كانت يائسة ولكن ماذا حدث؟ بغير أن يتدخل وعلى عكس ما كان ينتظر أو يتوقع أشرق فجأة نور الحرية فأضاء ظلمة السجن وتردد من جباثا صدى سؤال الوالي الذي قدمه للشعب: (مَنْ من تريدون أن أطلق لكم؟ باراباس أم يسوع الذي يُدعى المسيح).

ما أخطرها من لحظة! وما أروعه من تغيير في مجرى الأمور! لقد علم باراباس أنه هالك لا محالة، ولكن الفرصة الآن بين الاثنين باراباس أم يسوع، وأصبحت نجاة الأول على الأقل ممكناً حدوثها، وكيف يكون ذلك؟ ليس لشيء سوى لأن هذا القاتل والمجرم العاتي قد قدم لاختيار الشعب على قدم المساواة مع يسوع الرب من السماء، وستقع القرعة على واحد من الاثنين ليطلق سراحه، بينما يرسل الآخر إلى حيث ينفذ فيه حكم الموت، ولايمكن أن تكون الفرصة لطلب إطلاق سراح الاثنين، وإنما أي الاثنين سيقع عليه الاختيار وأيهما سيرفض؟ فإن أطلق سراح يسوع الذي من الناصرة فسيهلك باراباس حتماً، ولكن إن رفض الأول فلك أن تتهلل يا باراباس، لقد نجوت من الموت! إن سحق يسوع فيه فداؤك ومن موته تنبعث حياتك. وأنتم تعرفون النتيجة مقدماً، لقد آلت الأمور بتحول عجيب لخير باراباس ولنا نحن أيضاً فيه، وإنه لمها يدخل الدهشة والعجب في نفس باراباس أن يسمع أصوات الجماهير تطلب ما هو لصالح المجرم، وعلا زئير الجمع (أطلق باراباس! واصلب يسوع). ومهما ظهر من الشر والإثم في هذا القرار إذا ما قورن برأي بيلاطس الذي كان يرى أن يسوع ينبغي أن يعيش ولا يسلم للموت، لكنه أيضاً بهذه الصورة لايزال متفقاً مع خطة الله وتدبيره لخلاص الإنسان، لأنهم لو كانوا قد طلبوا إطلاق سراح يسوع وأن ينفذ حكم الموت في باراباس كما كان يرغب بيلاطس لكان في هذا الطلب إعلان نهاية الجنس البشري وإنذار بهلاكنا إلى الأبد. لكن الرب أراد أن تسير الأمور بطريقة أخرى، وكانت صرخة الشعب لصلب يسوع هي البوق المعلن ليوم فدائنا. وتأملوا الآن في نتيجة هذا القرار، لقد تبادل باراباس ويسوع

موضعيهما، فنقلت قيود القاتل ولعنته وعاره وآلام الموت لتوضع على يسوع البار، بينما أصبحت الحرية والبراءة والأمان والكرامة التي للناصري من نصيب القاتل، ونال باراباس الحقوق والامتيازات التي ليسوع المسيح، ليعاني الأخير مرائر وأهوال الموت، لقد حل كل منهما محل الآخر وآللت له مقتنياته، فأصبحت آثام المذنب وصليبه من نصيب البار القدّوس، وتحولت كل الحقوق الأدبية التي للأخير لتكون للمذنب. إنكم الآن تدركون معاني المشهد المثير الذي كان موضوع تأملاتنا، ونستطيع أن نجد مفتاح السر في هذه الكلمات: "لأَنَّهُ جَعَلَ الَّذِي لَمْ يَعْرِفْ خَطِيَّةً، خَطِيَّةً لأَجْلِنَا، لِنَصِيرَ نَحْنُ بِرَّ اللهِ فِيهِ" (٢كو ٥: ٢١). إنها تضيء لنا سر تبريرنا أمام الله بواسطة نيابة يسوع، وفي خلاص باراباس نرى صورة خلاصنا، ولو تركنا لأنفسنا لكان مصيرنا الهلاك الأبدي، ولكن عندما تبادلنا المواضع مع يسوع صار لنا الفداء.
وأنتم أيضاً تمتلكون كل هذه الامتيازات في المسيح، بل وبصورة أمجد وأكمل، وإذ صار هو المجرم عوضاً عنكم، حسبتم أنتم أبراراً من أجله، واذ قد رفض بدلاً منكم، فتح لكم الطريق الله، وإذ قد حمل عنكم لعنتكم صرتم وارثين لبركته، وإذ نال عقابكم أصبح لكم أن تشاركوه أفراحه، فكم ينبغي عليكم إذاً أن ترتفعوا بالإيمان إلى المكان البهيج المعين لكم لتختبروا عمق ما قاله الرسول بولس في جراءة: "مَنْ سَيَشْتَكِي عَلَى مُخْتَارِي اللهِ؟ اَللهُ هُوَ الَّذِي يُبَرِّرُ. مَنْ هُوَ الَّذِي يَدِينُ؟ اَلْمَسِيحُ هُوَ الَّذِي مَاتَ، بَلْ بِالْحَرِيِّ قَامَ أَيْضًا، الَّذِي هُوَ أَيْضًا عَنْ يَمِينِ اللهِ، الَّذِي أَيْضًا يَشْفَعُ فِينَا." (رومية ٨: ٣٣، ٣٤).

(٣٣) باراباس

إن أخطر صرخة سمعت تحت قبة السماء قد انبعثت من الجمع المضطرب إجابة على سؤال بيلاطس: (من تريدون أن أطلق لكم، يسوع أم باراباس؟) جاءت تقول: (خذ هذا واطلق باراباس) وقد عبر الشعب الذي حركه رؤساؤه عن إرادته بجسارة مظهراً رغبته في العفو عن القاتل وتسليم يسوع يسوع البار للموت، ومنذ تلك اللحظة صار القاضي يتصرف بغير إرادته، ومما يُرثى له أن نراه يغوص في الأعماق في كل خطورة ولا يكاد يعي ما يقول، فيصيح قائلاً: (فماذا أفعل بيسوع الذي يدعى المسيح؟)

وتأملوا معي سؤاله الذي وجهه للجمع الغاضب عما يفعل بيسوع، الذي قبل هذا الوقت بقليل قد أجابه بكلام مقنع. إن ضميره واحساسه الداخلي ببراءة المتهم وحرفية القانون الذي يلتزم به وأيضاً الصوت المحذر الذي جاءه في حلم زوجته، كل هذه تعلن له بوضوح عما ينبغي أن يفعل بيسوع أنها تلزمه أن يعلن براءته ويطلق سراحه وبكل ما تحت يده من سلطان يحميه من غضب الجماهير الثائرة، ولكن أنى له هذه الشجاعة؟ وبالحق كانت هذه الكلمات (ماذا أفعل بيسوع) لخزيه وعاره الأبدي. والشعب لن يتركه حائراً طويلاً. فقد صرخ بهذه الكلمة المختصرة والحاسمة: (اصلبه) أما الوالي الذي أذهله أن يرى النتيجة بعكس ما توقع فيناديهم بهذا السؤال غير المجدي: (وأي شر عمل؟) لكن الشعب لا يريد أن يتفضل بإجابة على سؤال القاضي، فيكرر بوقاحة أشد (اصلبه. اصلبه). ويظهر بيلاطس وكأنه يريد أن يقول شيئاً، ولكن الجمع الذي كان يملك الموقف يرفض أن يعطيه فرصة. ويغرق صوت الوالي وسط الصيحات المدوية وعبثاً يحاول أن يجعل كلماته تبلغ مسامعهم، ويلجأ الرجل المستسلم والخائر النفس إلى عمل تقليدي، فيطلب ماء في وعاء ويغسل يديه أمام الجمع وهو يصيح بأعلى صوته إلى الغوغاء الثائرين: (إنى بريء من دم هذا البار، أبصروا أنتم). وهذه الشهادة الجديدة عن براءة رئيس كهنتنا الأعظم كما جاءت على فم القاضي فيها كل الكفاية لنا، كما أن رغبة بيلاطس الشديدة ومحاولته الصادقة أن ينجي نفسه من جريمة الحكم على يسوع البار إنما تعمل على تقوية إيماننا، ولكننا في غاية التأثر من منظر الرجل المسكين الكئيب وهو ينوء تحت وخزات الضمير ويحاول عبثاً أن يغسل يديه من بقع

الدماء. ويصيح قائلاً (إني بريء) ولكن ماذا يفيد هذا التصريح والضمير من الداخل لا يوافقه عليه، ثم يغسل يديه... وأنيَّ لك بالينابيع التي تفيض مياهاً تستطيع أن تطهر من البقع التي تتلوث بها يداك؟! وبالحق يوجد ينبوع واحد يستطيع أن يفي بالغرض ولكن بيلاطس يجهله تماماً.

ويستطرد بيلاطس قائلاً: (أبصروا أنتم)، وهو بذلك يلقي تبعة هذا العمل الأثيم على رؤوس اليهود ويرد على الكهنة والكتبة ـ ليس بغير إرادة الرب (الذي له النقمة) ـ بنفس الكلمات التي أجابوا بها في قسوة وعدم مبالاة على يهوذا وهو في مرارة يأسه. وتقع هذه الكلمات على نفوسهم ليس بدون تأثير لكنهم يعرفون كيف يخفون حيرتهم وخجلهم في طيات صوت مرعب أثيم: (دمه علينا وعلى أولادنا). وبينما يصيحون بإيعاز من إبليس يضم الجمع كله صوته معهم. إنه أمر مرعب حقاً! وما دامت الشمس والقمر فلن تسمع كلمات أشد هولاً من هذه بها يطلب الإنسان اللعنة والدينونة لنفسه. لقد أتى دم هذا البار على رؤوس قاتليه عندما حولت مشاعل الرومان المدينة المتكبرة أورشليم إلى رماد. ولم تكف الأخشاب الكثيرة التي جلبوها ليصنعوا منها صلباناً لذرية ابراهيم! كيف أتى عليهم دم رئيس السلام الذي سفكوه عندما تبددوا كالعصافة إلى أربع رياح السماء وحكم عليهم من ذلك الحين أن يطوفوا هائمين على وجوهم بلا وطن موضع ازدراء كل الشعوب! كيف أتى دمه عندما عمل السيف في رقاب الملايين منهم وكأنهم حثالة الشعوب، وكأنهم لا يستحقون أن يوجدوا على وجه الأرض! وعندما نراهم اليوم شعباً منفياً طريداً تمت نبوة هوشع (بلا ملك وبلا رئيس، وبلا ذبيحة وبلا تمثال، وبلا أفود وترافيم)، أليس وكأننا تقرأ سر نفيهم على جباههم (دمه علينا وعلى أولادنا)؟ وأعلن الشعب إرادته بتصميم شيطاني وختم على مصيره وجلب اللعنة على نفسه بصورة لم يكن نظيرها في الشر، ولم يعد في مقدور الوالي أن يصعد أمام هذا التشديد من جانب الجمع، (فبيلاطس إذ كان يريد أن يعمل للجميع ما

يرضيهم حكم أن تكون طلبتهم فأطلق لهم باراباس الذي طرح في السجن لأجل فتنة وقتل الذي طلبوه، وأسلم يسوع لمشيئتهم).

وهذه هي النتيجة التي آلت إليها كل التحذيرات القوية الخطيرة التي قدمت لبيلاطس. لقد تأكدت له براءة يسوع ونقاوته بشهادات قوية وأتاه تحذير من عالم الرؤى والأحلام ومن ضميره الذي كان يتكلم إليه من الداخل ومع ذلك نرى منه هذه الهزيمة المشينة، وهذا التخاذل والجبن، وهذا الإذعان المخجل لإرادة السوقة والغوغاء. وأصبح باراباس الآن حراً رغم أنه لا يزال يجهل القرار الذي اتُخذ لصالحه خارج جدران السجن ولا يرى شيئاً عن القرعة الحسنة التي قسمت له، وبينما كان في انتظار الجلاد ليقطع رأسه إذا برسول من السلطات المدينة يدخل إليه بوجه يطفح بشراً ويعلن له النبأ السار الذي لا يكاد يصدق، أنه قد أطلق سراحه وأن حياته قد أنقذت وأن ذلك الشخص الكامل الذي بلا خطية قد أخذ مكانه وسار في طريق الصليب عوضاً عنه. ونرى في البشير الذي خبر باراباس صورة للمبشر الحقيقي. نعم، اعلموا هذا أيها المساكين بالروح، يا من تئنون تحت ثقل خطاياكم وتصرخون في طلب الرحمة، إننا نقدم لكم رسالة مماثلة لتلك التي تلقاها باراباس، بل أعظم وأمجد بكثير، فبعد أن صنع المسيح المبادلة العجيبة معكم أوصانا الله أن نخبركم في كلمات واضحة أنه من اللحظة التي أخذ فيها يسوع القدوس مكانكم صار لكم أن تتمتعوا بكل الحقوق والامتيازات التي لرعايا مملكته إذا آمنتم بصليبه وبكفارته، وبذلك تصيرون متبررين في نظر الله مقبولين أمامه، ولا شيء من الديونة سيقع عليكم. ولن تسجل خطية في حسابكم، ولن ينجح أي من يشتكي ضدكم. هذا نعلنه لكم، وبالحقيقة ليس نحن وإنما كلمة الله الصادقة في عبارات

واضحة، وندعوكم في اسم الرب أن تؤمنوا بهذه الكلمة وأن تبتهجوا بها لمجد المسيح.
وماذا فعل باراباس بعد أن تلقى الأخبار السارة؟ وإن كان الكتاب لم يخبرنا لكننا نستطيع أن نتصور بسهولة ماذا حدث. إن قال في نفسه (من المستحيل أن يكون هذا لمجرم نظيري) وأبدى مقاومة عندما أتوا لينزعوا عنه السلاسل، فبماذا نصف مسلكاً كهذا؟ قد تقولون إنه تصرف إنسان فقد وعيه ولكم حق في ذلك، ولكن ما أخشاه أن ينسب للبعض مثل هذا اللوم، هبوا أن باراباس رفض باحتجاج رسالة البراءة التي جاءته، إنه بذلك يكون قد أهان البشير والسلطات التي أرسلته واعتبرهم جميعاً كاذبين. ولكن هذه حالتك يا صديقي، يا من بشكوكك ترفض نعمة الله التي بالمسيح. وأنت بذلك لست فقط تشك في رسول بشري ولكن في الروح القدس الذي يتكلم إليك في الكتب المقدسة، وتشك في رسل الرب الذين يشهدون بوضوح عن رحمة الله، وتشك في المسيح ذاته الذي يؤكد لك أن كل من يؤمن به يخلص، بل إنك أيضاً تهين مجد الله وكأن الله قد قدم لك فقط خلاصاً جزئياً ولم يوفره بالتمام. وأنت يا من لا تزال مثل باراباس تتخبط في ظلمة الجب بسبب القلق الداخلي والخوف والحزن، اذهب وافعل هكذا. آمن برسالة الإنجيل، وبنعمة المسيح تتحرر أبدياً من اللعنة والدينونة. لا تصغ فيما بعد لشكايات إبليس وافتراءات العالم، بل تلذذ بثمرة شفاعة بديلك ونائبك العظيم. وعش في سلام ، وابتهج على رجاء مجد الله.

(34) الجلدات

ازدادت طريق قدوس إسرائيل حلكة وظلاماً واشتد الغموض الذي يكتنفها، وتحولت آلامه إلى عذابات مبرحة، وأصبح العار شديداً، وتحققت فيه كلمات إشعياء "مُحْتَقَرٌ وَمَخْذُولٌ... وَكَمُسَتَّرٍ عَنْهُ وُجُوهُنَا" (إش ٥٣: ٣). فبعد أن أعلن القرار الخطير أمام جباثا ووقعت قرعة القاتل على البار أخذ هذا بعيداً عن أنظار الجمع إلى حين حيث سلم إلى جماعة من العساكر القساة لكي يعذبوه، فاقتادوه وسط صخب السوقة كحمل إلى الذبح إلى داخل دار الولاية، ودعونا نتبعه إلى هناك، وإن كنا نفعل ذلك في إحجام لكننا ينبغي أن نشاهد المنظر حيث إنها إرادة الله أن نتنبه إلى تكاليف فدائنا وخلاصنا التي تكبدها الضامن العظيم.

ونتوقف عند أحد الأعمدة الملطخ بدماء القتلة والمجرمين، ويدل طوق من الحديد يتصل به والحبال التي تندلي من حلقات حديدية عن مقدار قسوة العمل الذي يؤدى هناك. ثم تأملوا في هذه الخلائق الوقحة البربرية وهم يحيطون بضحيتهم، ولاحظوا مناظرهم الوحشية ونظراتهم التي تكتشف عن فظاظة وهم يحملون في أيديهم أدوات التعذيب. إنها سياط مصنوعة من مئات الحبال الجلدية وتنتهي بعظام خطافية أو بمكعبات حادة الجوانب، هذه هي وسيلة التعذيب التي أعدوها لمن هو عزيز على قلب الله كحدقة عينه. وبالطبع قد يخطر ببالنا أنه ما كان ينبغي أن ينزل إلى هذا الدرك المهين، وأن السماء ينبغي أن تتدخل لتمنع هذا العمل وإلا هلك العالم تحت شناعة هذا الجرم العظيم، ولكن العمل يتم بغير أن تعترض السماء ودون أن يلحق العالم الدمار. انظروا كيف يبدأ تنفيذ الحكم! عندما يسطو المعذبون على القدوس وكأنهم جيش ملائكة أشرار، يمزقون ثيابه ويربطون إلى الخلف تينك اليدين اللتين امتدتا دائماً لصنع الخير، ثم يضغطون وجهه الإلهي بعنف في العمود البشع، وبعد أن قيدوه بالحبال على هذا الوضع الذي لا يسمح بالحركة يبدأون في عملهم القاسي. ولا تظنوا أنه في إمكاني أن أصف لكم ما حدث فالمنظر أبشع مما يتصوره إنسان، وإن نفسي بجملتها تهتز وترتعد من هوله، ولا ترغبوا أن أحصي لكم عدد الضربات التي انهالوا بها على جسد عمانوئيل المقدّس، أو أن أصف لكم هول العذاب الذي كان يشتد مع كل ضربة والذي كان يكفي في حالات مماثلة أن يقضي على حياة المذنبين التعساء قبل تنفيذ حكم الموت الذي يسبقه الجلد، ويكفينا أن نعرف أنه جعل أنهاراً من

الدماء تتدفق من الجسد المقدس. ويستمر الجلد بدون رأفة، وتعيا سواعد الرجال المتبريرين فيستبدلون بغيرهم، وتغور الجلدات في الجروح الدامية حتى بدا ظهر القدوس كجرح كبير هائل. ويفرغون من هذا العمل الرهيب ليتبعه عذاب آخر أشد قسوة وهولاء فيفكون وثاق القدّوس المتألم من العمود الملطخ بالدماء لكي يسوموه عذاباً جديداً. وبعد أن أدت الأساليب المادية عملها بقيت أساليب أخرى أمر من الاستهزاء الصارم الأليم، ففكروا أن يوجهوا سهام استهزائهم إلى كونه ملكاً كما فعلوا من قبل عندما استهزأوا به كنبي. فأحضروا رداء أرجوانياً بالياً كان يملكه قائد روماني، وبعد أن وضعوه على ظهره الذي لا يزال ينزف الدماء ينفجر المتوحشون في صيحات الاستهزاء مظهرين إعجابهم بهذا الاقتراح المناسب. ويقطعون فروعاً طويلة من العوسج ويصنعون منها إكليلاً ثم يشدونه بعنف على رأسه. ولكي يكملوا صورة ملك هزلي يضعون في يده قصبة عوضاً عن الصولجان، ثم يشرعون في تقديم السجود له باستهزاء وهم يصيحون ويضحكون، يجثون بركبهم أمامه في سخرية ويصيحون قائلين (السلام يا ملك اليهود). ولا يمضي وقت طويل حتى يدركهم الإعياء من هذه الرياضة المبتذلة الوضيعة فتتحول إلى صرامة ينخلع لها الفؤاد، فيلتفون في وقاحة شيطانية حول أسيرهم الذي أساءوا معاملته للغاية ويظهرون كل فظاظة وهم يبصقون على وجهه، ولكي يكملوا مكيال قسوتهم ينتزعون القصبة من يمينه ثم يضربونه بها على رأسه، فتنغرس أشواك الإكليل في جبينه وتسيل أنهار الدماء على وجه صديق الخطاة الكريم.

وكيف نستطيع أن نجعل هذه الأحداث المثيرة تتفق مع إرادة الإله القدّوس العادل! إنه لابد أن هناك سراً عظيماً يختفي وراء هذه الأحداث، وإلا يكون إيماننا في إرادة عليا تتحكم في العالم قد فقد آخر دعامة له، وهذه هي الحقيقة. فما كان يقع على المسيح كان سيقع علينا إذ إنه هو بديلنا، والآلام التي تحملها كانت ستقع على طبيعتنا الفاسدة، وما لقيه من عذاب كنا سنناله نحن كجزاء عادل بسبب شرورنا. إن منظر حمل الله المذبوح الذي يجعلنا نهتز ينبغي أن يبكتنا وينشيء فينا تقديراً عميقاً لحكمة الله ورحمته التي لا تستقصى ولهذا العمل الجيد الذي دبرته نعمته الغنية، ففي جروح يسوع نهاية الجحيم الذي كان ينتظرنا لأن فيها رفعت عنا اللعنة وغسلت ذنوبنا في دمه. إن سيف غضب الله القدوس كان ينبغي أن يستل ضدنا، فطالما أن الكتاب المقدس ليس خرافة وإنذارات الناموس ليست أوهاماً، ولا عدل الله أسطورة خيالية فإن إنساناً واحداً ما كان لينجو من السيف لو لم يتحمل ابن الله الضربة عوضاً عنا ولو لم يأخذ على عاتقه تسديد ديوننا.

لقد تعهد بهذا العمل فأرعدت من فوقه السحب وطمت عليه أمواج بحر الضيق وسكبت عليه الجحيم عذاباتها ونيرانها وبقيت السماء في صمت وبغير حراك، وكل ما جاء عليه لم يكن إلا القضاء المحتوم الذي كان ينتظر الخطاة المذنبين ولكن حيث إن المسيح قد قاسى الآلام واحتملها عوضاً عنا فقد أنزلت الصلبان الكثيرة التي كانت مقامة لنا، وأزيلت المقصلة التي كانت معدة لنا ورفعت راية السلام البيضاء فوق المقصورة الملكية حيث رب الجنود ـ لتبعث الطمأنينة في قلوبنا نحن المساكين سكان الأرض. إن المبادلة العظيمة التي عملها المسيح معنا عندما أخذ عقابنا وأعطانا بركاته قد منحتنا الحق الكامل في التمتع بالمجد إذ علمنا أننا "(وَلَدَنَا) ثَانِيَةً لِرَجَاءٍ حَيٍّ، بِقِيَامَةِ يَسُوعَ الْمَسِيحِ مِنَ الأَمْوَاتِ، لِمِيرَاثٍ لاَ يَفْنَى وَلاَ يَتَدَنَّسُ وَلاَ يَضْمَحِلُّ، مَحْفُوظٌ فِي السَّمَاوَاتِ لأَجْلِكُمْ، أَنْتُمُ الَّذِينَ بِقُوَّةِ اللهِ مَحْرُوسُونَ، بِإِيمَانٍ، لِخَلاَصٍ مُسْتَعَدٍّ أَنْ يُعْلَنَ فِي الزَّمَانِ الأَخِيرِ" (١بط ١: ٤، ٥).

(٣٥) "هوذا الإنسان!"

إننا نقف الآن أمام جباثا، ولا يزال كرسي القضاء شاغراً، فقد انتقل المشهد إلى حين إلى الفناء الداخلي. ولا يخفي ما يجري هناك من أمور يصفها البشيرون بيد مرتعشة، ويذكرون عملية الجلد باقتضاب، وكما يخيل لي إننا نراهم يغطون وجوههم بأيديهم من هول المشهد الرهيب، ولكنهم لا يستطيعون أن يخفوا عنا الدموع التي تسيل خفية على وجوهم. وينفذ صبر الجماهير المحتشدة خارج الدار، وإذا بالباب يفتح فجأة مرة أخرى ويظهر بيلاطس وعلى ملامحه علامات التأثر الشديد وخلفه شخص تحيط به قوة من الجند المتبربرين. ويا له من منظر يجعلكم ترتجفون وتغطون وجوهكم من هوله وبينما أنتم كذلك اسمحوا لي أن أذكر لكم وصفاً مختصراً عنه مستشهداً بما جاء في الكلمة المقدسة. فقد فُتحت أبواب السماء اللؤلؤية مرة بقوة ونزل كائن قدّوس من السماء إلى هذا العالم لم تكتحل عيون الأنام بمرآه منذ سقوط الإنسان، كان في بهاء ومجد يفوق الوصف، وقد أتى ليحقق حلم يعقوب عن السلم التي تربط الأرض بالسماء، علمه المحبة وقلبه ينبض بالعطف، وقد تجول أكثر من ثلاثة أعوام بين سكان الأرض مشرفاً بنور على الذين يتعثرون في الظلمة مالئاً أكواخ المساكين بالبركات الزمنية والروحية داعياً المتعبين والثقيليّ الأحمال أن يأتوا إليه ليعطيهم راحة، مبدداً ظلمات وادي الموت بآلاف المواعيد كما بأنوار باهرة من السماء. كما أعلن أنه جاء ليُخدم بل ليَخدم وليبذل نفسه فدية عن كثيرين. وشهد عن نفسه أنه جاء ليفدي شعبه من خطاياهم وأنه لن يتركهم تعابى بل سيأتي بهم إلى الآب ويرفع مقامهم ليكونوا وارثين معه في أمجاده. وقد تمم مواعيده لكل من يؤمن به. ما

أعظم البركات التي أتى بها هذا الضيف الكريم إلى عالم تستقر عليه اللعنة! لكن ارفعوا عيونكم وتطلعوا نحو جباثا وسوف تصيحون: (من هو هذا المتألم؟) وأسألكم بدوري: من تظنون أن يكون؟ دققوا النظر في وجهه ثم قولوا إن كانت القساوة قد أظهرت شناعتها بصورة أبشع مما فعلته في ذلك الشخص؟ لقد جعلوا منه ملكاً هزلياً، وكأنه لا يستحق أن يعامل كملك حقيقي، فوضعوا عليه طابع الهزء. تأملوا الرداء الساخر الذي على كتفيه والصولجان الهزلي الذي في يمينه، ثم تأملوا في رأسه المغطى بالجروح والدماء وفي ذلك الإكليل المرعب الذي يتوج هامته!! من يكون هذا الإنسان الذي تشوهت صورته بهذه البشاعة؟ وأظن أنه لن تدوم حيرتكم طويلاً، فوداعته كأنه حمل وخضوعه السامي الذي يمثل به بينكم يعلن عنه بجلاء، والأكثر من ذلك أن جلاله يكشف عنه رغم الذلة والمهانة التي لقيها ولاتزال العظمة تتجلى في كل هيئته كما أن محبته الغافرة تشع من عينيه، ومن غيره يستطيع أن يظهر بهذه الوداعة في موقف كهذا؟ أجل إنه هو الشخص القدّوس الذي نزل من الأعالي الذي يظهر أمامنا الآن في هذه الصورة من الألم الشديد، ويصيح القاضي الوثني قائلاً (هوذا الإنسان) في تأثر عميق وقد غلبته الفكرة أنه أمام كائن سماوي. ولكن ترى ما هو الصدى الذي يتردد إجابة على سؤال الوالي؟ (اصلبه! اصلبه!) نطق به الجميع بصوت واحد كقصف الرعد.

ترى هل يدري هؤلاء الأشرار ماذا يفعلون؟ كلا بكل تأكيد، لكنهم يريدون أن يحطموا في شخص المسيح المرآة التي تكتشف لهم عن قبحهم وأن يطفئوا نور العالم كما أشرق في الناصري الذي يبغضونه، لأنهم يشعرون بحرية في ظلمة الخداع أكثر مما في نور الحق الساطع. إنهم لا يريدون ما يبكت ضمائرهم ولا أن يروا مثالاً لفضيلة ولا ما ينبههم من موتهم الروحي، ومجمل القول إنهم يرفضون كل ما له تأثير أدبي على نفوسهم. إن ظهور (من هو أبرع جمالا من بنى البشر) "أَنْتَ أَبْرَعُ جَمَالاً مِنْ بَنِي الْبَشَرِ" (مز ٤٥: ٢) بهذه الصورة أثبت أن فساد طبيعتنا الساقطة له جذوره العميقة وأن مرضها مستعص وأن ميولها الداخلية ليست سوى عداوة الله القدّوس، وفي جريمة صلب الرب الذي جاء من السماء نطق جنسنا بالحكم على نفسه وملأ مكيال خطيته. إن القدّوس الذي كان يحتمل الألم في إذعان وهو في ردائه الأرجواني وعلى رأسه إكليل الشوك وإنما يعلن في صمت أنه بدون وساطة وفداء يكون نسل آدم كله معرضاً للعنة والدينونة الرهيبة. وما حدث في جباثا لم يكون سوى الثمرة الناضجة للبذرة التي تنمو جبراً أو سراً في كل واحد منا، فطالما لم نختبر الميلاد بالكلمة والروح لا يمكننا أن نتصرف إزاء يسوع بطريقة تختلف عما فعله الناس الأشرار عند جباثا، فنحن مثلهم تؤذينا قداسة يسوع ومثلهم نبصق عليه باحتقارنا له. وقولوا لي، ألا يزال المسيح يرتدي بطرق مختلفة الرداء الأرجواني وإكليل الشوك في هذا العالم؟ ألا تراه معرضاً لأحتقار الكثيرين ويعامل منهم كمضل لأنه يشهد عن عظمته الفائقة؟ ألسنا نرى العالم إلى هذا اليوم يعلن

رفضه لاسم يسوع وابتسامه السخرية تظهر على شفاه الكثيرين عندما يذكر اسمه باحترام وتوقير؟!

حقاً، إن الخطايا التي ارتكبت ضد يسوع والدماء تسيل منه لا يمكن أن تعد أنها خطايا فردية أو أعمال شريرة قد صدرت من الأقلية لأن المنظر الوحشي الذي بدا في جباثا لم ينتبه بعد، بل لا يزال يتكرر في كل يوم وإن كان بصورة الماضي ولكنها أيضاً تنطبق على الحاضر. واأسفاه لقد تحول العالم إلى جباثا! ومنظر المسيح المتوج بإكليل الشوك هناك يوبخنا جميعاً بلا استثناء.

ليت الرب يكشف لنا عن هيئته وهو في آلامه عندما نضطر أن نسلك طريقاً موحشاً بمفردنا وعندما تنقطع عنا تعزيات البشر. ليته يرافقنا في طريقنا الموحش وهو في ردائه الأرجواني وبإكليل الشوك وعندئذ يحول الظلمة المدلهمة إلى نور ومجد سماوي! لأنه في صورته هذه أكثر من غيرها قد أكد الحقيقة العظمى أن حكم الموت قد رفع عنا ليوضع عليه وانتقلت اللعنة من على رؤوسنا لتستقر على رأسه ليمنح لنا اقتراباً إلى الله وليجعل لنا طريقاً مفتوحاً إلى عرش النعمة ونحن نكتسى برداء بره. ليت هذا الصوت (هوذا الإنسان) يتردد دائماً في قلوبنا ولن يوجد في العالم ما يستطيع أن يجعل منظر آلامه يختفي من أمامنا إن حكمة الحق كما عبر عنها الرسول بولس تتلخص في: ألا نعرف شيئاً بين الناس إلا يسوع المسيح وإياه مصلوباً، أن نموت كل يوم عن ذواتنا وعن العالم ونحن نسير في رفقة الفادي الذي مات لأجلنا، لكي نقوم كل يوم معه إلى الحياة الجديدة التي في الله متذكرين القول إننا (ليس لنا مدينة باقية)... وقد مضى زمن طويل قبل أن نعود ونسمع الصوت (هوذا الإنسان) بصورة أخرى، وعندما نرفع عيوننا حينذاك سوف نرى منظراً آخر يختلف تماماً عن ذاك الذي رأيناه في جباثا، فإن ملك المجد سيكون قد أبدل ثوب الهزء بحلة الجلال الإلهي البهية وإكليل الشوك بتاج المجد والقصبة بصولجان السيادة فوق كل خليقة، ولكنه عندئذ سيسبغ علينا الامتياز الأخير تفضلاً منه كانعام خاص قائلاً: "تَعَالَوْا... رِثُوا الْمَلَكُوتَ الْمُعَدَّ لَكُمْ مُنْذُ تَأْسِيسِ الْعَالَمِ" (متى ٢٥: ٣٤)، بينما تنبعث من داخل المدينة السماوية أصوات الألحان الشجية وتردد قلوبنا صدى الصوت بهذا الهتاف المجيد: (مستحق هو

الخروف المذبوح أن يأخذ القدرة والغنى والحكمة والقوة والكرامة والمجد والبركة!).

(٣٦) نهاية المحاكمة

تسرع اجراءات المحاكمة ضد رب المجد إلى نهايتها، وتتراكم الحداث وتتدافع، وتوشك اللحظة الحاسمة العظيمة أن تأتي، وكل ما يجري يتطلب تركيز كل حواسنا واهتمامنا. (اصلبه، اصلبه!) كان هذا هو جواب الجمع على سؤال الوالي الذي كان مقتنعاً تقريباً ببراءة يسوع، ولكن هذا القول قد جرد بيلاطس تماماً من آخر أمل في خروجه من المأزق كما كان ينبغي. وانظروا إليه الآن، إنه إنسان يستحق العطف والرثاء، لا منفذ له وقد خسر الجولة تماماً، نفسه في الداخل مضطربة وهي تتعذب من جلدات الضمير اليقظ. ويعود الوالي مرة أخرى ليؤكد براءة المتهم، لكنه عوضاً عن أن ينهي المحاكمة بإطلاق يسوع كما كان يجب أن يفعل إذا به ينزل بنفسه إلى درك مهين جداً فيشير على اليهود مشورة تكشف عن مقدار جبنه، أن يأخذوه هم ويصلبوه بغير إرادته، وهل نتعجب أن نراهم يزدادون جسارة وجرأة لما رأوه في القاضي من ضعف واستسلام؟ فصرخوا بكل شدة: (لنا ناموس، وبحسب ناموسنا يجب أن يموت لأنه جعل نفسه ابن الله). وهذا الاتهام الجديد الذي وجهه اليهود ليسوع أنه جعل نفسه ابن الله جدير بالملاحظة، فهم في الحقيقة يصرخون أن يسوع أثناء نظر القضية التي أقيمت ضده قد أخذ هذا اللقب السامي الرفيع، وإذ ذاك يعتبرون مرتكباً لجريمة عظمى، وقد تبيّن لهم بوضوح أن يسوع بهذه النسبة أنه ابن الله قد قصد أن يضع نفسه في مرتبة فوق كل خليقة بل وأنه مساوٍ لله القدير نفسه، ولو كان الرب قد قصد نسبة أقل من هذه لكان من واجبه المقدّس في هذه الظروف أن يفند اتهام خصومه ويعلن بطلانه، وأن يعترف بأنه خطية عظيمة، لكنه لا يفعل هذا الأمر أو ذاك ويظل في صمته وبذلك يبرهن صراحة

على صحة الأمر المنسوب إليه. وصرخ الجميع (إنه جعل نفسه ابن الله) ويخبرنا الكتاب أن بيلاطس عندما سمع هذا القول (ازداد خوفاً) لقد جاءت هذه الكلمات مطابقة لما كان يحس به في قرارة نفسه إذ قد أعلن يسوع أنه ابن الله، وبدا هذا للوالي أمراً خطيراً له معناه! إن كل ما رآه بعينه في هذا الإنسان كان يثبت هذه الحقيقة أنه (ابن الله) ولو سمح لبيلاطس أن يفصح عن الشعور الذي تملكه في بعض اللحظات لاعترف هو الآخر بذلك، وماذا كان في هذا الإنسان العجيب مما يدع للشك مجالاً أو يجعل الأمر لا يصدق؟ إنه يختلف في طبيعته ويسمو عن سائر البشرية. لقد كان بيلاطس في غاية التأثر، وبدأت تساوره أفكار غامضة لم تكن لديه من قبل، ويحس برغبة ملحة أن يعرف الأمر على حقيقته ماذا عسى أن يكون الناصري، ولأجل هذا السبب يأخذه إلى داخل الدار وينفرد به. وهنا تدور محادثة مشهورة بينهما يبدؤها بيلاطس بسؤال هام يحوي في ثناياه الاستفسار عن أساس الديانة المسيحية فيقول له: (من أين أنت؟) وهو هنا لا يسأله عن مسقط رأسه من أية مدينة أو بلدة هو ولكنه يقصد العالم الذي جاء منه يسوع، وهو بذلك يريد أن يعرف إن كان واحداً من أبناء الأرض أم أنه قد جاء من عالم آخر من عوالم الكون. وكانت هذه مشكلة عويصة حيرت بيلاطس، إذ كان يبدو أمامه بوضوح أن طابع الأبدية يسطع بلمعان على جبين الرب حتى وهو في هيئته المتواضعة. لكن الرب لا يعطيه جواباً ويتركه بغير أن يعلمه بشيء، ولا يجب أن نتعجب لذلك لأنه أية منفعة كان يجتنيها بيلاطس إن كان السر العظيم قد كشف له، ان "فِي الْبَدْءِ كَانَ الْكَلِمَةُ، وَالْكَلِمَةُ كَانَ عِنْدَ اللهِ، وَكَانَ الْكَلِمَةُ اللهَ...

وَالْكَلِمَةُ صَارَ جَسَدًا وَحَلَّ بَيْنَنَا" (يو ١: ١، ١٤) إن نفس الوالي الوثني لم تكن مهيئه لقبول هذا الحق، وسؤاله فيما يختص بأصل يسوع كان دافعه الفضول أكثر منه رغبته في الخلاص وشعوره بالحاجة إلى المعونة. وبجانب هذا فإن ثمة تصريح عن حقيقة شخصية المسيح وطبيعته لم يكن ليفعل أكثر من أن يزيد من مسئولية بيلاطس ودينونته في اليوم الأخير، ولذلك يعد من قبيل العطف والرحمة المشفقة أن يسوع قد التزم الصمت المطبق إزاء هذا السؤال.

وما أقل الرغبة التي كانت توجد في نفس بيلاطس أن ينحنى أمام صولجان ابن الله ولو كان أيضاً قد عرف المسيح على حقيقته، وهذا واضح من سلوكه عقب سؤاله مباشرة، إذ تعثر ووجه كلامه للرب في لهجة متغطرسة وقحة: (أما تكلمني؟ ألست تعلم أن لي سلطاناً أن أصلبك وسلطاناً أن أطلقك) اسمعوه! كم يظهر بوضوح من أي روح هو! إن أرق مشاعر الإنسان الطبيعي هي كعشب سريع الزوال، فينبغي أن يولد الإنسان ثانية وإلا يظل مبيعاً تحت الخطية، ومهما بدت حياته على درجة من التقوى والصلاح فإنها ستكون فقط سلسلة من النكسات المتعاقبة.

(أما تكلمني؟) ألا ترى الرجل يتكلم بلهجة وكأن الرب قد غدر به عندما يعطه في الحال الجواب المرغوب؟ يا للجبروت! ويا للكبرياء! ويستطرد قائلاً: (ألست تعلم أن لي سلطاناً أن أصلبك وسلطاناً أن أطلقك؟) لكن دعونا نصغي إلى جواب الرب الذي أجاب به القاضي المتفاخر بسلطانه، لقد قال له في جلال إلهي وبإحساس كامل بألوهيته: (لم يكن لك عليّ سلطان البتة لو لم تكن قد أعطيت من فوق لذلك الذي أسلمني إليك له خطية أعظم) كلمات تستحق الاعجاب تليق بالرب من السماء وبابن الله! وبحسب هذه الكلمات يظهر بيلاطس أنه ليس إلا أداة طيعة في يديّ الإله الحي لتحقيق غرض سامٍ، وأنه ليس له إلا أن يتحرك في حدود مرسومة وضعتها يد خفية، هذا على الرغم من أنه كان يتصرف بحسب تقديره كشخص مستقل له أن يفعل ما يريد، بيد أنه في الحقيقة لم يكن يستطيع أن يفعل شيئاً إلا ما يعطيه الله أن يفعل. فعلى الرغم من جبنه وعدم شجاعته لم يكن له أن يسلم يسوع إلى قاتليه إن لم يكن الأمر قد تقرر في السماء أولاً. إنه يحمل ذنبه، ولكن وهو يسلك هذه الطريق الخاطئة إنما يساعد على إتمام عمل مقدّس عظيم كان يجهله تماماً. ويكمل الرب كلامه ليخجل الوالي فيقول له: (لذلك الذي أسلمني إليك له خطية أعظم) وكان هذا الذي يعينه الرب هو قيافا رئيس الكهنة، ابن إبراهيم، والمعلم في إسرائيل، الذي تربى في نور موسى والأنبياء، ولذلك استطاع أن يفهم معنى (ابن الله) وكانت الفرصة مهيأة له ليعرف ابن الله هذا في المسيح، لكنه قال عنه إنه مجدف وأصدر حكمه عليه بالموت.

وهذه الخطية كانت أعظم لأنها اُرتكبت في نور كلمة الله كما في وضح النهار، وضد الحق الذي ظهر. إنها لم ترتكب من ضعف إنما عمداً، ولم يؤخذ صاحبها على حين غرة وإنما كانت لديه الفرصة للتفكير والتريث، ليس عن جبن بل في خسة وخبث. لم تكن كلمات الرب بدون تأثير على نفس الوالي، إنه يلمس فيها سموها ويحس بدافع المحبة والعطف والاخلاص الذي أملى بها، ولذلك جعلته يعود ثانية إلى فناء الدار ليجدد محاولته في إطلاق يسوع، ولكن كان جواب الجمع المحتشد الدار: (إن أطلقت هذا فلست محباً لقيصر، كل من يجعل نفسه ملكاً يقاوم قيصر). وأصابت هذه الكلمات الوالي في أضعف ناحية فيه، لقد كان يعرف سيده طيباريوس الامبراطور معرفة جيدة، وأن هذا الاتهام كما وجهه إليه اليهود لابد وأن يصادف مكاناً رحباً في نفسه المتشككة، وهذا سيكلفه ـ أي الوالي ـ مركزه، ومن يدري فربما قد يصل إلى أبعد من ذلك. ولا يكاد يسمع بيلاطس هذه الكلمات المشئومة (لست محباً لقيصر) حتى تبدد ما تبقى لديه من مقدرة ضعيفة على مواجهة الضغط، وفي الحقيقة إنه لم يكف تماماً عن محاولة إطلاق يسوع ولكن ما يبذله من مجهود لتحقيق هذا الغرض كان شعور باليأس، ولم يعد التوفيق هو النتيجة المتوقعة ومرة أخرى يخرج إلى فناء الدار وفي صحبته المتهم، ثم يجلس على كرسي الولاية ويعود من جديد يخاطب الجمع. (هوذا ملككم). قال هذا وهو يشير إلى المخلِّص المتألم الذي مزقت جسده الجلدات والذي يغطيه العار، ومن لا يلمس في هذا القول مزيجاً من الشعور بالعطف نحو رجل الأحزان والاحتقار الصارخ لليهود المكروهين؟ إنه يريد أن يستدر عطفهم لإطلاق يسوع وفي

نفس الوقت أن يصفعهم صفعة أليمة، وبالطبع أحس الجمع من كلامه بلدغته المسممة بغير اعتبار للدافع الذي حركه. وحدث ما توقعه بيلاطس إذ نهض الجمع المهان كأفعى منتفضة صارخين بإصرار وغضب وسخط أكثر من ذي قبل: (خذ هذا ليصلب. اصلبه! اصلبه!).
وفقد بيلاطس الآن كل سلطان على نفسه، وأبعدت آلامه النفسية بينه وبين الهدف الذي كان يرجوه من مجهوداته، وكما يبدد المجنون ثروته أخرب بيلاطس الأمل الأخير في إطلاق يسوع بينما كان يصب زيتاً في لهيب غضب الجمع المتقد، فظل ينادي بجنون وفي تهكم مرير على الجمع الثائر: (أأصلب ملككم؟) ولم يكن يعي ما يقول لأن القلق الذي استولى عليه والمصحوب بتعطش للانتقام بلا جدوى قد أفقده صوابه... ومن الجانب الآخر عرف رؤساء الكهنة جيداً كيف يحفظون أعصابهم، فكان لديهم جواب سريع على السؤال الساخر (أأصلب ملككم؟) كان جوابهم يكشف عن مقدار الشر الكامن في صدورهم ولم يكن أقدر منه على توجيه طعنة نجلاء إلى شرف الوالي، وفي تظاهر بالإخلاص والولاء للسلطة الرومانية صرخوا بقوة: (ليس لنا ملك إلا قيصر) وبذلك أظهروا أنفسهم وكأنهم هم ـ وليس بيلاطس ـ الذين يدافعون عن سلطة وشرف الامبراطور المهدد بالخطر.

وقد تغلب على بيلاطس الاحتمال بأن طيباريوس قيصر سيفهم الأمر بهذه الصورة، واضطر أن يسلم يسوع للشعب ليفعلوا به كما يريدون وبذلك أحرزوا نصراً كاملاً. نودع الآن بيلاطس ليس بغير أسف، فقد كان استعداده الطبيعي لشيء أفضل مما رأيناه يفعله، ولكنه ظن أن يخدم سيدين ـ الله الذي كان يتكلم إليه من داخل نفسه وفي نفس الوقت العالم، وقد أدى هذا إلى سقوطه وخرابه. لقد كان يرغب أن يعمل ما هو صالح ومستقيم ولكن ليس بكل قلبه، وسقطت بذرة الكلمة المقدسة بين أشواك كبريائه واهتمامه بالعلم، وطلع الشوك وخنق البذرة النابتة وقضى عليها. كان بيلاطس ضحية عدم الفصل في الأمور وضعف الشخصية مثل كثيرين غيره، رغم ما لهم من مشاعر نقية ونوايا طيبة لكنهم يسقطون فريسة للشيطان... وعلى الرغم من أن بيلاطس كان وثنياً لكن كل موافقه مع يسوع كانت تبدو ممجده له، ويشغل بيلاطس مكانه في عظة الرسول بطرس كشاهد لقداسة الرب وعظمته الإلهية أنه هو الرب من السماء، وأن المسيح قد أُسلم وصلب ليس بإرادة بشرية وإنما بحسب المشورة الأزلية للفداء والرحمة.

(٣٧) الطريق إلى الصليب

(وأُسلم يسوع لمشيئتهم). واأسفاه يا بيلاطس! لو كان بيلاطس قد علم من هو يسوع وفداحة الخسارة التي لحقت به بتسليمه إياه! ونحن نعترف بتواضع عميق أننا كثيراً ما نخطئ بإنكارنا لاسمه وفي كل مرة نخرج إلى خارج ونبكي مع بطرس بمرارة، وبعد أن نتعزى من جديد نعود فنعلن بأكثر قوة (لن نعود نسلمه)، مظهرين كل استعداد لأن نخسر صداقة أعدائه وأن نضحي بالعالم كله ولا نفرط في يسوع، فاتحادنا به عليه ختم الأبدية.

تمت عملية تسليم المتهم، وأصبح يسوع بين أيدي أعدائه كحمل وسط ذئاب وكحمامة بين الجوارح، ويعودون فيقذفونه بأمر الشتائم اللاذعة، وفي قسوة ووحشية يمزقون الرداء الرجواني عن جسده الدامي ويلبسونه ثيابه من جديد، ليس من العطف عليه ولكن لأنهم يرون أن الموت الرهيب الذي يعدون له لا يجب أن ينظر إليه كهزل ومزاح وإنما يتطلب معاملة جدية صارمة... وبعد أن قام العسكر بترتيباتهم ظهر الصليب الرهيب الذي أصبح منذ ذلك الحين علامة ملكوت المسيح ورمز خلاصنا، وفي فترة ماضية كان يرمز إليه لشعب إسرائيل في البرية حين رفعت أمام عيونهم خشبة الصليب كدعامة للحية النحاسية. وقد جرت العادة عند الرومان أن المحكوم عليهم بالصلب يحملون أداة الإعدام إلى الموضع حيث ينفذ فيهم الحكم، وحتى المتألم الإلهي لا يعفى من حمل هذا العار وتلك المشقة. وبدون شفقة يضعون على ظهره الجريح أداة التعذيب. وأتوا بمجرمين آخرين يحمل كل منهما صليباً مماثلاً لينفذ فيهما نفس الحكم، ثم فتحت الأبواب لإشباع الجموع الذين كانوا على أحر من الجمر ينتظرون أن يروا هذا المنظر الرهيب. وما أن يتحرك موكب الثلاثة يحملون صلبانهم حتى تسري بين الجمع همسات التشفي والحقد العميق، ويشق الموكب طريقه إلى حيث تنتظرهم كتيبة من الجند المسلحين، البعض راجلون والآخرون على صهوة الخيل فيحيطون بالضحايا الثلاثة وهم ينوءون بأحمالهم ومن خلفهم رجال السلطة المدنية ثم رجال الدين، وفي النهاية جمع لا حصر له من الشعب الحاقد المخدوع.

قد يكون من نصيبنا أننا أثناء سياحتنا في الأرض نعبر طرقاً مماثلة لتلك الطريق التي اجتازها يسوع رأسنا، فالعالم يبغض أتباعه مثلما يبغضه ولن يكف الشيطان عن طلب قدّيسي الرب لكي يغربلهم كالحنطة، ولكن لم تعد السماء تصم آذانها عن سماع زفراتنا، ولا سحب الرفض واللعنة تخفيها عنا، وإنما لنا السلام والرجاء رفيقان مخلّصنا يسيران بصحبتنا، فقد نقى المسيح طريقنا الموحش من أهواله المرعبة، وخفف أحمالنا، وأصبح لنا أن نرنم مع صاحب المزمور: "أَيْضًا إِذَا سِرْتُ فِي وَادِي ظِلِّ الْمَوْتِ لاَ أَخَافُ شَرًّا، لأَنَّكَ أَنْتَ مَعِي. عَصَاكَ وَعُكَّازُكَ هُمَا يُعَزِّيَانِنِي" (مز ٢٣: ٤).

فليكن مباركاً ذلك الطريق الذي اجتازه رئيس السلام حاملاً الصليب! وليتنا نرافقه كل يوم بالروح في ذلك الطريق عينه، وسوف تمتلئ نفوسنا ببهجة لا ينطق بها ويصبح الطريق هيناً، لأنه لماذا قد سلك ذلك الطريق المرعب إلا لكي يعبر كل واحد طريقه مرفوع الرأس بعد أن تحررنا من اللعنة والهم. وهو عندما اجتاز طريقه لم يحمل فقط كل خطايانا إلى القبر أو كان فقط يفتح لنا طريقاً وسط العقبات التي كانت تحول دون اقترابنا للآب، ولكنه في نفس الوقت حوّل مياه البرية المرة إلى مياه عذبة ولن يتركنا أو يتخلى عنا حتى يحضرنا سالمين في إلى بيتنا السماوي، فمبارك اسمه القدّوس!

(٣٨) سمعان القيرواني

اختفى بيلاطس من المشهد بالقرار الحاسم الذي أجمع عليه أعداء يسوع فسلم بيلاطس قدّوس إسرائيل إلى أيدي الذين أسرعوا لتنفيذ الحكم بأكثر سرعة ممكنة، وبعد النطق بالحكم لا تعطى المذنبين فرصة للمرافعة او الاستئناف، بل كما يقضي القانون الروماني ينبغي أن يقاد المجرمون لتنفيذ الحكم عليهم فور صدوره. ونرى الآن الموكب يتحرك ببطء، تلفه سحابة من الغبار، فما أكثر الذين يأتون مسرعين من كل صوب! ويا للضوضاء والضجيج! وفي أشعة الشمس تلمع الحراب والخوذات والسيوف المسلولة. والعسكر بعضهم راجلون وآخرون على ظهور الخيل، وها هم الكهنة والكتبة، وجمع كثير من الكبار والصغار، النساء يصرخن، والأطفال يصيحون، وقوم من اليهود وآخرون أمميون، الكل قد اختلط معاً في زحام شديد، وفي مقدمة الركب يسير المذنبون الثلاثة تحت حراسة مشددة، يلهثون في خطى وتيدة وهم يجرون أدوات الموت الثقيلة، إثنان منهم سارقان قاتلان، والثالث هو الذي بسببه قد أقيم هذا العرض البشع. تأملوا ذلك الإنسان الذي تنزف منه الدماء بغزارة، وبحسب الظاهر يبدو أنه أكثرهم ذنباً! ولكننا نعرفه، إنه هو الآخر يحمل صليبه ويدعونا الأمر أن نرق له. كان منظراً مألوفاً زمن حكم الرومان أن ترى الصلبان، والعبد المتمرد كان مصيره الموت بهذه الوسيلة الشنيعة التي تدعو للعار الشديد، لكن هناك أمراً جديراً بالاعتبار في ذلك الصليب الذي يحمله قدّوس إسرائيل في طريقه إلى الجلجثة، وبالإشارة إلى ما سجله الوحي في كتاب الناموس إذ قيل: "وَإِذَا كَانَ عَلَى إِنْسَانٍ خَطِيَّةٌ حَقُّهَا الْمَوْتُ، فَقُتِلَ وَعَلَّقْتَهُ عَلَى خَشَبَةٍ، فَلاَ تَبِتْ جُثَّتُهُ عَلَى الْخَشَبَةِ، بَلْ تَدْفِنُهُ فِي ذلِكَ الْيَوْمِ، لأَنَّ الْمُعَلَّقَ مَلْعُونٌ مِنَ

اللهِ. فَلاَ تُنَجِّسْ أَرْضَكَ الَّتِي يُعْطِيكَ الرَّبُّ إِلهُكَ نَصِيبًا" (تثنية ٢١: ٢٢، ٢٣).

وقد روعي تنفيذ هذه الوصية الإلهية الهامة بدقة في إسرائيل، ففي كل مرة علق مذنب على خشبة العار كان هذا يعد بحسب كلمات الناموس مكروهاً من الله القدير، وعلم الشعب أن الله ينظر إلى الأرض بغضب وامتعاض شديد طالما ظل جسد المجرم معلقاً بغير أن يوارى من أمام عينيه، ولكن الذين كانوا مستنيرين بينهم علموا جيداً أن هذا كله كان يتضمن معنى رمزياً يشير بالنبوة إلى واحد سيعلق على خشبة، وعليه سينسكب غضب السماء، ولكن في آلامه الكفارية ستوضع نهاية اللعنة والدينونة على عالم فاجر أثيم، ويعلق الرسول بولس في صراحة ووضوح قائلاً: "اَلْمَسِيحُ افْتَدَانَا مِنْ لَعْنَةِ النَّامُوسِ، إِذْ صَارَ لَعْنَةً لأَجْلِنَا، لأَنَّهُ مَكْتُوبٌ: «مَلْعُونٌ كُلُّ مَنْ عُلِّقَ عَلَى خَشَبَةٍ». لِتَصِيرَ بَرَكَةُ إِبْرَاهِيمَ لِلأُمَمِ فِي الْمَسِيحِ يَسُوعَ" (غل ٣: ١٣، ١٤). ونلتقي بالقدّوس المتألم خارج أسوار أورشليم، ويضع الكتاب أهمية بالغة على هذه الحقيقة أن المسيح قد اقتيد خارج المدينة المقدسة، فنقرأ القول: "فَإِنَّ الْحَيَوَانَاتِ الَّتِي يُدْخَلُ بِدَمِهَا عَنِ الْخَطِيَّةِ إِلَى «الأَقْدَاسِ» بِيَدِ رَئِيسِ الْكَهَنَةِ تُحْرَقُ أَجْسَامُهَا خَارِجَ الْمَحَلَّةِ. لِذلِكَ يَسُوعُ أَيْضًا، لِكَيْ يُقَدِّسَ الشَّعْبَ بِدَمِ نَفْسِهِ، تَأَلَّمَ خَارِجَ الْبَابِ." (عب١٣:١١، ١٢). وهنا يظهر المسيح أنه هو الحقيقة الذي كانت ترمز إليه ذبائح الخطية في العهد القديم، وإذ أننا نعلم بطبيعة هذه الذبائح، وأنه بتقديمها تنسب خطايا التعدي إلى الحيوانات المعدة للذبائح، وأنه بعد تقديم الذبيحة يتبرأ الخاطئ ويعد طاهراً، هكذا يظهر بوضوح أن المسيح عندما أقتيد خارج

الأسوار كان في الحقيقة يحمل ثقل خطايانا ولعنتنا، وبذلك نعد نحن وكأننا كنا نسير في ذلك الطريق إلى حيث يتم تنفيذ حكم الموت الرهيب، لأن المسيح فعل ذلك نيابة عنا، وفي كل خطوة تزداد هذه الحقيقة وضوحاً أن يسوع لم يعبر طريق الصليب كالكائن القدّوس بل كبديل عنا وممثل لجنسنا الساقط، ومن هنا أصبح مفهوماً لماذا ارتضى الآب الأزلي أن يسلم الابن غلى عذاب وألم لم يسمع به، وعلى هذا الاعتبار لم نر أحد ملائكة الأعالي يسرع ليخدمه، ولم تسقط نار من السماء لتأكل قاتليه. وإن كانت كل الظروف التي اجتازها المخلَّص رهيبة ومذهلة بحق! لكنها كلها تتآزر لتثبت هذه الحقيقة بكل تأكيد: هوذا الرب يسوع يحمل لعنة الخطاة.

لقد كنا نتأمل في منظر يسوع وهو يحمل صليب الخطاة، ولكن الوضع يتغير، ويظهر أمامنا مشهد آخر مختلف تماماً، إذ نرى الخاطئ يحمل صليب يسوع. فما كاد الرب يقطع مسافة من الطريق وهو ينوء تحت حملة الثقيل، حتى خشى مرافقوه المتعطشون للدماء أن يسقط تحت ثقل الحمل ويخور تماماً من الجهد والإعياء قبل أن ينفذ فيه الحكم، وإذ ذاك فتشوا عن إنسان ليضعوا عليه صليب يسوع ليحمله في المسافة الباقية من الطريق، فوقعت عيونهم على شخص غريب كان عائداً لتوه من الحقل، فاختاروه ليحمل الصليب إذ رأوا في نظراته إشفاقاً خفياً على الناصري، وكان هذا هو سمعان الذي وُلد في القيروان في شمال أفريقيا، فأمسكوا به وألزموه أن يحمل صليب الرب.

(٣٩) بنات أورشليم

غصت الطريق من أورشليم إلى جبل الجلجثة بجموع الشعب... وبعد الشعور الذي أبداه البعض نحو قدّوس إسرائيل الذين دفعهم تقديرهم له إلى إظهار عواطفهم نحوه يعد هذا الشعور نبيلاً بدرجة ما، وبعض هؤلاء كانوا بين الجمع الغفير الذي تبعه. وفي دائرتنا الخاصة نقابل أمثالهم ممن هم على جانب من الخلق الطيّب، وعندما يظهر المسيح ذاته لهم يعجبون به كالمثال الفريد لكل عظمة إنسانية وكمال أخلاقي. وبالنسبة لهم لا يتأخرون عن الاحتفال بذكرى آلام الرب في عاطفة صادقة، وفي نفس الوقت يحنقون بافراط على الشعب الشرير الذي صلب البار الوحيد من بين الذين وطأت أقدامهم هذه الأرض. ولكن هل يشتركون معنا في رفع هذه الصلاة: (يا حمل الله الذي يرفع خطية العالم، ارحمنا؟). كلا البتة، إتهم لا يفعلون ذلك مطلقاً. وهؤلاء المحترمون يسيرون معنا في طريق الكنيسة، وإلى حد ما في الطريق إلى الجلجثة، ولكن الحقيقة أنهم رغم ذلك لا تتوفر فيهم قط المقومات الأساسية الأولى لحياة نقية حقيقية، وهي القلب التائب والإيمان الحي بالمسيح كوسيط مساوٍ للآب. وهؤلاء رغم حنقهم على قاتلي يسوع لكنهم بغير قصد منهم يشتركون في إصدار الحكم على يسوع بالموت، لأنهم برفضهم الاعتراف بألوهيته يعدونه مجدفاً يستوجب الموت لأنه أعلن بقسم أنه بالحق واحد مع الآب، وبينما يلزمون الفريسيين لكنهم في الحقيقة يحملون نفس الإحساس من جهته لأنهم بالمثل لا يرغبون أن يعرفوا شيئاً عن يسوع الذي يحسبهم خطاة ويدعوهم لنوال خلاصه والتبرير بدمه.

والنساء اللواتي رأيناهن يتبعن المخلِّص في دموع ونحيب يقدمن مثلاً عن الإخلاص الحقيقي لأننا نلمس فيهن إشفاقاً وعطفاً على رجل الأحزان، وقد رقت قوبهن له بسبب منظر صليبه فذرفن الدموع على مرأى من العداء الذين يحيطون به. وفي كل هذا اعتراف صريح أن إنساناً بريئاً يقاد إلى الموت يستحق المحبة والإكرام وليس الاحتقار والكراهية، وماذا تطلبه منهن أكثر مما فعلته؟ والرب لم يفته أن يلتفت إليهن وهن يشاهدن آلامه في إشفاق وعطف صادق، ولماذا يلتفت إليهن؟ هل ليشكرهن وبعزيهن، أو ليتشجع عندما يراهن؟ كلا البتة، فالرب يرفض حزن النائحين عليه ويعتبره عملاً خاطئاً، ويعد دموعهن أنها بلا جدوى. إنه هو الذي استطاع في كل المواقف وتحت وطأة الآلام الشديدة أن يظهر هدوءاً تاماً لم يفقد وعيه ولم يتخل لحظة عن إظهار عطفه وعنايته بخراف بيت إسرائيل الضالة الأمر الذي قد عهد به إليه. إنه الآن يقول للنساء الباكيات اللواتي تبعته: (يا بنات أورشليم، لا تبكين عليّ بل ابكين على أنفسكن وعلى أولادكن). وهذه الكلمات الخطيرة تستحق أن نضع عليها قلوبنا. إنها توبخ بالمثل كل الذين ينحصر تعظيمهم للصليب في مجرد إظهار للعواطف الطبيعية، التي نصيبها الرفض، لأن قلباً غير تائب وبراً ذاتياً خلف هذه المشاعر الفياضة. يعتبر البعض أن دموع العطف التي ذرفت من العيون بسبب آلام يسوع نوع من البر، ويعظمونها كثيراً كعلامة على نقاوة القلب، ويجعلون منها أساساً للتعزية والرجاء، لكن هذا خطأ عظيم! وهكذا نسمع الرب يقول (لا تبكين عليّ)، فهو لا يقبل النوح والنحيب لأجله، لأنه ليس إنساناً منكوداً، وهو لا يخور تحت بطش سلطان أعظم منه، ولا يجتاز الألم بغير

إرادة الله، لأنه لو أراد لكان في مقدوره في لحظة أن يقف أمامنا بتاج مجد بدلاً من الصليب.
ترى ما هي المشاعر التي تجيش في نفسك عندما يضعك ضمن زمرة العشارين والخطاة، أو عندما يطلب منك أن تقدم له مالك أو أى صنم آخر تتعبد له؟ أو عندما يلتقي بك وعلامات الغضب بادية على وجهه وأنت تسير في طريق ملذاتك الجسدية، ويعلن لك أنك ينبغي أن تعيش لله وليس للعالم وأن تسير في طرقه وليس في طريقك الخاصة، ما هو شعورك في هذه الحالة؟ هل يذوب قلبك بالشكر العميق عند قدميّ المخلَّص عندما يأتيك الصوت "لأَنَّهُ هكَذَا أَحَبَّ اللهُ الْعَالَمَ حَتَّى بَذَلَ ابْنَهُ الْوَحِيدَ، لِكَيْ لاَ يَهْلِكَ كُلُّ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ، بَلْ تَكُونُ لَهُ الْحَيَاةُ الأَبَدِيَّةُ" (يو ٣: ١٦). آه يا أصدقائي، إلى هذه الساعة يأتي المسيح ويوجد بيننا حتى في نور حضوره يظهر فسادنا ورداءة طبيعتنا! كيف لا تفهمون إذاً هذه الكلمات (لا تبكين عليّ بل ابكين على أنفسكن)؟ في الحقيقة إن غاية ما يطلب منا في هذه المناسبة أن نبدأ بالبكاء على أنفسنا، وأن نحكم على ذواتنا وأن ندين أنفسنا معترفين بأننا مستوجبون الموت الأبدي. لقد سمعت بنات أورشليم كلمات مخيفة قيلت لهن ليس لكي يغرقن في لجة اليأس بلا رجاء، بل على العكس، فإننا نلمس فيها المحبة التي تسعى وراء الضالين وتود بسرور أن تقودهم إلى التوبة في الوقت المناسب: (ابكين على أنفسكن وعلى أولادكن) في هذا إشارة عن المصير الرهيب الذي أراه لنفسه الجمع الثائر عند جباثا، وإشارة أيضاً لجريمة إسرائيل الكبرى التي كانت السبب الرئيسي للبلاء الذي جاء عليهم فيهم بعد.

ويستطرد الرب قائلاً: "لأَنَّهُ هُوَذَا أَيَّامٌ تَأْتِي يَقُولُونَ فِيهَا: طُوبَى لِلْعَوَاقِرِ وَالْبُطُونِ الَّتِي لَمْ تَلِدْ وَالثُّدِيِّ الَّتِي لَمْ تُرْضِعْ!" (لو ٢٣: ٢٩). وياله من تصريح! فما كان من قبل يسبب حزناً وألماً شديداً وكان يعد عاراً عظيماً في إسرائيل ـ العقم وعدم إنجاب البنين ـ سيعتبر عندئذ امتيازاً يحسد عليه.
"حِينَئِذٍ يَبْتَدِئُونَ يَقُولُونَ لِلْجِبَالِ: اسْقُطِي عَلَيْنَا! وَلِلآكَامِ: غَطِّينَا!" (لو ٢٣: ٣٠) ، ويشير الرب هنا بوضوح إلى ما ورد في نبوات إشعياء وهوشع، ويمتد بصر المخلّص إلى ما بعد خراب أورشليم المروع، ويصل إلى دينونة اليوم العظيم، فأولئك الذين بإصرارهم على عدم الإيمان واستمرارهم في عدم التوبة يظهرون أنهم قد رفضوا أخلص صديق ومخلّص نفوسهم الوحيد، سيجدون أنفسهم في وضع يفضلون عليه الفناء من أن يستمروا في الوجود، وإذ ذاك سيطلبون للصخور أن تسقط عليهم لتدفنهم إلى الأبد تحت حطامها، ولكن الجبال إن كانت تقف أو تسقط فذلك بحسب إرادة الله. إن ذاك الذي ستحول لهم عدواً قد عين لهم مصيراً آخر غير الفناء، وعندئذ سيطلبون للتلال أن تسقط عليهم لتخفيهم من أمام وجه القاضي الغاضب، ولكن لا مهرب أو مفر لا على الأرض ولاتحت الأرض يمكن أن يخفيهم من نظرته الفاحصةوهو "عَيْنَاهُ كَلَهِيبِ نَارٍ" (رؤ ٣٠: ٣٠). يا لها من عاقبة وخيمة! والذي يكشف عنها ليس هو إنسان شرس يهوي الانتقام وإلا ما كان يقام وزن لتهديداته، ولكنه هو الذي في نفس الوقت الحق والمحبة، وذلك مما يجعل لهذه الكلمات التي يدعونا بها للتوبة القوة والفاعلية أكثر من أي نداء تردد صداه على الأرض... ويختم الرب كلامه لبنات أورشليم بقوله: (لأَنَّهُ إِنْ كَانُوا بِالْعُودِ الرَّطْبِ يَفْعَلُونَ هذَا،

فَمَاذَا يَكُونُ بِالْيَابِسِ؟) ولا يمكن أن نخطئ في فهم هذه الكلمات التي بها حامل الصليب العظيم نفسه كالمرآة التي تعكس غضب الله، ومن حيث أنه هو البر والحياة فهو يدعو نفسه (العود الرطب)، المجد والعز له وليست الآلام، ومع ذلك فقد تحمل عاراً وعذاباً لا مثيل له، ولكن ما تحمله المخلِّص من آلام لابد وأنها كانت من نفس طبيعة وبنفس الوصف الذي ينطق على الآلام التي ستأتي على الأشرار، وإلا ما كانت مقارنته بين آلامه والمصير الذي ينتظر الخطاة غير التائبين تعد في محلها. وإن كانت الآلام التي وقعت على المخلِّص هي مجرد شيء خفيف لا يذكر فكيف تصلح لأن تكون دلالة على ما ينتظر الذين فشلت معهم معاملات الرحمة؟

الجزء الثالث

قدس الأقداس

٤٠ـ صلبوه هناك.

٤١ـ اقتسموا ثيابه.

٤٢ـ عنوان علته.

٤٣ـ يا أبتاه اغفر لهم.

٤٤ـ المذنب.

٤٥ـ تركه لمحبة.

٤٦ـ إيلى إيلى لما شبقتني؟

٤٧ـ أنا عطشان.

٤٨ـ قد أكمل.

٤٩ـ يا أبتاه في يديك أستودع روحي.

٥٠ـ الأحداث التي تلت.

٥١ـ طعنة الحربة.

٥٢ـ قبر في الصخر.

(٤٠) صلبوه هناك

"أَمَّا الرَّبُّ فَفِي هَيْكَلِ قُدْسِهِ. فَاسْكُتِي قُدَّامَهُ يَا كُلَّ الأَرْضِ" (حب ٢: ٢٠). ليت هذه الكلمات التي نطق بها حبقوق تكون هي لغة قلوبنا ونحن ندخل إلى قدس أقداس العهد الجديد.
كان أهم يوم في إسرائيل هو يوم الكفارة العظيم، وهو اليوم الوحيد بين أيام السنة الذي يدخل فيه رئيس الكهنة إلى قدس الأقداس في الهيكل، وقبل أن يقترب إلى ذلك المكان المقدس كان عليه ـ كما يوصي الناموس ـ أن يتجرد من كل ثيابه النفيسة، وأن يتمنطق من هامة رأسه إلى باطن قدمه بثوب من الكتان الأبيض الناصع، ثم يحمل بيده إناء به دم الذبيحة ويتقدم بارتعاد ورهبة مقدسة، ويزيح الحجاب لكي يقترب في اتضاع وخشوع عميق إلى عرش النعمة ويرش دم الكفارة، وما كان له أن يبقى في المكان المقدّس وقتاً أطول مما يسمح له بأداء عمله الكهنوتي ليخرج بعد ذلك إلى الشعب ليعلن باسم الرب الرحمة والغفران لكل نفس نادمة.
وسوف نرى الآن هذا العمل العظيم يتم بكل رموزه ومعانيه العميقة في يسوع البار الذي بلا خطية والذي كان كل نظام الكهنوت في العهد القديم ـ بحسب القصد الإلهي ـ ليس سوى ظلال رمزية تشير إليه، فنراه يخفي نفسه خلف حجاب كثيف من الاتضاع والحزن الشديد، ويجعل في حفنتيه دم نفسه ليتشفع لأجلنا أمام وجه الله الآب، متمماً كل ما تضمنته خدمة الخيمة في ناموس موسى، ولن نستطيع بادراكنا أن نعي الصورة الدقيقة التي قد أتم بها هذا العمل، لكن الحقيقة المؤكدة أنه قد صنع لنا أخيراً فداء أبدياً. ونعود

مرة أخرى للطريق المؤدية إلى الصليب، ونسير بالروح مع الجمع إلى الموضع حيث يتم تنفيذ الحكم. إنهم الآن يعبرون بقبور ملوك إسرائيل المنحوته في الصخر حيث يرقد الرؤساء السابقون في لحودهم، ولكن أضواء فجر القيامة تداعب بقايا رفاتهم لحظة مرور رئيس الحياة، وبدخل الموكب وادي جهنم الذي فاح يوماً برائحة دماء الضحايا التي كانت تقدم لمولوك، ولكن لا تزال توجد جهنم أشد هولاً، ومن منا كان يستطيع أن ينجو من عذابها لو لم يكن حمل الله قد خضع للآلام التي نراه الآن يعاني مرارتها؟ ونصل الآن إلى سفح الجبل الرهيب، ولكن قبل أن نصعد فوقه دعونا نلقي نظرة على الجمع الذي يتبع في الخلف لعلنا نرى بين البغضة والكراهية التي تستعر كلهيب جهنم أية بقايا من المشاعر الطيبة والمحبة القلبية نحو المخلَّص المتألم، فتقع عيوننا على جماعة قليلة مثل كوكب شفق يطل علينا في ليلة حالكة. وأول من نعرفه من هذه الجماعة هي سالومة النقية أم (ابنيّ الرعد). إنها تريد أن تقدم لابنيها مثالاً للأمانة حتى الموت، وكلنا نعرف أن يعقوب ويوحنا قد أظهرا فيما بعد أنهما جديران بأم كهذه. وبالقرب من سالومة تسير مريم أقرب الأقربين للعذراء المطوبة، وقد صار لها هي الأخرى الشرف العظيم أن ترى ابنيها يعقوب الصغير ويوسى ضمن الرفقاء المقربين للمعلم العظيم. وهوذا نرى هناك مريم المجدلية تنتحب في صراخ شديد، وهي التي اختبرت أكثر من غيرها قوة يسوع المحررة، ذاك الذي جاء لينقض أعمال إبليس. ولكن ترى من هي تلك التي تسير في خطوات مترنحة وهي تستند على التلميذ الذي كان يسوع يحبه؟ إنها أكثر من الباقين وتغطي وجهها الذابل من الحزن. إنها أم الرب في

شدة مرارة التجربة وقد تحققت فيها الآن نبوة سمعان "وَأَنْتِ أَيْضًا يَجُوزُ فِي نَفْسِكِ سَيْفٌ" (لو ٢: ٣٥). غير أنها حينذاك لم تكن لديها أقل فكرة أن الأمر سيصير معها إلى هذه الحالة، ولكن ارفعي عينيك يا مريم! وأنت تلقين بنفسك وبكل أحزانك بين يديّ الآب الأبدي، هل تشاهدين ابنك في طريقه إلى الصليب؟ إن الاب أيضاً يرى! إن ذاك المتوج بإكليل الشوك هو ابنه كما هو ابنك. ثم انظروا إلى التلميذ المحبوب الذي وهو في حاجة إلى تعزية يحاول أن يشدد أم ربه في شدة أحزانها. يا له من منظر! ولكن كم هو أمر يدعو للتفاؤل أن نرى أن المحبة نحو رجل الأحزان لم تنقرض بالتمام من الأرض! وهي لن تنقرض أبداً، وفي هذه الجماعة الباكية نرى البذور التي دبت فيها الحياة بلمسة القدير، والتي ستنبت في المستقبل مملكة تتبع هذا المخلِّص المتألم، ومن هذه القلة سوف تنبعث جموع غفيرة لن يقدر أحد أن يعدها ليس بعد هذا الوقت بكثير.

بعد هذه النظرة العابرة إلى تابعي المخلِّص نعود نتابع سيرنا مرة أخرى مع الجمع، ولم تبق سوى بضع خطوات وتقف أقدامنا عند نهاية الرحلة الرهيبة. أين نحن الآن؟ إننا نقف على قمة جبل الجلجثة ـ اسم رهيب ـ يشير إلى أبشع مكان على كل سطح الأرض، ونرى أمامنا بقعة قاحلة جرداء خضبتها دماء القتلة والمجرمين وتغطيها عظام السفاحين ومثيري القلاقل والفتن وكل من نبذهم الجنس البشري، بقعة لعينة لا تجد المحبة مكاناً لها هناك، ولكن هناك فقط يعتلي العدل عرشه، وفي يديه ميزان وسيف، بقعة يحول كل عابر وجهه عنها بامتعاض، وهناك ابن آوي على موعد مع وحوش البرية تحت جنح الليل. هذه البقعة المليئة بالأهوال

تتحول إلى (الجبل الذي منه يأتي العون)، الذي اشتاق كثيرون من الملوك والأنبياء أن يطلعوا على أسراره. أجل، إن فوق هذا الجبل الرهيب يزهو النرجس وتنفجر ينابيع السلام والخلاص الأبدي، وعلى هذه الرابية تقوم مدينة الملجأ بأبراجهم العالية، ويلوح لنا (بيت عنيا) مكان راحتنا وسعادتنا الأبدية. لقد كان الآباء على صواب عندما قالوا إن جبل الجلجثة هو قبلة الأرض كلها، فهو مكان التقاء كل المفديين رغم ما يفصلهم بعضهم عن بعض من بقاع وبحار، لكنهم يجتمعون معاً كل يوم بالروح، ويرحب أحدهم بالآخر بقبلة المحبة... وليس أقل صواباً قولهم إن أبانا آدم قد دفن تحت جبل الجلجثة ـ فهذا الجبل هو بالحق قبر آدم، وتعني به الإنسان الخاطئ الساقط الذي يحمله كل واحد منا في نفسه والذي صلب مع المسيح في الجلجثة. وعلى هذا الجبل تختم حياة رب المجد على الأرض، تأملوه وهو الشجرة الخضراء الوحيدة بين أشجار الأرض، والوحيدة المثمرة وذات الثمر الجيد وهي تقطع بهذ الصورة، إنه أمر يناقض تماماً صفات الله إن لم يجد هذا اللغز حلاً له في الكفارة والموت النيابي! أنظروا إليه وهو مغطى بالجروح والعار الشديد ولا نكاد نميزه من المذنبين اللذين حُسب بينهما، ولكن صبراً فأورشليم هذه التي رفضته سوف تمجده بعد أعوام قليلة في صورة أطلالها المحترقة ودخانها المتصاعد كالابن الحبيب لله العلي الذي لن يقوى أعداؤه على الوقوف أمامه، وسوف ينتشر اسمه في أغلب بقاع الأرض وينادى به (المسيح مخلِّص العالم) ولكن قبل أن يحدث هذا لابد من وقوع كارثة رهيبة، فحياة العالم تنبعث فقط من موت البار، وقد دنت الآن ساعة عماده بالدم. واأسفاه! واأسفاه! ما هذا الذي يجري

هناك على ذلك الجبل المخضب بالدمار؟ أربعة رجال متوحشون تدربوا على القيام بأبشع الأعمال يحيطون بقدوس إسرائيل، ويقدمون له أولاً مشروباً مسكراً وهو مزيج من خمر ومر كما جرت العادة لكن الرب يرفض أن يشرب لأنه يريد أن يخضع لإرادة أبيه السماوي وهو في كامل وعيه، وأن يشرب آخر قطرة من الكأس الملعونة بكل إذعان. ويأخذ الجلادون حمل الله بين أيديهم ويبدأون عملهم الرهيب بتمزيق ثيابه عن جسده بقسوة وعنف، فيقف بينهم هناك وهو الذي يتسربل بالنعمة والبهاء ويترصع طرف ردائه بنجوم السماء، يقف الآن لا يغطيه شيء سوى دمه الأحمر القاني.
وبعد أن تعرى الرب من ثيابه، وكما أراد الله، لم يتركوا عليه شيئاً سوى إكليل الشوك الذي يكلل هامته، ثم يمددونه على الخشبة لتزرف دماه عليها، هكذا، وبغير علم منهم، تمموا ما كتب عنه حيث نسمع المسيا يقول بالنبوة: "لاَ تَتَبَاعَدْ عَنّي، لأَنَّ الضِّيقَ قَرِيبٌ، لأَنَّهُ لاَ مُعِينَ. أَحَاطَتْ بِي ثِيرَانٌ كَثِيرَةٌ. أَقْوِيَاءُ بَاشَانَ اكْتَنَفَتْنِي." (مز ٢٢: ١٢). ويا له من فراش أعد ليموت عليه ملك الملوك.
يا أصدقائي، في كل مرة ننعم فيها بالراحة على وسائد سلام الله الوثيرة، أو نجتمع في شركة المؤمنين والسعادة تملأ قلوبنا مترنمين بترانيم الرجاء ليتنا لا ننسى أن سر هذه السعادة يوجد فقط في هذه الحقيقة أن رب المجد قد تمدد على خشبة الموت لأجلنا.
انظروا ذراعيه المقدّستين تُشدان بقوة وعنف على ذراعي الصليب، والقدمين توضعان فوق بعضهما مثلما ربط اسحق مرة فوق الحطب على جبل المُريا. لكن الصوت الذي نادى من السماء حينذاك قائلاً: "لاَ تَمُدَّ يَدَكَ إِلَى الْغُلاَمِ" (تك ٢٢:

١٢)، هذا الصوت صامت في الجلجثة. ويمسك الجلادون بالمطرقة والمسامير، ولكن من يستطيع أن يحتمل رؤية هذا المنظر؟ وتوضع المسامير الرهيبة كأنها محماة في كور الجحيم على على يديّ وقدميّ يسوع البار، وتنهال ضربات المطرقة الثقيلة، ألا تسمعون الصوت؟ إنها تهز قوبكم برعدها، وهي تشهد في أسلوب مرعب عن خطاياكم وفي نفس الوقت عن غضب الله القدير. استيقظ يا من أنت نائم في خطاياك، وتنبه أنت أيضاً يا من هجعت في طمأنينة جسدية! كم من قلوب متكبرة قد انكسرت في توبة حقيقية بسبب هذه الضربات! فماذا لا ينكسر قلبك أنت؟ واعلم أنك قد ساهمت مساهمة فعالة في تلك الضربات، وأن أبشع جرم قد ارتكبه العالم قد أضيف إلى حسابك.

لقد شقت هذه المسامير صخرة خلاصنا ففاضت بماء الحياة، أجل، لقد ثقبت الصك الذي كان ضداً لنا مسمرة إياه بالصليب، وعندما نفذت في جسد البار دخلت أيضاً في رأس الحية القديمة، فلا يتعثرن أحد من جهة ذاك الذي قد سمر بالصليب هكذا! فتلك اليدان يمكنهما أن تباركا كما لو كانتا بغير قيود، إنهما يدا مهندس بارع يضع تصميم كنيسة أبدية، إنهما يدا جبار يستطيع أن يأخذ الأسلاب من القويّ وينتزع الغنيمة من يد العاتي، فلا أمل في معونة أو خلاص إلا في هاتين اليدين. كما أن هاتين القدمين الدامتين تدوسان بعز واقتدار كما لو كانتا بغير أغلال تربطهما، وليس في العالم نبع بفيض أو أرض تزهر إلا تحت آثار هاتين القدمين. ويسير العمل الذي ليس له نظير في البشاعة وتتحقق الكلمات التي وردت في المزمور كاملة: "ثَقَبُوا يَدَيَّ وَرِجْلَيَّ" (مز٢٢: ١٦). وبعد ذلك تقرب قاعدة الصليب من الحفرة المعدة لها،

ويمسك رجال أقوياء بحبال ربطت بقمة الصليب ويشرعون في الجذب، والصليب يرتفع إلى أعلى حاملاً الذبيحة إلى أن ينتصب. وهكذا ترفض الأرض رئيس الحياة وتلفظه من فوق سطحها، ويبدو أن السماء أيضاً ترفضه. ولكننا سنترك الستار ينسدل ليخفي هذه الأهوال. شكراً لله! إنه في هذا المشهد الأليم تشرق شمس النعمة على عالم خاطئ ويصعد أسد يهوذا إلى حيث الأرواح التي لها سلطان الهواء، وفي صراع غير منظور يجردهم إلى الأبد لأجلنا.
تأملوا في هذا المشهد الذي يظهر أمامنا الآن! ففي اللحظة التي رُفع فيها الصليب تدفق من جروح يسوع المصلوب نبع أحمر قان. وهذا هو الإرث الذي تركه المسيح لكنيسته. وإننا نقدم له شكرنا العميق لأجل هذا الميراث. إن هذا النبع يمس القفار فتزهر كالنرجس، وعندما يُرش على قوائم أبواب قلوبنا تغدو في أمان من سيف الهلاك المهلك. وحيث يتساقط هذا المطر تنفتح جنة الرب ويزهو السوسن، ويبيض في النبع المطهر كل ما كان أسود، وكل ما كان مدنساً يصبح نقياً كضياء الشمس، وبدونه لا أمل في إزهار وليس نمو أو اخضرار، إنما يعم الجفاف والجدوبة والموت. هناك يقف الصليب بأسرره العميقة كصخرة تنكسر عليها أمواج اللعنة. إن ذاك الذي في غنى رحمته وضع على نفسه أن يحمل الدينونة نراه معلقاً هناك تغطية ظلمة حالكة، لكن لم يزل هو كوكب الصبح معلناً سبت راحة أبدياً للعالم. ورغم أنه مرفوض من السماء والأرض لكنه يكون الرباط المفقود بينهما، فهو وسيط المحبة الأبدية والعهد الجديد. آه! ألا ترون ذراعيه الداميتين ممدودتين على أقصاهما! إنه يمدهما لكل خاطئ، وهما متجهتان للشرق والغرب لأنه سيجمع أولاده من

أطراف الأرض. وقمة الصليب التي تتجه إلى أعلى نحو السماء تشير إلى أن الصليب سيصبح شجرة عجيبة نجتني منها ثمرة الصلح الأبدي، وليس ما نطلبه أكثر من أن يعطينا الله دموع التوبة وأن يكشف لنا بالروح القدس عن المخلَّص المتألم على الصليب وعندئذ نتحرر من كل حزن وهم أرضي ونبتهج على رجاء مجد الله. ولكي نتبرر أمامه ليس أفضل من أن نأتي في أجساسنا بعجزنا الكامل لنمسك بقرون المذبح المرشوش بالدم الذي "يَتَكَلَّمُ أَفْضَلَ مِنْ هَابِيلَ" (عب ١٢: ٢٤). وعندئذ يكشف لنا رجل الأحزان عن غنى كنوزه، ويسكب علينا بأكثر سخاء فيض البركة التي بارك بها يعقوب أبو الأسباط ابنه يوسف: "بَرَكَاتُ أَبِيكَ فَاقَتْ عَلَى بَرَكَاتِ أَبَوَيَّ. إِلَى مُنْيَةِ الآكَامِ الدَّهْرِيَّةِ" (تك ٤٩: ٢٦).
وينتصب إلى السماء رمز العهد الجديد. إنه إلى هذا اليوم يقف كالطود وسيظل هكذا إلى الأبد، وحيثما يظهر الصليب يشع حوله تأثيرات عجيبة ويكشف عن اعلانات قوية. انظروا، إن حقول الإنجيل قد اخضرت ويمتد ربيع عمل الروح فوق صحارى الوثنية! وانصتوا كيف يتردد صوت قيثارات السلام من جزائر البحر، وهوذا بين جبال الثلج في الشمال تتوهج القلوب بنيران المحبة الإلهية! كيف حدثت هذه التغيرات وأعمال عجائب القيامة هذه؟ وكيف حدث هذا الرعش في العظام اليابسة؟ إن الصليب يحملها إلى كل البقاع وحيث يخيم بظله التربة وتحيا العظام. ويصيح الرسول قائلاً "مَعَ الْمَسِيحِ صُلِبْتُ" (غل ٢: ٢٠)، وهو بهذه الكلمات يشير إلى الثمرة الناضجة التي يحملها الصليب لكل المؤمنين، وهو يعني القول: (لم تكن هي خطاياه التي بسببها تحمل اللعنة، ولكنها خطاياي، لأن ذاك الذي يموت على الصليب

إنما يموت لأجلي. فالمسيح يدفع الدين ويتحمل الألم عوضاً عني) لكن ما يفتخر به الرسول بولس لنا أن نفخر به نحن أيضاً إن كنا برباط المحبة والإيمان الحي قد صرنا واحداً مع يسوع المصلوب وشركاء أمجاد صليب المسيح. بمعنى أن طبيعتنا الفاسدة قد دينت للموت مع إنساننا العتيق بأهوائه وشهواته. وهكذا نرى صليب الجلجثة يكشف النقاب عن ضيائه المانح للسلام، وينعطف فوق رؤوسنا كالقوس في السماء غب المطر ليبدد الظلمة ولتقدمنا في طريق الألم بعمود نار. آه ليت ضياءه الصافي يسطع دائماً على طريقنا ونحن نعبر وادي الدموع هذا، وليته كشجرة الحرية والحياة يضرب أصوله بعمق داخل نفوسنا، فتمتلئ حياتنا بثمار السماوية وننعم في ظله بدفء المحبة التي تملأ القلب.

(٤١) اقتسموا ثيابه

في المشهد الذي أمامنا الآن نرى توزيع تركه، ويزاح الستار عن شخص على حافة الموت، وهناك تركة وورثة، ولنقترب الآن ونوجه نظرنا أولاً إلى الموصي ثم إلى الميراث ثم إلى الورثة... والموصي كما تعلمون هو الذي يترك ميراثاً، وفي الفصل الكتابي موضوع تأملاتنا الآن نقرأ عن واحد ينطبق عليه هذا الوصف، والمكان الذي نلتقي به فيه هو في الحقيقة مكان لا يخطر ببال إنسان. نحن نقف الآن على قمة جبل الجلجثة والذين يحيطون بناهم من كبار القوم، شيوخ وكهنة وقواد مئات، وقد نظن أنه لو كان هناك موصي فلابد أن يكون واحداً من هؤلاء، ولكن ليس الأمر كذلك، أرفع عينيك وانظر إلى الإنسان الذي تنزف منه الدماء بغزارة والمعلق على الخشبة الملعونة بين شريكين له في الآلام! إن هذا

هو العار الحقيقي والحزن والضيق، بل الموت بكل ما تتضمنه هذه الكلمة من معانٍ رهيبة. ولكنكم ستذهلون عندما أخبركم أن هذا الإنسان الذي يستحق العطف وهو في شدة المذلة هو بعينه الشخص الذي جئنا لنطلبه، وتأخذكم الدهشة فتصيحون: هل هذا هو الموصي؟! نعم، ومهما بدا أمراً لا يصدق لكنه هو وليس غيره. انظروا إلى الإعلان المعلق فوق رأسه والذي أمر بيلاطس بكتابته، وصدقوني لقد كانت يد الله في الأمر، ورغم أن الكلمات تبدو أنها تناقض منظر الدماء لكنها حقيقة وليست تهكماً لا ذعاً: (يسوع الناصري ملك اليهود) وتعودون تصيحون في غمرة الدهشة: هل هذا الإنسان ملك؟ آه يا أصدقائي، إنه أكثر من ذلك وأعظم! فالكلمات التي سطرت فوق رأسه لا تفي تماماً بالغرض، ونريد أن نرفع هذه اللافته لنضع عوضاً عنها: (يسوع الناصري ملك الملوك) ولكن حتى هذا العنوان يعد باهتاً جداً. دعونا نستبدله بغيره: (يسوع الناصري ابن الله الحي، الألف والياء، البداية والنهاية، خالق وحامل كل الأشياء، المبارك من الله إلى الأبد). إنه هو الذي كان، وهو الكائن، حتى وهو يجتاز أهوال هذا الموت. كل شيء له، السماء والأرض، بهجة الفردوس، وأشجار الحياة التي على جانبي النهر في المدينة السماوية. لكن هذا المجد الذي كان منذ البدء لم يكن ممكناً البتة أن يعطينا نحن الخطاة أن نتمتع بلمحة منه بغير أن يتخطى كرامته وعظمته، لأن العدل الإلهي الذي كان ضدنا كان يعترض بشدة على أي إنعام من هذا النوع. والآن، إن كان رب السماء الغني قد أراد رغم ذلك أن يورثنا شيئاً مما يملكه، فكان من اللازم أولاً أن يفي عنا مطاليب عدل الله وقداسته بطريقة يقرها الله، وقد ارتضى أن يفعل ذلك

عندما تعهد أن يخضع نيابة عنا ويقدم الطاعة الواجبة علينا وأن يتحمل بنفسه اللعنة المعينة لنا، وكلا الأمرين ـ الطاعة واحتمال اللعنة ـ قد تممها في اللحظة التي نراه فيها الآن، وهكذا إذ حمل عنا دينونتنا بنى جسراً لعبورنا نحن الموتى التعساء لنصل إلى بهجته وسعادته.
لقد عرفنا الآن من هو هذا الموصي العظيم ـ إنه هو الإنسان الذي تنزف دماه على الصليب وهو معلق هناك لكي يرد لأبناء آدم ميراثهم الذي طردوا منه باستحقاق، ولكن ما هو هذا الميراث؟ حول نظرك من قمة الصليب إلى أسفل وسترى أربعة من مساعدي الجلادين قد خروا على ركبهم وانهمكوا في تقسيم ممتلكات الرجل وهي ملابسه ولا سواها، فيقتسمون فيما بينهم ثيابه الخارجية، ولكنهم إذ يفحصون ثيابه الداخلية تقع عيونهم على قطعة منها هي روعة في الصنع والإتقان، إذ يجدون أن القميص كله منسوج بغير خياطة من فوق إلى أسفل، وهذا الثوب رأوا من الواجب ألا يشق، فاتفقوا فيما بينهم أن يلقوا قرعة عليه، والمحظوظ الذي تقع عليه القرعة يصبح له الثوب كله من تلك اللحظة فصاعداً. دققوا النظر في هذه الزمرة من المقامرين الذين جلسوا تحت الصليب لأن ما يعملونه له معانيه. ولأول وهلة قد تظن أن الأمر أبعد ما يكون عن ذلك، ولكن إذ أن البشريين الأربعة ومن بينهم التلميذ المحبوب يذكرون ـ كما يملي عليهم الروح القدس ـ موضوع تقسيم الثياب هذا، فهذا يعد دليلاً على أهميته الرمزية وعمق معناه، وبجانب هذا فإن الجلادين عندما اقتسموا الثياب وألقوا القرعة على القميص الذي بلا خياطة إنما كانوا يتممون نبوة وردت في الكتاب قبل هذا التاريخ بأكثر من ألف عام، وهم إنما فعلوا

ذلك (ليتم الكتاب) كما جاء في المزمور الثاني والعشرين. في هذا النشيد المقدّس الذي يعد حديثاً نبوياً عن آلام حمل الله يعلن الفادي على لسان داود النبي الخواطر والإحساسات التي سيكون لها تأثيرها عليه أثناء صلبه. فقد قيل في ذلك المزمور: "لأَنَّهُ قَدْ أَحَاطَتْ بِي كِلاَبٌ. جَمَاعَةٌ مِنَ الأَشْرَارِ اكْتَنَفَتْنِي. ثَقَبُوا يَدَيَّ وَرِجْلَيَّ. أُحْصِي كُلَّ عِظَامِي، وَهُمْ يَنْظُرُونَ وَيَتَفَرَّسُونَ فِيَّ. يَقْسِمُونَ ثِيَابِي بَيْنَهُمْ، وَعَلَى لِبَاسِي يَقْتَرِعُونَ" (مز ٢٢: ١٦- ١٨). ألا تبعث هذه الأفكار التي ذكرت بروح النبوة الدهشة والعجب حتى في نفوس غير المؤمنين؟ فليس لداود أن يذكر هذا الكلام عن نفسه، لأن الوصف ينطق فقط على المتألم الذي نرى الآن أن هذه الآلام قد نسجت مع حياته. ومن ثم فإن هذا الذي تسيل دماه على الجلجثة هو الشخص العجيب الذي يعلن نفسه في المزمور أنه مخلِّص العالم. ومع أن النبوة الواردة في المزمور تضيف أهمية عظمى تقسيم الثياب الذي قد يبدو في حد ذاته تافهاً لكنها تقدم برهاناً على أن يسوع هو بالحقيقة المسيا، وسنرى أن ثمة أموراً أكثر أهمية يتضمنها هذا العمل.

ويجب أولاً أن نعرف ما هو السبب الذي لأجله قد أراد الرب أن تسطر هذه الكلمات في المرثاة النبوية التي كتبها صاحب المزمور (اقتسموا ثيابي بينهم وعلى لباسي ألقوا قرعة). فلقد أراد ذلك ليس لمجرد تسجيل حدث يبدو بسيطاً لكن ليبرهن عند حدوثه فيما بعد أن يسوع هو بالحق المسيا الموعود به. ثم لنضع في اعتبارنا أنه إنما يعبر عن إحساساته ومشاعره. وهي من ناحية تعد تأوهات نفسه بسبب الآلام ولكنها أيضاً تتضمن إحساساً بالفرح والسرور

بسبب النتائج العظيمة التي ستؤول للخطاة من وراء غراقه دماه. ولكن كيف يكون ذلك؟ طبعاً ليس سروره في تقسيم ثيابه الأرضية بين الخطاة لكن يسوع يعتبر هذا العمل رمزاً له معانيه، وينظر إليه من وجهة نظر أسمى وأعظم روحياً. قد يدفعنا ذلك لنتساءل إن كان قد ورد في الكتاب المقدس ذكر رداء قد أعده المسيح لنا؟ إن ما يذكره الكتاب المقدس عن آدم جدير بأن نعيره كل اهتمام، فقبل أن يتردى في الخطية كان يضيء في رداء أبيض من البراءة الكاملة، وكان يعامل كابن محبوب في بيت أبيه يسمح له أن يقترب إليه وأن يلقي بنفسه في أحضانه كلما شاء، وكل شيء قد أخضع له، ولذلك فاضت سعادته وبهجته كنهر لا ينضب. وكان الملائكة الأطهار رفقاءه وسلام الله طعام نفسه في كل صباح ومساء. ولكن ما أن حدث السقوط المشئوم إلا وتغيرت حالته تماماً وأصبحنا نراه هارباً ومحاولاً أن يخفي نفسه من وجه الله. وانصتوا إليه وهو يجيب على صوت الله الذي ناداه قائلاً (آدم أين أنت؟) بهذا الاعتراف الأليم "فَخَشِيتُ، لأَنِّي عُرْيَانٌ فَاخْتَبَأْتُ" (تك ٢: ١٠)، وماذا نجد في هذا الاعتراف إلا حالتنا نحن بالطبيعة؟ فعُري آدم هو عرينا. ونحن أيضاً قد تجردنا من المجد الذي به يمكننا ان نقف أمام الله، وليس لنا خيط واحد من البر نقترب به إلى الله، وقد أفنت الخطية آخر شعاع من ضياء المجد السالف الذي كان لنا. ولكنها حقيقة خطيرة ومخيفة أكثر مما نتصور، وهل نجرؤ على الظهور عراة أمام وجه إله قدّوس؟ لقد أحس قايين أنه عريان في نظر الله فبات فريسة لليأس. ونفس الإحساس دفع يهوذا الاسخريوطي أن يهلك نفسه. وهذه الحقيقة قد عذبت سجان فيلبي وأوشك أن يقتل نفسه بسيفه. وكم من

المحاولات نراها تبذل على فراش الموت للوصول إلى شيء يمكن للناس أن يظهروا به مكتسين أمام الله؟ وكما أن وجود إله قدّوس في السماء حقيقة لا يمكن إنكارها فهكذا نحن لابد أن نطرد من حضرته إن لم تكن لنا القداسة التي نكتسي بها في نور وجهه والتي تعكس نقاوة صفاته الكاملة، ولكن أنَّى لنا أن نحصل على هذا الثوب؟ لا يمكن أن يكون من إنتاج أنوالنا، لكننا نحصل عليه بوسيلة أخرى، يقول عنها بولس "الْبَسُوا الرَّبَّ يَسُوعَ الْمَسِيحَ" (رو ١٣: ١٤)، وتقودنا هذه الكلمات إلى أعظم اكتشاف يدخل السعادة والبهجة إلى قلوبنا.

ونعود الآن إلى العسكر الذين اجتمعوا تحت الصليب ونجدهم قد انشغلوا في تقسيم ثياب يسوع الذي كاد يسلم الروح، وإذ ذاك لم يكن محظوراً عليهم أن يرثوا ممتلكاته. وتشير الثياب الخارجية إلى حياة المخلَّص العملية في ملء قوتها وبمعنى آخر فيض البركة التي أعدها لنا، وهذه يمكن تقسيمها، وهي أيضاً تبدو مقسمة بين مجتمع القديسين الواحد يعطى له الكثير، والأخر قليل. للواحد تعطى موهبة معرفة وللآخر نبوة بالروح الواحد، وللثالث عمل قوات، وللرابع تمييز أرواح. ولكن الحصول على مقياس كبير من هذه المواهب الروحية لا يسبق خلاص الإنسان بل يأتي بعد الخلاص. لكن هناك نوعاً آخر من الميراث لا غنى عنه لكل واحد لكي ينجو من الدينونة ونجد رمزه في أيدي العسكر تحت الصليب. فبالإضافة إلى ثياب الرب الخارجية وقع من نصيبهم كنز آخر وهو الجزء الرئيسي العجيب من الميراث ألا وهو القميص الذي كان يلبسه رجل الأحزان تحت الرداء، وهذا القميص كان من المحتم أن يلبسه رئيس الكهنة عند

دخوله إلى قدس الأقداس في يوم الكفارة العظيم. لقد وجد هذا الثوب الكهنوتي ضمن ثياب يسوع وقد ورثه واحد من قاتليه، وأصبح بجملته ملكاً له بغير أن يقسم، وهذا له معناه العميق فكل ابن من أولاد الله يجب أن يعرف أنه يقف هنا أمام أسرار عميقة تخفي أموراً هامة وعظيمة. لقد كان المخلِّص يرتدي ثوباً آخر تحت ردائه البهي من حياة عجيبة مثمرة ونافعة. وهذا هو قميص الطاعة الكاملة إذ خضع لإرادة الآب وهو في شدة الألم والموت، لم يكن ناقصاً في شيء، وقد فحصته وتأملته عيون كثيرة من البشر والملائكة والشياطين، والكل قد امتلأوا دهشة وعجباً من منظره. وحتى عين الآب نظرته بمزيد من السرور، وجاء الصوت من السماء معلناً: "هذَا هُوَ ابْني الْحَبِيبُ الَّذِي بِهِ سُرِرْتُ" (مت ٣: ١٧). إنه قميص منسوج بجملته من خيوط ذهبية من المحبة النقية لله المتأنس، بلا عيب وبلا خياطة بل منسوج كله في قطعة واحدة، وهو رداء بر ابن الله الذي يرمز إليه بقميص منسوج بغير خياطة والذي كانت القرعة تلقى عليه تحت الصليب. وقد نتساءل في دهشة: (هل هذا أيضاً ضمن تركة يسوع للخطاة؟). نعم بدون شك. لنسمع قول الكتاب: "لأَنَّهُ كَمَا بِمَعْصِيَةِ الإِنْسَانِ الْوَاحِدِ جُعِلَ الْكَثِيرُونَ خُطَاةً، هكَذَا أَيْضًا بِإِطَاعَةِ الْوَاحِدِ سَيُجْعَلُ الْكَثِيرُونَ أَبْرَارًا." وأيضاً: "كَمَا بِخَطِيَّةٍ وَاحِدَةٍ صَارَ الْحُكْمُ إِلَى جَمِيعِ النَّاسِ لِلدَّيْنُونَةِ، هكَذَا بِبِرّ وَاحِدٍ صَارَتِ الْهِبَةُ إِلَى جَمِيعِ النَّاسِ، لِتَبْرِيرِ الْحَيَاةِ." (رومية ٥) فهو لم يدبر لنا فقط غفران الخطية ولكن ما هو أكثر وأعظم. وهكذا يشهد الرسول بولس أن الرب قد أرسله إلى الشعب "حَتَّى يَنَالُوا بِالإِيمَانِ بِي غُفْرَانَ الْخَطَايَا وَنَصِيبًا مَعَ الْمُقَدَّسِينَ." (أعمال ٢٦: ١٨). نقرأ هنا عن أمرين: غفران

الخطية الذي يعطينا الضمان للنجاة من العقاب الذي نستحقه ويسكب علينا من الناحية السلبية بركة الخلاص من الدينونة، ولكن بحسب إرادة إله رحيم ينبغي من الناحية الإيجابية أن ننال المجد والبركة والبهجة، ولأجل ذلك صرنا في حاجة ليس فقط غلى البر الذي يجعلنا نحيا حياة نبيلة وشريفة بل إلى ما هو أكثر من ذلك لنبتهج بإله قدّوس. ولقد أعد المسيح لنا هذا أيضاً بإتمامه مطاليب الناموس كنائب عنا. وإذ قد جعل طاعته الكاملة هذه التي لا نظير لها أمام عيني أبيه السماوي أصبح الآب ينظر إليها وكأنها صادرة منا، وإذ نتمسك بها بالإيمان تصبح ملكاً لنا وتجعلنا نضم صوتنا مع النبي في أغنيته: "فَرَحًا أَفْرَحُ بِالرَّبِّ. تَبْتَهِجُ نَفْسِي بِإِلهِي، لأَنَّهُ قَدْ أَلْبَسَنِي ثِيَابَ الْخَلاَصِ. كَسَانِي رِدَاءَ الْبِرِّ، مِثْلَ عَرِيسٍ يَتَزَيَّنُ بِعِمَامَةٍ، وَمِثْلَ عَرُوسٍ تَتَزَيَّنُ بِحُلِيِّهَا. لأَنَّهُ كَمَا أَنَّ الأَرْضَ تُخْرِجُ نَبَاتَهَا، وَكَمَا أَنَّ الْجَنَّةَ تُنْبِتُ مَزْرُوعَاتِهَا، هكَذَا السَّيِّدُ الرَّبُّ يُنْبِتُ بِرًّا وَتَسْبِيحًا أَمَامَ كُلِّ الأُمَمِ." (إشعياء ٦١: ١٠، ١١).

ولنتحول الآن عن الميراث لنلقي نظرة عابرة على الورثة، فمن هو الذي ورث الثوب الثمين؟ إن واحداً من القتلة الجالسين تحت الصليب هو الرجل المحظوظ، وهذا يبيّن لنا أنه بحسب فكر الله لا يوجد إثم مهما كان عظيماً يحرم صاحبه من الميراث. فنجد أولاً أن هؤلاء الرجال قد عرفوا قيمة القميص الذي بغير خياطة، ثم لقد عرفوا أن قيمته هي في كونه غير منقسم، وأخيراً لقد وثقوا أن أحداً منهم سيصبح مالكاً للثوب الثمين بجملته مجاناً وبغير مقابل، ومن ثم فهذا لا يرجع لأي استحقاق في أي واحد منهم. ينبغي أن نعرف أننا خطاة مساكين كما نعرف مطالب الله منا، ولتكن لنا الثقة

أننا نتبرر بالنعمة وعندئذ فإن الأمور الرمزية التي حدثت تحت الصليب سوف تتحقق معنا. وكم كانت بهجة وارث الثوب الذي بغير خياطة بالجائزة التي ربحها! ونحن قد ورثنا الرداء الذي يجعلنا موضوع مسرة الله، فهل بعد ذلك تبقى أوتار قيثاراتنا ساكنة؟ مما لاشك فيه أن الرجل المحفوظ قد ارتدى الثوب سريعاً وأصبح يلبسه من ذلك الوقت فصاعداً، ليتنا إذاً ننتفع من الإشارة الواردة في كلمة الله (البسوا الرب يسوع لالمسيح).. لاشك أن الثوب الأرضي الذي كان يلبسه يسوع المصلوب كان له تأثيره العميق على نفس ذلك العسكري فيما بعد، فلابد أنه جعله يرتجف ويحس بالخجل مرات كثيرة، كما أن صورة الرجل الذي ورثه منه لم تبرح مخيلته، فكم تكون قوة التأثير النافع الذي يصحب بر المسيح نفسه في قلوب وحياة أولئك الذين امتلكوه بالإيمان الحي؟ وكم تكشف ثيابهم، خاصة في زمن التجربة، عن جمال وبهاء؟ فتتجه إليهم كل عين في السماء بمزيد من السرور، ويتحقق فيهم القول (كلها مجد ابنه الملك في خدرها)

ليتنا نهنئ أنفسنا بهذا الميراث الذي لا مثيل له، الذي تركه لنا ذاك الذي قضى فوق الصليب. وليت كل من صار وارثاً للمسيح يتمسك بهذا الحق أننا قد تبررنا فيه أمام الله وأن محبة الله لا تعطى لنا حسب درجة قداستنا الشخصية، ولنردد على الدوام كلمة سر الإيمان التي بها نغلب العالم (يهوه صدقينو ـ الرب برنا).

(٤٢) عنوان علته

لنرفع أنظارنا لنتطلع إلى اللافته المعلقة فوق الصليب حيث نقرأ مكتوباً عليها (يسوع الناصري ملك اليهود) في ثلاث

لغات مختلفة ـ يونانية ولاتينية وعبرية، وهي اللغات اللاهوتية الثلاث، حتى يقرأها ويفهمها العالم كله. ولقد أمر بيلاطس بكتابتها على هذا النحو مدفوعاً من جهة بهاتف داخلي مقدّس، ومن جهة أخرى ليصفع اليهود المكروهين لطمة أخيرة. ولم تكد عيونهم تقع على اللافته حتى أسرعوا إلى الوالي يقولون له بلهجة متغطرسة: لا تكتب ملك اليهود بل إن هذا المجدف المصلوب قد ادعى أنه هو ملك اليهود. ولكن بيلاطس أجابهم باختصار وإصرار: (ما كتبت قد كتبت). نعم، كان ينبغي أن يكون كذلك يا بيلاطس، وما كتبته لم يكن من محض اختيارك لكن آخر كان يقودك ويوجه يدك، ولقد تنبأت مثلما فعل بلعام في القديم، وبهذه اللافته التي كتبتها قد صرت بغير أن تعلم وبدون إرادة منك شاهداً للحق.
هل تريد أن ترى ملك إسرائيل؟ هلم يا صديقي واتبعني إلى جبل الجلجثة المخضب بالدماء. ألا ترى ذلك الرجل المعلق على الصليب وهو يموت موت المجرمين؟ وتأخذك الدهشة وتقول (هل هذا ملك؟) لكن لا تهز رأسك بل أعلم أنك أنت الذي ينقصك الإدراك وليس هو الذي ينقصه العز والجلال. تتبع من الأول خدمة اللاويين القديمة وتأمل في المشهد المثير. أشعل مصباحك في مزامير داود حيث تسمع ملكاً عظيماً يقول: (ثقبوا يدى ورجلى، يجعلون في طعامى علقماً وفي عطشى يسقونى خلا)، ومع ذلك فهو لا يزال ملكاً. واصغ إلى إشعياء وهو يتكلم عن واحد (مجروح لأجل معاصينا) ولكن رغم ذلك فإن(الرئاسة على كتفه، وليس لملكه نهاية) ثم اقرأ في نبوة زكريا يا قوله: (استيقظ يا سيف على راعي وعلى رجل رفقتي) ثم اسمعوا صوت الصارخ في البرية الذي جاء ليعد الطريق أمامه (هوذا حمل

الله الذي يرفع خطية العالم) ثم عُد إلى الجلجثة بهذه الأضواء، وقل إن كنت لا تزال متعجباً من الإعلان المعلق على الصليب الذي في الوسط (يسوع الناصري ملك اليهود). إن سحابة من الشهود القديسين تحيط بالصليب بكل إجلال، من آباء وأنبياء وشعراء وحكماء وملوك وكهنة، كل هؤلاء لم يضلهم منظر المضرج بدمائه، وبغير أن يبدوا غرابة يقرأون اللافته بكل احترام وتعظيم (يسوع الناصري ملك اليهود). ألا تزال تتساءل عن عظمة هذا الملك؟ لا تتعثر بسبب السحابة القائمة التي تخفيه، لأن عين الإيمان تنفذ من خلالها لترى رؤساء ملائكة ووجوه السيرافيم تنتظم حوله في عقد مثل قوس قزح، وممن يتألف ذلك الجمهور اللامع الذي يقف على بعد في الوطن السماوي وهم ينحنون في احترام ويجثون على وجوههم تحت ظلال أشجار الحياة؟ إنهم قدّيسو العلي الذين ورثوا المملكة قبل أن ينزل رب المجد إلى الأرض، وهم الآن يبصرونه وهو يقدم عنهم الفدية التي وعد بها ليدعم مساكن السلام التي يسكنونها بدعائم العدل. وانظروا بالروح إلى ما هو أبعد من ذلك، جموع الناس من كل جيل وأمه وعيونهم تحملق باهتمام إلى الصليب ووجوههم تعبر عن سلام مقدّس وتنطق في صمت بالبركة التي نالوها. من هم الذين يحيطون بالجبل الرهيب في صفوف لا حصر لها؟ إنهم كنيسته وشعبه المفدي، ومن بينهم أنبل وأشرف من في الجنس البشري في كل الأجيال. انظروا المجامر في أيديهم وهم لا يريدون إلا أن يسمعوا ويعرفوا عن الحمل المذبوح. أجل، إنه هو! وتستطيع أن تعرفه بالانتصارات التي يسجلها حتى وهو على خشبة الموت، إذ يهاجم بإغراءات قوية تأتيه في شكل إهانات وتعييرات من الشعب الذي يصرخ قائلاً:

(خلّص آخرين وأما نفسه فما يقدر أن يخلصها، إن كان هو ملك إسرائيل فلينزل الآن عن الصليب فنؤمن به). وكم هو هجوم غادر أثيم؟! وانظروا كيف يأتي هذا التحدي الصارخ متفقاً مع مطاليب طبيعته البشرية المتألمة! ولو كان قد انصاع له ما كان الأمر قد توقف عند مجرد تخلّصه سريعاً من العذاب، بل إن جمهور الأعداء المجدفين كانوا قد هربوا من المشهد بصورة لم تحدث قط، ولكانوا قد اقتنعوا بألوهيته بكل تأكيد أكثر مما حدث فيما بعد عند قيامته من الأموات. إنها فكرة مغرية أن يصفع الجمع الهائج ضده لطمة تبكمه ويجعلهم يسقطون على وجوههم أمامه في التراب! ولكن حاشا له أن يقتنع بفكرة كهذه! إنها فخ وشرك وضعه القناص الماهر. ضخرة عاتية تحت سطح الماء تتحطم عليها كل آمال الفداء قبل أن يتم. ويدرك يسوع الحبائل الجهنمية فيقول بالروح: (اذهب عني يا شيطان، لن أنزل عن الصليب، بل سأنزف دمي وأقدم نفسي وأدفع أجرة الخطية) وفي صمت أبلغ من الكلام يرفض الصوت ويتحمل العذاب بغير أن يحيد عن طريقه قيد شعرة.

إن ذلك الرجل المتوج بإكليل الشوك وهو الذي يهدد سلطانهم، ولم تدع الجحيم وسيلة إلا واستعملتها ولم يبق بعد في جعبتها سهم يعطي أملاً في الانتصار. إن الأسد الخارج من سبط يهوذا ينزف دماً، لكن دمه هو الذي سيطيح بالأعداء. إنه يسقط في أيدي مقاوميه، لكن هذه هي الوسيلة لإنقاذنا من أيديهم. إنه يدعهم يقيدونه بربط بليعال، ولكن هذه القيود هي التي ولدت حريتنا. إنه يشرب كأس الغضب حتى نهايتها ليملأها بالبركات لأجلنا، ويترك نفسه ليجرح في عقبه ولكنه في نفس الوقت يسحق رأس الحية

القديمة ويهزم العدو بموته. وثمة نصر آخر قد أحرزه على الصليب وهو أعظم وأعجب الكل، وإني اسميه انتصار معطي الناموس على الناموس. فلم تكن السماء تنقصها الرغبة والإرادة لخلاصنا، هذه كانت متوفرة ولكن حق القيام بهذا العمل العظيم لم يكن متوفراً، لأن الناموس المقدّس الذي لا تُمس كرامته كان هو الذي يوصد باب مخازن الرحمة الإلهية، وقد قدم الناموس اعتراضه على فدائنا وكان يحتج قائلاً: (بدون سفك دم لا تحصل مغفرة) والله نفسه، لكي لا ينقض عدله، كان مقيداً بهذا الاحتجاج. لكن الحكمة الإلهية تمكنت من أن تفك القيود، ونزل الابن الأزلي من السماء ليحول رفض الناموس إلى موافقة، وقد ارتضى أن يموت (تحت الناموس) وقد تممه كنائب عنا، ومن ثم أصبح قادراً أن يقف ويقول: (من منكم يبكتني على خطية) ولكن حتى هذا لم يرفع السدود من طريق الرحمة الإلهية، لأن اللعنة لابد أن تقع، لأننا قد صرنا مستوجبين لها بسبب التعدي على الناموس. وقد تحمل الرب هذه أيضاً وتجرع كأس الغضب ولم تبق قطرة وعندما جاء صوت الرحمة من السماء لم يكن للناموس ما يعترض به. وسلم العدل الإلهي الصولجان لأخته الجليلة (المحبة) بغير أي تعد على هيبته، ونحن نعلن إعجابنا بهذا الانتصار على الناموس عن طريق العدل، وبكل إجلال واحترام نقرأ هذا العنوان: (يسوع الناصري ملك اليهود).
يا أصدقائي، لقد اقترب الوقت لكي لا نعود نقرأ هذا العنوان على الصليب ولكن في حروف لامعة منقوشة على رداء الغالب عند دعوته. وليت أحداً منا لا يكون مضطراً أن يقول

للصخور (اسقطي عليّ) وللآكام (غطيني) بل نقابله كلنا بهتاف الفرح والابتهاج، ونادي به رباً على الكل!

(٤٣) يا أبتاه اغفر لهم

شغب وضجيج يجتاح الجلجثة! العتييرات تنهال على القدّوس، ولكن لاحظوا أن عبارات السخط التي ينفثونها، إذا ما فحصت في النور، نجدها تتضمن اعترافات مشرفة عنه، فيقولون: (خلّص آخرين أمّا نفسه فما يقدر أن يخلّصها). وفي الحقيقة أن هذا الاعتراف الصريح من جانب أعدائه يعد في غاية الأهمية، حيث يقدم من جديد أدلة تاريخية عن أعمال يسوع الخلاصية كما هي مسجلة في البشائر. ثم يقولون: (لقد اتكل على الله)، ويتضح من هذا القول إن طبيعته الإلهية السماوية قد انطبعت بوضوح على كل هيئته الخارجية حتى أنها لم تعد بعد تخفي حتى هؤلاء الأشرار. (لأنه قال أنا ابن الله، فلينقذه إن هو أراده). ولا نجد في هذا القول إلا نداء قوياً لنا لنصغي إلى برهان جديد يأتي على فم خصومه الحانقين، إن الرب قد أعلن أنه هو ابن الله، وإذ ذاك فلم يجعل نزوله من السماء سراً مخفياً... ويعودون يصرخون بأكثر قوة: (يا ناقض الهيكل وبانيه في ثلاث أيام خلّص نفسك)، ولاحظوا هنا كيف يؤكدون ما سبق أن أعلنه بخصوص قيامته من الأموات، وبنفس الطريقة يعنفونه قائلين: (لينزل الآن المسيح ملك إسرائيل عن الصليب)، وبذلك يثبتون الحقيقة أن المخلَّص قد انطبقت عليه هذه الصفة، أنه ملك، في ظروف كثيرة.

ولكن انظروا إن شفتيه تتحركان، إنه يريد أن يقول شيئاً. وماذا عسانا أن نسمع منه؟ تطلعوا إنه يفتح فاه، ولكن هل

نستطيع أن نصدق آذاننا؟ إنه يقول (يا أبتاه اغفر لهم!). هل هذه الصلاة لأجل عبيد إبليس الذين سمروه بالصليب، أولئك الوحوش الذين لا قلب لهم الذين لا يزالون يمزقون جسده بمخالبهم المسممة؟ نعم، حتى هؤلاء يعنيهم في شفاعته، ولأجلهم يطلب الرحمة والغفران. وهذا يجعلنا نطأطئ رؤوسنا بكل إجلال، أي روح هذه؟ (يا أبتاه اغفر لهم!) وكم تنطوي هذه الكلمات على ما هو أروع من أعظم المعجزات التي تميّز بها طريقه وسط العالم. إنه يغطي رؤوس قاتليه الفجار بغطاء محبته لكي يحميهم من عاصفة غضب الله العظيم العادل، وبهذه الكلمات التي لابد أنها كانت مثار الإعجاب والتقدير حتى في نفوس الملائكة نراه يحمل هؤلاء المذنبين على أذرع محبته ويصعد بهم فوق درج عرش أبيه ليسأل الرحمة لأجلهم. وعندما يقول (اغفر) فهذه تشمل كل سجل خطاياهم، وهو يعني بها (اطرح تاريخهم الحافل بالشرور في أعماق البحر، ولا تعود تذكر تعدياتهم فيما بعد، ولكن احسب هؤلاء الخطاة من الآن فصاعداً أعزاء في عينيك، وبلطفك عاملهم). وهي حقيقة لها معناها العميق، إن الرب بهذه الصلاة يبدأ سلسلة الكلمات السبع التي نطق بها على الصليب. (اغفر لهم) إنها تميط اللثام عن الرأفة والشفقة المتناهية التي يحملها بين جنبيه وتنقض كوميض من البرق في حلكة ليل الآلام، كما أنها تزيح الغموض الذي يكتنف قدّوس إسرائيل وهو يقف كوسيط ورئيس كهنة. وتصيحون في دهشة (رئيس كهنة)؟ ولابد أنكم تحسون بأنها جسارة منه أن يرفع صلاة كهذه، وإن لم نضع في الاعتبار عمله الإلهي العجيب فإن طلبته هذه تُعدّ محاولة لقلب دعائم عرش الله وهي العدل والقداسة، فكيف نتصور

الإله القدّوس يتعامل مع الخطاة؟ وهل يستطيع أن يقول غير هذا القول (ابعدوا عني يا ملاعين)؟ وما الذي ننتظره من إله عادل أن يعمله مع الذين تعدوا وصاياه؟ إن كان لا يتصرف ضد طبيعته فلابد أنه يكافئ كل واحد حسب أعماله، وهل يمكنه وهو الإله الحقيقي واضع الناموس والذي ينادي بالدينونة على كل من يتعدى وصاياه أن يعفو في نفس الوقت عن أولئك الذين داسوا ناموسه بأقدامهم، ولا يكون قد كسر كلمته وتراجع في إنذاراته؟ ورغم ذلك، فإن صلاته في طلب الغفران ترفع أجنحتها فوق جبل الآلام، وتنفذ خلال كل الحواجز والموانع الأبدية، وتنحي جانباً جبل سيناء وعيبال، وتحلق في جرأة منقطعة النظير فوق الأسوار المنيعة من الإنذارات الإلهية العديدة التي كانت تسد الطريق أمام الخطاة للدخول إلى المساكن العلوية، وتأتي أمام العرش لتطلب الصفح للمجرمين والمجدفين والقتلة بل والسماح لهم بالدخول إلى مواطن أولاد الله المحبوبين. هل تفعل صلاة المخلَّص كل هذا وتظل صحيحة وجائزة؟ نعم، إنها صحيحة وجائزة، وتستند إلى أساس ثابت، ولها حق الاستجابة. إن رحمة المحبة المتشفعة على الصليب هي في نفس الوقت ناموس خاضع لأحكام الله وشرائعه، أما جسارتها فتبدو ظاهرية فقط لأنها في الحقيقة تعرف ما تعمله. وبينما تطلب الغفران من ذلك الذي ليس عنده تغيير ولا ظل دوران فهي على دراية بكل خصائص بيت الله، وبينما تطلب البركة والخلاص لأجل الذين يدينهم النامس ويحكم عليهم بالقيود الأبدية تحت الظلام فإنها لا تقدم التماسها إلى إله ظالم مستبد ولكنها تتشفع أمام عدل ورحمة الله، وصلاتها لا تنحي جانباً شيئاً من شريعة الله وفرائضه ولكنها

تبقى عليها جميعاً بغير أن تنقص شيئاً منها، فهي أبعد ما تكون عن الرغبة في أن ينكر الله القدير نفسه أو كلمته ولكنها على العكس تضع نصب عينيها مجد الله كغرض سامٍ وغاية تسعى إليها. ولكن هل يمكن أن يظل الله محافظاً على صفاته الأدبية الكاملة إن كان يسبغ على المجرمين إحسانه؟ نعم، إنه يستطيع ذلك، وهذا هو بعينه سر التقوى العظيم الذي يفك الإنجيل ختومه، ونحن نقترب منه هنا بالإيمان. إن يسوع الذي يصلي هنا لأجل قاتليه يقف في مكانهم كنائب عنهم، فإن كانوا قد كسروا وصاياه الناموس فهو باعتباره الضامن قد تمم الناموس نيابة عنهم. هل هم مستوجبون الموت؟ إنه هو الحمل الذي يسلم نفسه ليكون ذبيحة خطية لأجلهم ولن تعود الخطية تُنسب إليهم وإن كانوا قد جلبوا على أنفسهم لعنة الناموس فهو الوسيط الذي كتب عنه "اَلْمَسِيحُ افْتَدَانَا مِنْ لَعْنَةِ النَّامُوسِ، إِذْ صَارَ لَعْنَةً لأَجْلِنَا" (غل ٣: ١٣). وإن كانوا بحسب دينونة الله قد سلموا إلى قوات الظلمة لكنه يقدم نفسه ذبيحة اختيارية ليتعرض لسهام الشرير الملتهبة. ومن ثم فإن الفدية، والكفارة، والوساطة هي الكلمات الخطيرة التي توضح أساس التبرير بشفاعة يسوع، فالعالم كله ينبغي أن يصمت وكذلك الجحيم إن كان الله في إحسانه يقبل المجدفين والمجرمين الذين وقف يسوع في الثغرة لأجلهم متمماً كل مطالب وفرائض القدس الأبدي، وليس للعدل أن يعود ويعترض إن كانت المحبة تضم الخطاة لصدرها وتفيض عليهم بركاتها... ونستطيع الآن أن ندرك قوة هذه الصلاة (يا أبتاه اغفر لهم) التي رفعها رئيس الكهنة العظيم وهو في قدس الأقداس في نفس اللحظة التي فيها يفي ديون الأثمة. إنه يثبت

للجميع ولعالم خاطئ أن ارتفاعه على الصليب كان لأجل هذا الغرض عينه، ومن ثم فإن السر الحقيقي لآلامه ينبغي أن نفتش عليه هنا، ولذلك فبينما تنزف دماه لأجلهم يرسل إلى السماء هذه الطلبة التي لا تقيد بشرط طالباً الرحمة لأجل أشر الخطاة. ولكن كيف يلتمس الرب الرحمة لأجل هؤلاء الأشرار القساة؟ لاحظوا أن الذين بعنيهم ليسوا بأي حال من الأحوال متقسين لأن الذين ارتكبوا (الخطية التي للموت) ليس لهم بعد أي نجاة أو خلاص، ويوصي الرسول أن لا نصلي لأجل هؤلاء الخطاة، ولكن الرب يعلم جيداً ما يفعله، وعلى الرغم من أنه يقول في البداءة (اغفر لهم) التي يظهر فيها التعميم لكنه في الحال يحدد كلماته حتى لا تشمل مثلاً شخصاً كيهوذا، فمما لاشك فيه أن كثيرين من رؤساء الشعب قد استبعدوا من نوال نتائج هذه الصلاة الشفاعية.
وإذ يضيف هذا القول (لأنهم لا يعلمون ماذا يفعلون) يضع بذلك حدوداً لصلاته، وبه ينتخب الرب من بين الجمع الذي يحيط به أولئك الذين قد يكون من بينهم السواد الأعظم من الذين صلبوه... وأخيراً فإن هذه الكلمات (لأنهم لا يعملون ماذا يفعلون) تحمل في طياتها نبوة عن التوبة في المستقبل وخلاص أولئك الذين صلى المسيح لأجلهم لأنه أيضاً بهذه الصلاة يعطيهم دافعاً قوياً للتوبة وحافزاً لتغيير الفكر، تطلعوا قليلاً أمامكم وسوف تبصرون أولاً في قائد المئة الروماني الواقف عند الصليب، هو حامل سلاحه، بدء تحقيق هذه النبوة. ثم تأملوا الجمهور العائد من الجلجثة وهم يقرعون صدورهم، وعلى الأقل قد أظهروا دليلاً على التوبة الصادقة، وبكل تأكيد كان بينهم البعض ممن لأجلهم قد رفعت الصلاة (يا أبتاه اغفر لهم) ولكن إن لم تكن هذه

النبوة قد تحققت في هؤلاء فهي بالتأكيد قد تحققت في الثلاثة الآلاف الذين نخسوا في قلوبهم بكلمات الرسول بطرس يوم الخمسين عندما خاطبهم قائلاً: "اللهَ جَعَلَ يَسُوعَ هذَا، الَّذِي صَلَبْتُمُوهُ أَنْتُمْ، رَبًّا وَمَسِيحًا" (أع ٢: ٣٦). ويقول الكتاب إنهم لما سمعوا "فَلَمَّا سَمِعُوا نُخِسُوا فِي قُلُوبِهِمْ، وَقَالُوا لِبُطْرُسَ وَلِسَائِرَ الرُّسُلِ: مَاذَا نَصْنَعُ أَيُّهَا الرِّجَالُ الإِخْوَةُ؟". نعم، لقد كان هؤلاء هم الذين لم يعلموا ما فعلوه، ولكن الآن قد صار الأمر واضحاً لهم. آه عندما تذكروا القول (يا أبتاه اغفر لهم،) كم أثر في قلوبهم ودفعهم للاتضاع! وكيف أذابت هذه المحبة قلوبهم! واأسفاه! واأسفاه! لقد سمروا مخلّصهم ومحررهم الوحيد بالصليب! وهكذا فإنه بهذه الطلبة (يا أبتاه أغفر لهم لأنهم لا يعلمون ماذا يفعلون) لم يقرب الرب أسس العدل الإلهي، ولم يغير أسلوب النعمة الذي وضع أساسه مرة لأجل الجميع، لأن العدل حُفظت له هيبته بواسطة كفاية الابن الوحيد، وخطة الخلاص قد تمت برمتها في توبة وتغيير أولئك الذين رفعت هذه الصلاة الشفاعية لأجلهم.

دعونا إذاً نبتهج لأن أشهي البركات وأعظمها ـ غفران الخطيةـ تُقدم لنا في ملئها، لأنه ماذا تغني كل كنوز العالم إن كنا لا نعلم أن أسماءنا قد كتبت في السماء، وأن لنا ميراثاً هناك؟! غير أن هذا الغفران المقدّم على الصليب على الرغم من أنه دائماً عطية النعمة المجانية لكنه يحجز إلى الأبد عن أولئك الذين يعلمون ماذا يفعلون ومع ذلك يرفضون أن يقدموا قلوبهم للمسيح، فاستيقظ إذاً من نوم خداعك المميت، واعترف بالخطية التي تحيط بك بسهولة ثم أسرع بكل ندم وإيمان إلى صليب المسيح، مكرّساً نفسك

وجسدك وروحك لذاك الذي أحبك وأعطى نفسه عوضاً عنك، فهذا هو الطريق المؤدي إلى الحياة.

(٤٤) المذنب

مرة أخرى نرفع أنظارنا لنتطلع إلى الثلاثة المعلّقين على الصلبان، إنهم موضوع تأملاتنا الآن، إنهم يتشابهون في حالتهم، وكل منهم قد وصل الآن إلى نهاية رحلة الحياة، وروحه تحوم على حافة الأبدية. لكن ذاك المعلّق في الوسط على الرغم من أنه معرض لعاصفة هوجاء عاتية لكنه ينشر القلوع ليبحر في أمان نحو ميناء الراحة، وعلى العكس من ذلك نرى الاثنين الآخرين محطمين تماماً تتهددهما أحوال رهيبة وهما يصارعان الأمواج. إنهما في حياتهما قد فتحا قلبيهما للأوهام وقد اتبعا المسرات الوقتية ليعملا خطية تلو الأخرى بغير معارضة إلى أن أُلقي القبض عليهما أخيراً كمجرمين وعلقا على الخشبة ليوفيا حق العدالة، إن زمان اللذة قصير لكن الندم يطول، وكم هي حماقة وجنون أن يكرّس الإنسان نفسه لخدمة إبليس عوضاً عن الإله القادر على كل شيء في حين أن أفخر ما يقدمه الأول لا يزيد عن ولائم بيلشاصر وسيف الجلادين! ورغم ذلك فما أكثر الذين كالقطيع الذي دخلته الأرواح النجسة لا يتوقفون عن أن يلقوا بأنفسهم في هوة الهلاك خلف سالفيهم المخدوعين. إن المذنبين قد علقا هناك وساد الصمت عليهما لحظة، ولكنهما لم يستطيعا أن يحولا أعينهما عن الشخص العجيب المضرج بدمائه بجوارهما والذي تنجلي فيه القداسة بصورة حية ملموسة لم تُختف عنهما. وأخيراً يبدأ واحد من المذنبين في الكلام مشتركاً في عبارات التعبير والتجديف التي ينفثها

الجمع تحت الصليب، ويوجه كلامه لذاك المتوج بإكليل الشوك قائلاً: (إن كنت أنت المسيح خلّص نفسك وإيانا). ولم يكن من جواب، وكانت الفرصة لا تزال سانحة للسارق والقاتل، ولكن لا خلاص للمستهزئ العنيد الذي تقسى قلبه وهو لا يريد أن يؤمن واضطر الرب أن يترك الرجل الأحمق لمصيره المحتوم... حوّل نظرك الآن إلى الآخر المعلق بجوار المخلَّص المتألم، وهنا تجد منظراً يتهيأ للظهور، وسوف تنتعش نفوسنا برؤياه بعد السحابة القاتمة التي عبرت فوق أرواحنا بسبب المنظر السابق. إن المذنب الآخر يقدم لنا صورة أخرى جميلة على عكس الأولى، وهو وإن كان مذنباً نظير الأول وشريكاً له في المصير المخيف، ومثله على حافة الجحيم، لكننا نراه يحطم قيود الشيطان ويطرحها عنه في اللحظة الخيرة، ثم يتقدم صاعداً طريقاً ليس من المعتاد أن يطأها إنسان وهو في آخر نسمة من الحياة حتى وإن كانت لا تزال تفصله بضع خطوات عن هوة الهلاك. ولا نعرف على وجه التحقيق ما الذي كان له التأثير المبارك على المذنب محولاً قلبه وهو الذي قبل ذلك بقليل اشترك في حملة التعيير ضد يسوع، ربّما كان ذلك بسبب صلاة الرب المؤثرة في طلب الغفران لقاتليه وجلال العظمة والقداسة التي كانت تشع من هيئته، ولكن يكفي أن نقول إن التعبير الذي حدث في نفس المجرم المسكين كان كاملاً وحاسماً، وعلى الأقل يعد بداية للتجديد الكامل بعمل الروح القدس.

إنه معلق هناك على الصليب في صمت، ولكن كل الملامح التي تبدو على وجهه الذي ثبّته نحو المخلَّص المتألم تكشف لنا عن خبايا نفسه الداخلية حيث نرى بوضوح أن الأرواح الشريرة قد تفرقت عنه وأن سيلاً من الأفكار

والمشاعر المقدسة يعبر في نفسه، كما أن عبارات التعبير التي اشترك فيها شريكه في الآلام أطلقت لسانه من عقاله بعد أن كان صمت بدافع الاحترام والتوقير، ويحس الآن أن من واجبه أن يقف في وجه حملة التعيير والتجديف ويمتنع عن الاشتراك في القول (إن كنت أنت المسيح خلّص نفسك وإيانا). إنه يعرف أهمية هذه اللحظة الحاسمة ورهبتها إذ يقترب من الأبدية، ولا يحس بأي رابطة برفيقه في الجريمة بعكس ما يحس به نحو ذلك المتوّج بإكليل الشوك. وينتابه رعب شديد بسبب الكلمات الشريرة التي فاه بها شريكه في الآلام، فيقول له: (أو لا أنت تخاف الله إذ أنت تحت هذا الحكم بعينه؟) لقد أصابته رعدة عندما فكر في ذلك الشخص الذي هو ديان الأحياء والأموات! وكم نراها مؤثرة للغاية هذه الدعوة للتوبة كما يوجهها مذنب لرفيقه! ولكن اسمعوه يكمل كلامه: (أما نحن فبعدل لأننا ننال استحقاق ما فعلنا!) إنها لغة الاتضاع الحقيقي أمام هيبة القانون، ثم تأملوه وهو يحكم على نفسه ويضع نفسه على قدم المساواة مع المذنب الآخر! إنها لغة الشجاعة التي بها يحرر نفسه من حبائل الخداع، والعزم على التحول من طريق الظلمة إلى طريق النور والخلاص... ودعونا نستمع أكثر إلى هذا المذنب، إذ يستطرد قائلاً: (وأما هذا فلم يفعل شيئاً ليس في محله) ويا لها من شهادة جديدة عن براءة يسوع، الأمر الذي كان واضحاً على كل هيئة المخلَّص كما يقول الرسول عنه (لم يعرف خطية) ومن خلف سحب العار والمذلة التي كانت تغطيه سطع ضياء النقاوة والجلال الإلهي بكل قوة فانبهر الأعمى وتراجع مبهوتاً، وفي كل لحظة كانت نبوة السيد

الشهيرة تتحقق حرفياً: "إِنْ سَكَتَ هؤُلاَءِ فَالْحِجَارَةُ تَصْرُخُ!" (لو ١٩: ٤٠).
والآن يحدث أمر يثير العجب، ويُرفع القناع الأخير عن عمل النعمة في قلب المذنب، ومن كان يتوقع أننا نرى شيئاً من هذا النوع على ذلك الجبل الرهيب! فبعد أن ينتهر المذنب التائب رفيقه المجدف يحوّل وجهه مرة أخرى نحو ذلك الذي أُمسى رجاءه الوحيد وهدف محبته ويقول له في اتضاع وانكسار وفي هيبة وثقة: (اذكرني يا رب متى جئت في ملكوتك).. هنا نجد نوراً وسط الظلمة الحالكة. إنه لا يقول يا معلم أو يا سيد، ولكنه يناديه بلقب الجلال (يا رب) وبذلك يعلن للواقفين أن هذا الذي يظهر كالدودة التي داستها الأقدام هو بنفسه ملك المجد السماوي. ويلقي بنفسه عليه في ثقة الأطفال ويتضرع إليه قائلاً: (اذكرني) وكم تتضمن هذه الصرخة! إنها تعبير قوي يثبت حقيقة وجود عالم آت. ولا يطلب المذنب الخلاص من الآلام الجسدية التي يخور تحت ثقل وطأتها لكنه يبتغي شيئاً أسمى من ذلك، وهو يعني في صلاته أن يقول: (تشفع لأجلي، تكلم كلمة رأفة لأجلي أنا الخاطئ وقل كلمة استعطاف لصالحي) وفي هذا اعتراف صريح أن الرجل المتوج بإكليل الشوك هو الوسيط، ولذلك فهو يهرب إليه واثقاً أن شفاعته أمام الآب هي وحدها التي تستطيع أن تعطيه لخلاص من الموت الأبدي.
وبعد أن يقول (اذكرني يا رب) يضيف قائلاً: (متى جئت في ملكوتك) وماذا يعني بهذا؟ هل يريد أن يقول: (إن تدبيرك لم يفشل، وإن كنت ستموت لكنك ستقوم في انتصار على القبر، وملكوتك سيأتي، وسيظل عرشك إلى الأبد)؟ إنه بتأكيد يقصد هذا المعنى، كما أنه يريد أن يقول أيضاً: (إليك

قد دُفع السلطان، وسوف يرفرف علم السلام فوق كل مكان من الأرض، من أقصاها إلى أقصاها. وبعد أن تكون قد فرغت من تأسيس ملكوتك، فعندئذ هبني أنا المجرم المسكين أن أُقبل بين أحقر عبيدك)

ويا له من بشير للمسيح في حلكة ليل الآلام، ويا له من نجم ساطع يرشد كل الذين يبتغون ميناء الراحة في بحر الحياة العاصف، وكم يدهشنا هذا الإيمان العظيم الفعال الذي ظهر في المذنب، إنه يعطينا برهاناً جديداً على أن أعمق أسرار السماء تتكشف لبصيرة الإنسان الذي تنبه ضميره فجأة وأحس بحاجته إلى الخلاص.

لقد فرغ المذنب من كلامه، والآن لنصغ إلى جواب الرب الذي يكشف لنا عن أمور عجيبة ومذهلة بحق، فذلك الشخص العظيم ذو الجلال الذي اكتشفه المذنب بجانبه والذي تخفيه هيئته الدامية ويتوج هامته إكليل من شوك نراه يتقدم الآن في مجده، وتصبح الجلجثة قصراً والصليب عرشاً لديان كل العالم، ويستجيب هذا المتوّج بإكليل الشوك للصلاة التي رفعها إليه المجرم المسكين ويضع ختمه الثابت فوق إيمانه الفريد. إنه لا يرفض صلاته وكأنه قد أخطأ في رجائه به، ولا يوبخه وكأنه كان معجباً توقع منه أكثر مما يستطيعه، لكنه يشجعه ليرجو المزيد بكل جسارة وثقة، لأنه في الحقيقة لم يخطئ الظن فيه، وبكل إحساس كامل بكونه ابن الله الوحيد وبأنه هو الوسيط الحقيقي بين الله والإنسان يقول الرب موجهاً كلامه للمذنب بنظرة ملؤها النعمة والرحمة وبصوت عالٍ ليصل إلى مسامع كل الواقفين: (الحق أقول لك إنك اليوم تكون معي في الفردوس). هذه الكلمات تشف عن عظمة ومجد، ولو كانت هي الشهادة الوحيدة التي قدمها

يسوع عن نفسه لكانت تكفي أن تكون جواباً شافياً لكل الأجيال عن السؤال (من هو؟) إنها كلمات قد حطمت قيود الموت وفتحت سماء التعزيات وجاءت كنغم سلام منبعث من الفردوس تردد صداه في أسماع الملايين وهم على فراش الموت، وجاءت الكلمات معبره عن النتيجة الكاملة لآلام وموت المسيح الذي هو عريس نفوسنا.
إن الصلبان الثلاثة فوق الجلجثة تقدم لنا موضوعاً هاماً جديراً باعتبارنا، فهي تصور لنا منظراً عن العالم ويسوع في الوسط، وهو قد وضع لقيام البعض ولسقوط البعض الآخر، للبعض رائحة حياة لحياة وللآخرين رائحة موت لموت... أخيراً، يقدم لنا مشهد الجلجثة مثلاً عن القوة غير المحدودة والتأثير الفعال الذي لاستحقاقات رئيس كهنتنا الأعظم، وتعطي هذه العبارة (اليوم تكون معي في الفردوس) دليلاً دامغاً على أن ذبيحة المسيح الكفارية تكفي تماماً لتبرير الخطاة وإسعادهم. كما ينبغي أن نلاحظ أن المذنب كان في حالة توبة حقيقة كاملة وأنه بعد أن طلق الخطية بحزم وندم شديد وفتح قلبه ليسوع بالإيمان الحي قد قبل في نفسه كل بذور التقديس، وهذه قد بدأت عملها في الحال فظهرت في المذنب المحبة المشفقة ورثى لحال شريكه السابق في الجريمة.
تأملوا فيما يدور فوق الجلجثة في اللحظات التالية، إن الثلاثة المعلقين على الصلبان ينكسون رؤوسهم، ويحدث افتراق عظيم، وللأسف إن المعلّق بجوار يسوع يهبط إلى الهاوية وتتلقفه قوات الظلمة، لأنه حتى وهو في لحظات الموت قد جدف على رب المجد، بينما المذنب الآخر على النقيض يحلّق نحو السماء بجوار رئيس السلام، ويجلس معه في

مركبة النصر التي يركبها ويعبر وسط هتافات الملائكة داخلاً أبواب الفردوس، وقد كان هو البشير الأول الذي بوصوله هناك نقل للأرواح الممجدة النبأ أن المسيح قد كسب المعركة العظيمة وصنع لنا خلاصاً أبدياً، ولابد أنه قد استقبل بالمزيد من الحفاوة كباكورة ثمار الآلام التي قاساها الضامن الإلهي، وأول حصيد مبارك من نتاج بذرة الدم الكريم العجيبة، وكمواطن عزيز بنوع خاص في المملكة السماوية بين الذين يسجدون للحمل في ربوع المواطن العلوية.

(٤٥) تركة المحبة

وسط موجة الغضب والسخط الشديد تقف المحبة بجوار يسوع في لحظاته الأخيرة على الصليب وترفع إليه عيونها الدامعة التي تنطق بالحنان والعطف. لننظر إلى تلك الجماعة الباكية عند الصليب التي يتمثل فيها الإخلاص والأمانة وسط جمهور بليعال، مثل شجيرة ورد صغيرة تختفي بين أشجار العوسج البرية، وكأكاليل من الزنابق البديعة الفيحاء يحيط بفراش المخلَّص الذي يدنو من الموت... وهكذا يحاط الصليب إلى هذا اليوم، فبينما تنفث قوات الجحيم غضبها وغيظها ضده فإنه إلى هذا اليوم يلتف حوله أشرف من وطأت أقدامهم هذه الأرض. ولو أردنا أن نبحث عن الحزن المقدّس وعن المحبة التي ألهبتها السماء، وعن الصبر الذي لا يكل والعرفان بالجميل الذي هو على استعداد أن يعطي كل شيء، فأين تنفتح هذه الزهور الجميلة السماوية إلا عند الصليب؟ ونحن نعرف من أولئك المخلَّصون الذين تجمعوا حول الصليب، وهم يقدمون لنا تفسيراً عملياً للكلمات التي جاءت في سفر نشيد سليمان: "مِيَاهٌ كَثِيرَةٌ لاَ تَسْتَطِيعُ أَنْ تُطْفِئَ

الْمَحَبَّةَ وَالسُّيُولُ لاَ تَغْمُرُهَا" (نش ٨: ٧). وماذا يهمهم إن تعرضت حياتهم للخطر؟ إن ذاك المصلوب هو محور حياتهم، فهل يعبأون باحتقار العالم لهم واستهزائهم به؟ إنهم لا يتوقعون من العالم الذي توّج ملكهم بإكليل الشوك نصيباً أفضل، ولو أدى الأمر أن يُسمروا معه بالصليب لكانوا قد نفضوا الأرض من تحتهم باحتقار ولكانوا قد ألقوا مراسيهم فوق السحاب بانتصار... ونعود نتأمل في هذه الجماعة من الأبطال، تُرى ممن تتألف؟ إنه مما يدعو للعجب أن نجدها كلها ـ باستثناء حالة واحدة ـ من النساء. فالأقوياء لاذوا بالفرار والضعفاء وقفوا صامدين، الصناديد أدركهم اليأس وأصحاب القلوب الضعيفة الذين لم يتجاسروا أن يلوحوا بقوتهم قهروا العالم، وهذا لأنهم سكبوا قلوبهم أمام الله ثم استندوا على الذراع الأبدية بكل ثبات ففاضت لهم قوة الله في ضعفهم.

وبين النساء المحبوبات الواقفات عند الصليب توجد واحدة تتطلب إشفاقنا، إنها الأم المطلوبة التي حملت في أحشائها ذلك المصلوب الذي تنزف دماه، إنها مريم الثكلى في حزنها الشديد. ومع أنه كان أمراً محزناً على قلب حواء أن تقف عند قبر هابيل ابنها، وكان أكثر منه حزن أبي الأسباط يعقوب وهو يتأمل قميص ابنه يوسف المغموس بالدم، ولكن ماذا يكون هذا الحزن إذا ما قورن بحزن أم الرب وهي تنظر إلى ابنها المصلوب؟ ليتنا نسرح بالفكر لنعرف أين تقف هي الآن وما هو سبب حزنها ومن هو الذي تنوح عليه؟ أي ابن هو، وأية ميته هذه؟! ومع ذلك فنحن متأكدون تماماً أن مريم الثكلى لم يستول اليأس عليها وهي في شدة أحزانها، وحتى في ليلة الدموع والنحيب كانت تلوح لها كضياء من بعيد كلمات

ابنها عن الآلام التي كانت تنتظره والأمجاد التي بعدها، وتقع عيوننا على الرسول يوحنا يقف بجوار مريم يشد أزرها ويطيب قلبها. إنه يرى نفسه أمام عوائص يحار في حلها، ولا تقع عيناه إلا على صحراء جرداء، ولكن كان لديه احساس داخلي بأن ثمة غنى لا يستقصى مذخر له، إنه يقدم هنا نفسه كما اعتاد أن يفعل بسرور (كالتلميذ الذي كان يسوع يحبه) وتكشف لنا هذه الكلمات عن موضوع افتخاره وهي تدلنا في نفس الوقت عن المصدر الذي استمد منه كل تعزياته وكل رجائه وكل قوته، وهذا المصدر هو المحبة، ليست المحبة التي بها احتضن الرب ولكن المحبة التي احتضنه الرب بها. ولست أعرف ما هو أعظم وأشهي من الإدراك الحي المتجدد لمحبة المخلَّص، وأن كل من يستطيع ـ مع يوحنا ـ أن يلقب نفسه بالتلميذ الذي يحبه يسوع له في هذه التسمية الضمان الكافي لكل ما يعوزه وكل ما تشتهيه نفسه أو يخطر له على بال.

وبينما تقف الجماعة الأمينة تبكي عند الصليب في صمت والدماء تنزف منه، إنه يؤدي عمل وظيفته الكهنوتية العليا بينما يحمل على قلبه جنس آدم الساقط. ربما فكرت مريم في نفسها وهي تنتحب: (آه لو يعود يفتح شفتيه اللتين انسكبت النعمة عليهما، ويقول لي كلمة وداع) ولكن وهو في هذه اللحظات الرهيبة التي يمر بها الآن، هل يستطيع أن يعبر التفاتاً لما يدور تحت الصليب؟ لربما يساورنا الشك أنه يفعل ذلك... ولكن ماذا حدث؟ في الحقيقة إنه إلى انقضاء الدهور ستتحدث الأجيال باخلاصه كابن. إنه وهو في شدة آلام الموت يلتفت إلى الجماعة الأمينة التي وقفت تحت الصليب، ومن يستطيع أن يقرأ تعبيرات وجهه سيجد

في عينيه إشفاقاً ومحبة مشجعة معزية مواسية بدرجة لم ير العالم نظيرها. ومهما تكن عظمة الأمور التي تشغل باله وتستحوذ على تفكيره لكنه لا يتخلى قط لحظة عن محبيه، ومهما عظمت وتعددت الأمور التي تتطلب سهره عليها في دائرة تدبيره لكن لن تمر لحظة لا تستقر فيها عين محبته على كل الذين أعطاهم الآب إياه... ويوجه الرب نظره أولاً إلى أمه المحبوبة وهي في شدة مرارة التجربة ويقول لها (يا امرأة هوذا ابنك)، ثم يلتفت إلى يوحنا قائلاً له (هوذا أمك). ورغم أن الكلمات قليلة لكن من يستطيع أن يسبر عمق المحبة المترفقة التي انسكبت فيها؟ وربما نتعجب أن الرب في كلامه لمريم يستخدم لفظاً مجرداً من العاطفة (يا امرأة) بدلاً من كلمة (أماه) الرقيقة. إنه في الحقيقة قد فعل ذلك من ناحية لأنه لا يريد أن يزيد من جروح قلبها المكلوم بذلك اللفظ الرقيق، ومن ناحية أخرى لكيلا يعرض أمه لوقاحة الجمع الذي احتشد حول الصليب، ولكن هناك سبب أهم من ذلك دفعه لأن يستعمل اللفظ العام (يا امرأة) في هذا المقام كما في المشهد المشهور في عرس قانا الجليل، فقد أراد أن تفهم أمه أن علاقتها الأرضية به ستتغير من ذلك الوقت فصاعداً إلى علاقة أخرى اسمى من ذلك، وكأنه أراد أن يقول: (إنك يا أماه ستصبحين من هذه اللحظة كواحدة من المؤمنات بي وأنا إلهك، أنت تؤمنين وسوف تكون لك بركة الإيمان، أنت تمسكين بهدب ثوبي، وأنا أقف نائباً عنك، أنت تكرمينني وأنا ملكك ورئيس الكهنة العظيم، فمن الآن تكون أمي وأخي وأختي هم الذين يخضعون بولاء تحت رايتي، أما القرابة التي حسب الجسد وحسب العالم فستنتهي لتحل بدلاً منها صلات أخرى سماوية وروحية).

ويقدم لها تلميذه المحبوب الأمين يوحنا كابن جديد عوضاً عنه، وبهذه الصورة ظهرت محبة يسوع أنها إلى المنتهي، وهو بنفس العطف يهتم بسد حاجات الذين يحبهم، وكما فعل في الماضي لا يزال يفعل إلى اليوم. إنه إلى هذه الساعة لا يزال هو رئيس الكهنة المترفق بالضعفاء، وبكل عواطفه يهتم بأعواز الذين يتكلون عليه. فليتعلم الجميع أرامل كانوا أم أيتاماً، فقراء أم مرضى، أو من أية طائفة من المتعبين والمثقلين بالأحمال أن يستندوا على عنايته الإلهية. (هوذا أمك!) وياله من دليل يقدمه المخلِّص هنا لتلميذه عن محبته له وثقته فيه! إنه يضع أمانة في عنقه وهو يعلم أن يوحنا سيعتبره شرفاً عظيماً يجعله أسعد إنسان على الأرض، ولم يخطئ المخلِّص ظنه في التلميذ، ويدرك يوحنا رغبة سيده، وفي الحال يلتفت إلى مريم وكل أحشائه تناديها (يا أماه!)... (ومن تلك الساعة) ـ كما يقول الكتاب ـ (أخذها التلميذ إلى خاصته)، وهذه العبارة تتضمن كما هو في الأصل أكثر من أنه عالها فقط في بيته، لقد قبلها في قلبه. ويمكن بسهولة أن نتصور مقدار المحبة التي أحس بها من نحوها من ذلك الحين، وبأية شفقة واخلاص قد رافقها في طريق الحياة، لأن محبة يوحنا في الحقيقة لم تكن إلا شرارة مقدسة من قلب يسوع فأحب يوحنا مريم مثلما أحبها من قبل ابنها الإلهي.

وليت كل من يخطر بباله أن يحسد يوحنا على الشرف العظيم أنه صار عائلاً لأم الرب أن يعرف أن الطريق مفتوح أمامه لنوال نفس الشرف كما هو واضح من قول الرب في مناسبة سابقة: (من هي أمي ومن هم أخوتي) ثم مد يده نحو تلاميذه وقال: "فَأَجَابَ وَقَالَ لِلْقَائِلِ لَهُ:«مَنْ هِيَ أُمِّي

وَمَنْ هُمْ إِخْوَتي؟» ثُمَّ مَدَّ يَدَهُ نَحْوَ تَلاَمِيذِهِ وَقَالَ:«هَا أُمِّي وَإِخْوَتي. لأَنَّ مَنْ يَصْنَعُ مَشِيئَةَ أَبِي الَّذِي فِي السَّمَاوَاتِ هُوَ أَخِي وَأُخْتِي وَأُمِّي»" (مت ١٢: ٤٨– ٥٠). فإن كنت ترغب بالحق أن يكون لك هذا الامتياز الذي ناله يوحنا، وفي الإمكان أن يصير لك، فكن إذاً بدافع المحبة للرب عوناً أميناً لأولاده. أطعم الجائع واروِ العطشان، وافتقد الأرامل التقيات في ضيقاتهن، وبذا تؤدي خدمة يشبع بها قلبه، واطلب من الملك السماوي أن يفتح عينيك لتعرف من هم أولاده وقديسوه، وهو عندئذ يقول لأولئك الذين تتألف منهم كنيسته والذين يطالبهم بإظهار محبتهم لك: (يا امرأة هوذا ابنك)، وسيقول لك عن قطيع أبنائه المحبوبين المتعبين والمثقلين بالأحمال: (هوذا ابنك). وكم تكون النتيجة إن كان كل واحد يعكس صورة حية لمن هو أبرع جمالاً من بنى البشر، فلنحب الله والاخوة مثلما فعل هو.

(٤٦) إيلي إيلي لما شبقتني؟

جاء مرة صوت من السماء سمعه الجمع حول يسوع، ويذكر البشير أن (الجمع الذي كان واقفاً وسمع قال قد حدث رعد، وآخرون قالوا قد كلمه ملاك) ولم يعرف أحد بالضبط ما هو هذا الصوت العجيب ولو أن الجميع أخذتهم الدهشة وبهتوا وتحرك فيهم احساس بالرهبة، تلك هي نفس مشاعرنا عندما نسمع صدى الصرخة التي انبعثت من فوق الصليب. وإنني أعترف أن نفسي بجملتها تهتز كلما فكرت أن أدنو من عمق الآلام التي لا يسبر غورها، والتي انطلقت منها هذه الصرخة (إيلي إيلي لما شبقتني) وكم أود أن أنطرح على وجهي في صمت وخشوع أمام هذه الحادثة الرهيبة أكثر

من أن أكتب أو أتكلم عنها! ولعلكم تعرفون ما حدث للوثر عندما استرسل في تأمل عميق في هذا الجزء المؤثر الحافل بالأسرار من آلام المخلَّص، فظل وقتاً طويلاً لا يتناول شيئاً من الطعام، وفي صحو كامل كان يجلس في كرسيه ولكن بلا حراك كالميت، وعندما نهض أخيراً من عمق تأمله وتفكيره صاح وهو متعجب ومتحير: (الإله يُترك من الإله! من يستطيع أن يدرك هذا؟) أجل، فمن هو الذي يستطيع ذلك؟ إن كان الذهن البشري قد وصل هنا إلى آخر حدود إدراكه لكن الإيمان لا يزال يجد له طريقاً بين هذه الظلال الكثيفة يتقدمه نور إلهي، وهذا النور يشع من وساطة المخلَّص. ودعونا نتأمل الآن بأكثر إمعان ـ مسترشدين بهذا النور ـ في الصرخة الرهيبة التي تصاعدت من قلب الفادي المصلوب. الوقت الآن نحو الثانية عشرة ظهراً عندما نلتقي مرة أخرى على جبل الجلجثة، وقد مضى على المخلَّص ثلاث ساعات وهو معلّق على الخشبة والدماء تنزف منه بغزارة. وبغتة يحدث شيء عجيب! وتزداد دهشتنا، وينتابنا الرعب والفزع. فما كادت الشمس تتوسط قبة السماء، وإذا بها تختفي أشعتها وكأن الأرض لا تستحق بعد نورها، وابتدأت السماء أمام أنظار الجميع تكسوها ظلمة حالكة وهي صافية بغير غيوم، وتبدأ السماء أولاً بظهور الشفق كما يحدث عادة عندما يبتدئ النهار يميل ثم تتبعه ظلمة حالكة، وأخيراً يرخي الليل سدوله القاتمة ويبسط ظلالاً كثيفة كغطاء النعش ليس فوق جبال اليهودية فحسب بل فوق كل الأرض، ويصيب الفزع مملكة الحيوان فتتجمع القطعان في الحقول وهي تجأر وتنعر، وتسرع طيور السماء في ذعر إلى أوكارها، وجموع الناس الذين تجمعوا عند الصليب يهرولون عائدين

إلى أورشليم وهم يصيحون ويصفقون بأيديهم ويقرعون صدورهم، ويصل الذعر والهلع إلى القصور والأكواخ، ويحس من فيها بأن العالم يتهدده خراب مروع. لقد اطلع الآباء الأولون ومن بينهم أوريجانوس وأوسابيوس على ما سجله الوثنيون بشأن هذه الحادثة وبعض هؤلاء من بلاد نائية، فيروي قليفون أن كسوفاً للشمس حدث في نفس الوقت الذي فيه صلب المسيح، وأن ذلك الكسوف الكلّي المخيف لم يحدث قط من قبل في العالم. ويذكر تقليد قديم ما شهد به ديوغنيس في مصر عن الظلمة الشمسية التي سبقت موت يسوع فصاح متعجباً: (إما أن الإله نفسه يتألم في هذه اللحظة، أو أنه يشارك آخر يجتاز الألم).
ونحن أيضا نقف مبهوتين أمام هذه الظاهرة المخيفة التي لا يصعب على الأعمى أن يلمس فيها أصابع القدير، ولكن ماذا تدل عليه هذه الأسرار العميقة؟ إن مدلول الظلمة المفاجئة يصل إلى عمق ساحق أكثر مما تستطيع أن تصل إليه محاولات تفسيرها. والسبب الرئيسي لهذه الظاهرة العجيبة هو لكي يستدل ستاراً، بطريقة عجيبة، على الحالة النفسية للمصلوب في هذا الوقت بالذات بما فيها من أسرار عميقة. وقد أخفى الرب نفسه عن أنظار العالم خلف ستار كثيف من ظلمة الليل المرعدة كما لو كان خلف حجاب الهيكل، وقد مضت عليه الآن ثلاث ساعات وهو معلّق على الصليب، ورأسه المتوج بإكليل الشوك يميل على صدره وهو مغطى بتلك الظلمة، إنه في قدس الأقداس يقوم بأعمال وظيفته الكهنوتية، فهو رئيس الكهنة الحقيقي وفي نفس الوقت الحمل للمحرقة. وما تم بينه وبين أبيه في تلك الأثناء يظل إلى هذه اللحظة مختوماً عليه كما بسبعة ختوم، مخفياً

في أعماق الأبدية. ولكننا نعلم أنه خلف ذلك الحجاب كان منهمكاً في أعنف صراع، وقد سجل أمجد انتصار، وتوج طاعته كبديل عنا بتاجها الأخير. ونحن نعرف أن قبر خطايانا قد حفر حينذاك، وقد محى الصك الذي كان ضدنا، وأزيلت اللعنة التي كانت تهددنا، ونقض حائط السياج الذي كان يفصل بيننا وبين الله.. وتلك الصورة كانت تشير إلى احتجاب شمس أخرى غير الشمس الأرضية، وأن الظلمة تغطي عالماً آخر. إنها تشير إلى انقضاء يوم تعزية وفرح، وإلى ليل يبسط ظلمته على النفس، وقد أوشك آخر نجم ساطع أن يختفي من سمائها. تصوروا إنساناً خيالياً من الخطية قدّوساً وله جوهر الله، الذي يدعو القدير نوره وقرب الله نعيمه، ومحبة الله بهجته وسعادته، تصوروه وقد تجرد من كل هذه، وقد حرم من نعمة أبيه السماوي، وبدلاً من أن يردد القول (من لي معك في السماء؟) نراه منفياً بين مناظر الجحيم المخيفة المرعبة ولا يرى شيئاً سوى صور الخطية والموت. تأملوا في حالته هذه ثم قولوا لي إن كانت لا تشابهها تماماً ظلمة الليل الحالكة التي غطت الأرض.

ولذا كانت الصرخة المؤثرة (إيلي إيلي لما شبقتني) التي ينقلها إلينا البشيرون بنفس اللغة التي بها خرجت من فم القدّوس المتألم، وكأنهم خشوا أن يحجب نقلها لليونانية شيئاً من مدلولها.. إن كل المؤمنين في كل العصور قد وقفوا مثلنا مبهوتين أمام هذه الكلمات وقد حاولوا عبثاً أن يسيروا عمقها، وأنتم تعلمون أن الكلمات (إلهي إلهي لمَ تركتني) يستهل بها المزمور الثاني والعشرون، الذي يصف فيه داود مسوقاً بالروح القدس نصيب البار من الآلام وهو يتجول في عالم فاجر أثيم، بينما يربط هذه الآلام بآلامه هو الشخصية.

غير أن الوصف يتسع شيئاً فشيئاً إلى أن تختفي حالة صاحب المزمور وظروفه الخاصة، ويجب أن يدرك المرء أن ثمة أحداثاً أكثر هولاً وأهمية من تلك التي حدثت في حياة داود تختلط في تعبيرات المزمور، فنجد صورة متألم بريء لم يفعل ذنباً تزداد وضوحاً تدريجياً قد تحققت تماماً في حياة يسوع القدّوس. وفي الصورة التي يصفها المزمور نجد أن آثاراً طفيفة منها قد حدثت في حياة داود الأمر الذي يجعلنا نبحث عن تحقيق حرفي لها في حياة شخص آخر لأن المتألم الوارد ذكره في المزامير لا يبدو فقط منبوذاً من الأرض كلها، وليس فحسب كل من يراه يستهزئ به قائلاً "اتَّكَلَ عَلَى الرَّبِّ فَلْيُنَجِّهِ، لِيُنْقِذْهُ لأَنَّهُ سُرَّ بِهِ" (مز ٢٢: ٨)، وليس فقط يصرخ في شدة الألم (كَالْمَاءِ انْسَكَبْتُ. انْفَصَلَتْ كُلُّ عِظَامِي... وَلَصِقَ لِسَانِي بِحَنَكِي، وَإِلَى تُرَابِ الْمَوْتِ تَضَعُنِي)، لكنه ينبغي أن يجتاز أيضاً فيما لم يختبره داود (أن تُثقب يداه ورجلاه، وأن يقتسم أعداؤه ثيابه بينهم، وأن يلقوا قرعة على لباسه)، وأخيراً تنتهي آلامه بصورة لم تكن قط لإنسان، وفي النهاية يتوّج بتاج النصر المجيد رأس هذا المجرب الذي ظل أميناً حتى الموت وقد تحقق فيه القول إن آلامه ستؤول إلى خلاص العالم ورجوع وبركة الأمم. من لا يستطيع أن يرى أن هذا الإنسان البار الذي احتمل كل هذه الآلام وخرج غالباً من الصراع كما يصوره الروح القدس في ذلك المزمور ليس إلا المسيا الموعود به في شخص يسوع الناصري؟ تلك حقيقة لا تقبل الشك حتى لو لم يشر العهد الجديد بوضوح إلى ذلك المزمور. يذكر واحد من قادة الإلحاد في العصر الحديث وكأنه يتنبأ مثل بلعام، قائلاً عن المزمور الثاني والعشرين إنه (برنامج صلب المسيح) واضطر آخر

على غير إرادته أن يصرح قائلاً: (إن المرء لابد وأن يعتقد أن مسيحياً هو الذي كتب هذا المزمور).
ولكن هل صحيح أن الله قد ترك المسيح وهو على الصليب؟ وكيف يمكن أن يترك الله من كان واحداً معه، وذلك أيضاً في نفس اللحظة قدّم نفسه على الصليب في طاعة كاملة، وكيف يمكن أن يترك الآب من كان ولا يزال موضوع مسرته؟ ولكنه وهو في عمق الآلام التي كان غارقاً فيها حينذاك وبسببها انبعثت صرخته (إيلي إيلي لما شبقتني!) قد تغلب الحزن عليه حتى تملكه إحساس وكأنه قد نُفي بعيداً عن الله وسلم تماماً لقوات الجحيم. ولم يقتصر الأمر عند حد أن سيطرت عليه كل الأهوال التي تولّدت في العالم لكنه دخل بنفسه المقدّسة وبطريقة لا تدرك في الإحساس بذنوبنا، وتجرع الكأس التي فاضت بأجرة الخطية وهي الموت الذي كانت تتضمنه اللعنة التي جاءت على الإنسان عندما طرد من الفردوس... ولم يسمع يسوع كلمة عطف من السماء، ولم ينتعش وهو في حزنه الشديد برؤية ملاك، واحتجب عنه حقاً وجه الآب. وإن كانت تجارب جثسيماني قد قادت الرب يسوع إلى منتهي حدود الطاعة، فإن تجارب الصليب قد أوصلته إلى أعظم درجات الإيمان. ومن ثم كانت الصرخة (إيلي إيلي لما شبقتني) التي تصاعدت من نفسه المتألمة.

(٤٧) أنا عطشان!

الوقت الآن حوالي الساعة التاسعة، أي الثالثة بعد الظهر، ولم يمض وقت طويل على الصرخة الرهيبة التي تصاعدت من قلب يسوع (إيلي إيلي لما شبقتني) حتى تعود

الشمس إلى الظهور نافضة عنها مسوحها السوداء. وتنظر السماء إلى الأرض بإشفاق، ولكن لا يدل على أن الظلمة الشديدة التي غطت نفس الفادي قد انقشعت لكنها لا تزال مستمرة حتى لحظة انطلاقه. ومن وسط هذه الظلمة الحالكة تأتي إلى مسامعنا هذه الكلمة (أنا عطشان) وبذلك تتم كلمات المزمور التاسع والستين في هذه المرحلة الأخيرة من آلام الرب. إنه يجتاز الآن المرحلة التي يصفه فيها روح النبوة في المزمور وهو يقول: "تَعِبْتُ مِنْ صُرَاخِي. يَبِسَ حَلْقِي. كَلَّتْ عَيْنَايَ مِنِ انْتِظَارِ إِلهِي. أَكْثَرُ مِنْ شَعْرِ رَأْسِي الَّذِينَ يُبْغِضُونَنِي بِلاَ سَبَبٍ. اعْتَزَّ مُسْتَهْلِكِيَّ أَعْدَائِي ظُلْمًا. حِينَئِذٍ رَدَدْتُ الَّذِي لَمْ أَخْطَفْهُ. اقْتَرِبْ إِلَى نَفْسِي. فُكَّهَا. بِسَبَبِ أَعْدَائِي افْدِنِي. أَنْتَ عَرَفْتَ عَارِي وَخِزْيِي وَخَجَلِي. قُدَّامَكَ جَمِيعُ مُضَايِقِيَّ. الْعَارُ قَدْ كَسَرَ قَلْبِي فَمَرِضْتُ. انْتَظَرْتُ رِقَّةً فَلَمْ تَكُنْ، وَمُعَزِّينَ فَلَمْ أَجِدْ". ثم يختم هذه الآيات بهذه الكلمات العميقة التي كُتبت بروح النبوة: "وَيَجْعَلُونَ فِي طَعَامِي عَلْقَمًا، وَفِي عَطَشِي يَسْقُونَنِي خَلاُ.". وكل هذه تتم فيه شيئاً فشيئاً كلما تقدمت به الآلام. ولكي يعطي دليلاً على أنه بالحق قد اختبر هذه الحالة أو كما تقول كلمات الإنجيل (لكي يتم الكتاب) صرخ الرب على الصليب قائلاً (أنا عطشان!) وتكشف هذه الصرخة عن مقدار ضيقه وشدة أوجاعه وآلامه... ولكن ما هو الوجع الذي تدل عليه هذه الصرخة؟ لقد كان أولاً بسبب الآلام الجسدية. فكم كان المخلَّص في إعياء وإجهاد عندما وصل إلى الجلجثة! وقد مضى عليه الآن نحو ست ساعات وهو معلق على الصليب حتى جفت الأوعية الدموية في جسده المقدّس، فتسري في كيانه حمى شديدة ويلتصق لسانه بفكيه، وهذا العذاب

أكثر إيلاماً مما يسببه العطش للماء الذي يعطينا المسافرون في براري الشرق المحرقة وصفاً عنه يملأ قلوبنا ذعراً، فعندما يختبرون هذه الحالة يؤكدون أنهم لو طالت أيديهم كل ذهب العالم لكانوا عن طيب خاطر يقدمونه في سبيل قطرات من المياه الطينية التي تمتلئ بها أنهارنا، فتفكروا في أن مخلِّص العالم قد اختبر أيضاً هذا النوع من العذاب! ويصل إلى هذه الدرجة من البؤس الشديد وهو الذي غناه لا يستقصى، ولكنه لأجلنا قد احتمل كل هذا (لكي نستغنى نحن أيضاً بفقره) ومن يستطيع أن يدرك هذه المحبة العجيبة التي تستحق كل تمجيد؟.. ولكن الصرخة التي انبعثت من فوق الصليب (أنا عطشان) تشير إلى شيء أمر من العذاب الجسدي. ألا يذكرنا هذا بالوصف الرهيب الذي جاء في حديث للرب عن العالم الآخر؟ وألا يأتي إلى ذاكرتنا بذلك الرجل الغني الذي كان وهو على الأرض يلبس البز والأرجوان ويتنعم كل يوم مترفهاً ولكن بعد أن اكتسحه الموت ونزل إلى الهاوية صار في ألم وعذاب، وعُصرت يداه من اليأس الشديد وهو يئن من جراء عطش داخلي في نفسه، فنادى إبراهيم طالباً إليه أن يرسل له لعازر ليغمس طرف أصبعه بماء ويبرد لسانه الذي اكتوى من اللهيب، لكن طلبه قد رفض بلا رحمة رغم التوسلات التي كانت تقرع بشدة على أبواب السماء وهي منبعثة من المساكن التي يغطيها الليل الأبدي!
وكل من أشرق له نور الروح القدس على الكلمات "تَأْدِيبُ سَلاَمِنَا عَلَيْهِ، وَبِحُبُرِهِ شُفِينَا" (إش ٥٣: ٥) لابد أن يتعجب بحق إن لم يكن الوسيط العظيم قد اختبر بالفعل نصيب الرجل المذكور في مثل الرب ـ أي إن لم يكن قد ذاق على قدر المستطاع كل العذابات التي تقع على الذين هم تحت

الدينونة، لكنه قد اختبر ذلك بالحقيقة! ولا شك أن الاحتقار والاستهزاء الذي وصل إلى سمعه من تحت الصليب كما تعبر به هذه الكلمات (اتركوه) لنرى هل يأتي إيليا ليخلّصه، لم يكن إلا انعكاساً باهتاً عن الهجمات التي كان لابد أن يتحملها خلف ستار المنظور. وخلف المنظور كانت تحيط به أجناد بليعال، وكانت قوات الظلمة تصوّب سهامها النارية نحوه. ومن هذا القفر المخيف جاءت الصرخة (أنا عطشان) لكي ينقذنا نحن الخطاة من العطش الأبدي. لقد خضع هو لهذا العذاب، ويا له من ينبوع دائم من التعزية قد فتحه لنا بعطشه!

قد تغمض سريعاً عيون البعض ممن لم يذرفوا دمعة توبة. آه لو أنهم يلينون قبل أن يُقسي اليأس قلوبهم إلى الأبد! وقد يوجد البعض ممن رأت عيونهم ما اشتهى كثيرون من الأنبياء والملوك أن يروه ولم يروا لكنهم رغم ذلك ما أبعدهم عن معرفة ما هم في شدة الاحتياج إليه، بل الشيء الوحيد الذي لا غنى عنه. آه لو يبكون أخيراً على عماهم وعلى جحودهم! وقد يوجد أيضاً البعض ممن تتحاشى عيونهم النور الذي يكشف لهم عن سوء أفعالهم وهم لذلك كالينبوع المغلق الذي لا ينبع ماء. آه لو كنتم تبكون مثلما بكى بطرس بكاء مراً، ومثل داود الذي بلل فراشه بالدموع! إن هذه الدموع هي تقدمة السكيب التي يشتاق إليها المخلَّص. فليعطنا الرب أن نقترب من عرشه مع هؤلاء، وعندئذ تتبدل الحال فيعطينا هو لنشرب فننتعش ونرتوي ونفرح وطوبى لمن يختبر فيه صدق هذه الكلمات: "مَنْ يَشْرَبُ مِنَ الْمَاءِ الَّذِي أُعْطِيهِ أَنَا فَلَنْ يَعْطَشَ إِلَى الأَبَدِ، بَلِ الْمَاءُ الَّذِي أُعْطِيهِ يَصِيرُ فِيهِ يَنْبُوعَ مَاءٍ يَنْبَعُ إِلَى حَيَاةٍ أَبَدِيَّةٍ" (يو ٤: ١٤)، ومن لا

يقول ما قالته المرأة السامرية عن هذا الينبوع: "يَا سَيِّدُ أَعْطِنِي هذَا الْمَاءَ، لِكَيْ لاَ أَعْطَشَ" ؟!.

(٤٨) قد أُكمل

هذا الإعلان هو أخطر وأعظم ما سمعه الإنسان على الأرض منذ بدء الخليقة، ومن لا يجد فيه هتاف الانتصار؟ إنه صياح الغلبة الذي جاء يعلن لمملكة الظلم زوال سلطانها ولملكوت السموات على الأرض أنه قد تأسس إلى الأبد، وكم هو عجيب حقاً! ففي نفس اللحظة التي بدا فيها أن كل شيء قد انتهى بالنسبة لأسد يهوذا قوله معلناً أن كل شيء قد أُكمل والنصر قد تم، وتنبعث هذه الصيحة كصوت بوق اليوبيل ليعلن لنسل آدم الذين كانوا تحت اللعنة بدء سنة الحرية والعتق التي ستكشف عن بركاتها أكثر فأكثر ولن تنتهي أبداً. اصغوا وارهفوا سمعكم وسيبدو لكم وكأنكم في هذه الكلمات (قد أُكمل) تسمعون صوت تحطيم أغلال وأسوار السجن تسقط إلى الأرض، وقد زالت بهذه الكلمات الحواجز التي كانت في علو السماء، والأبواب التي ظلت مغلقة آلاف السنين سمع الآن صوتها وهي تفتح على مصاريعها. لكن ما الذي قد أُكمل في اللحظة التي تردد فيها الصوت؟ يقول البشير: (بعد هذا رأى يسوع أن كل شيء قد أُكمل) تأملوا في هاتين الكلمتين (كل شيء!) وماذا تنتظر أكثر من ذلك؟ ولكن ما هي هذه المور؟ ونسرع الآن بإزاحة الستار لنرى بالتفصيل كل ما تم وتحقق وليتنا ننعم بالسلام الكامل الذي يقدمه للعالم هذا الإعلان (قد أُكمل). صرخ يسوع بصوت عظيم وقال (قد أُكمل) لقد فرغ الرب الآن من أعماله، وأكمل العمل العجيب الذي تعهد به قبل كون العالم عندما قال (أن

أفعل مشيئتك يا إلهي سررت!) والموت الذي كان يوشك أن يخضع له كان هو الذروة والحدث الأخير في عمله النيابي.
وأريدكم أن تحملوا في أيديكم البرنامج الإلهي الذي يحدد مسير يسوع على الأرض كشفيع عن البشر، وهذا البرنامج يوجد في سجلات العهد القديم في رموز ونبوات، وسوف نتأكد أنه قد تحقق تماماً بكل دقة. إن صورة المسيا كما تعبر عنها بوضوح كتابات موسى والأنبياء تتحقق كاملة بكل تفاصيلها الدقيقة في شخص يسوع، فإن كنت تسأل عن الطفل العجيب مولود بيت لحم الذي قال عنه ميخا: "مَخَارِجُهُ مُنْذُ الْقَدِيمِ، مُنْذُ أَيَّامِ الأَزَلِ" (مي ٥: ٢)، أو عن الولد الذي يولد والابن الذي يعطى وتكون الرياسة على كتفه الذي يتكلم عنه إشعياء، أو عن الملك الوديع المتواضع الذي يدخل أورشليم راكباً على أتان كما يصفه زكريا، فإن كل هذه تتلاقى في يسوع المسيح. وهل تفتشون عن نسل المرأة الذي بعقبه المجروح يسحق رأس الحية، أو عن الوسيط الذي سيعمل الصلح الحقيقي بين الله والعالم الخاطئ، فانظروا إلى الصليب وهناك تجدون هذه كلها تجتمع في واحد. وهل تبحثون عما كان يرمز إليه خروف الفصح ودمه الذي يعطي النجاة من العبودية، أو الحية النحاسية في البرية، أو عما يشير إليه المتألم البار الذي نقرأ عنه الوصف المثير في مزموري (٢٢، ٩٦) اللذين يقدمان نهاية رهيبة لمذنب، بل وأيضاً من جهة الصرخة المرة (إلهي إلهي لم تركتني) فإن كل هذه تتجمع في ذاك المعلق هناك، والذي يصرخ قائلاً (قد أُكمل). ثم عودوا وانظروا في كتابات أنبياء العهد القديم، فماذا يصادفكم هناك؟ إن الرموز القديمة قد صوّرت يسوع المسيح في جسد ودم، وأهمية هذه الرموز لنا

تنحصر في الشهادة التي تقدمها أن المسيا الإلهي الموعود به قد جاء وأننا لا ننتظر آخر. إن كل ما تطلبه فداء البشرية قد عمل في اللحظة التي نطق فيها يسوع بالقول (قد أُكمل) ولم يكن يبقى سوى أمر واحد وهذا كان ينتظره ولا مناص منه، وقد حدث بالفعل بعد ذلك بقليل وبذا يكون كل شيء قد أكمل تماماً. وذلك الذي لم يكن قد أتمه بعد يبرهن بوضوح أن يسوع عندما علق على الصليب لم يكن ذلك لشيء عليه ولكن كنائب عنا، وكان هو موتنا الذي نستحقه نحن. ونواميس الطبيعة كانت تمنع أن شجرة خضراء جيدة تمد أصولها في الأبدية توضع الفأس عليها وتقع تحت ضربات (آخر عدو)، ولم يكن يتفق مع أحكام الله أن الذي لم يشترك مع آدم في الأكل من ثمر الشجرة المنهى عنها يقع تحت الحكم (يوم تأكل منها موتاً تموت) وكان هذا أيضاً يخالف الوعد الصريح الذي أعلنه القادر على كل شيء (افعل هذا فتحيا) لكن هذا الذي لم يترك نقطة من وصايا الله بغير أن يتممها لا يحيا بل يموت، لقد اعلن بنفسه مراراً كثيرة سابقاً أن ناموس الموت ليس له البتة سلطان عليه وأنه ليس أحد يأخذ حياته لكنه يضعها باختياره. وفي الحقيقة أن موت يسوع كان يهز عرش القدير من أساساته وينسخ كل أحكام الله إن كنا لا نعتبر أن هذا الموت يختلف تماماً عن الموت الذي يأتي على الجميع. وهذه الاعتبارات ترغمنا بغض النظر عن كل إعلان تقدمه لنا الكتب المقدسة أن ننظر إلى موت المسيح أنه فريد في نوعه، وهي حقيقة مؤكدة تقف بمفردها في كل التاريخ. إن ذاك الذي كان حراً من الموت حراً من الموت خضع له نيابة عنا، وكان الموت هو القطرة المرة الأخيرة مما مزج في الكأس الملعونة. وسواء صدقت أم

لم تصدّق، فإن الأسفار تؤكد ذلك مراراً كثيرة في كلمات قوية، فتقول كلمة الله إن (المسيح ذاق الموت بنعمة الله) ومن ثم لم يكن ذلك نتيجة ناموس طبيعي يحتم عليه الموت كما أنها تعلن أيضاً أن (الموت الذي ماته قد ماته للخطية) وعندما تُصرّح كلمة الله أنه "أَنَّهُ إِنْ كَانَ وَاحِدٌ قَدْ مَاتَ لأَجْلِ الْجَمِيعِ، فَالْجَمِيعُ إِذًا مَاتُوا" (٢كو ٥: ١٤) فإن ذلك يبرهن بوضوح طبيعة موته النيابي بصورة لا أعرف كيف يمكن زيادة إيضاحها.

فإن كان المسيح بموته قد دفع عنا أجرة خطايانا فمن الطبيعي لا يمكن اعتبار موته مشابهاً للرقاد الذي يختبره كثير من المؤمنين تحت رضى السماء وعلى وجوههم بهجة الفداء، كلا فإن العدل الإلهي كان يحتم أن المسيح يتلقى طعنة ملك الأهوال وأن يختبر الموت الذي حكم به على آدم الأول، وهكذا كان، فأحنى رأسه تحت أهواله. ولاحظوا صمت السماء المستمر، فلقد منعت جندها من أن تسرع لنجدته، ثم لا حظوا الساعات الثلاث المظلمة التي عبرت عليه، وكلمات التعيير والاستهزاء التي انهالت عليه من الواقفين حول الصليب... ورغم ذلك فهو يموت مكللاً بتاج الانتصار، وفي اللحظة التي توقف فيها قلبه عن النبض كشفت الكلمات (قد أُكمل) عن معناها الكامل. فقد تم الآن الجزء الأخير من عمل الفداء، وتردد صدى هذه الصرخة في السماء فتعالت الأصوات تهتف بلا انقطاع (هللويا للحمل) وقد انعكس صداها في مساكن الظلمة كصوت رعود الله معلنة نهاية سلطان رئيسها، وليس من صوت يبعث البهجة في نفس الخاطئ التائب أكثر من أن يسمع هذا الإعلان (قد أُكمل) إنه كصوت بوق اليوبيل وإذاعة بشرى الخلاص الأبدي.

ما أعظم الثمرة التي تجتنيها من شجرة الصليب! إن ما صنعه المخلّص بموته لم يكن فحسب عملاً لارضاء العدل الإلهي وبه أيضاً قد رفع اللعنة عنا، ولكنه قدم طاعته كنائب عنا، منذ ذلك الحين حسبت طاعته لشعبه الذي يؤمن به كالبر الذي به فقط يمكنهم الوقوف أمام الله، كما أنه علاوة على إلغاء الحكم الصادر ضدنا (ابعدوا عني يا ملاعين!) فإنه قد محيت أيضاً من على حيطاننا (منا، تقيل) ليوضع مكانها هذه العبارة العذبة: (لأنكم قد اغتسلتم بل تقدّستم بل تبررتم في اسم الرب يسوع) وهذه العبارة قد تبرهنت لنا إذ أن الله يعطف علينا الآن بمحبته، وينفخ فينا بروحه، ويقودنا بأعمال عنايته ورحمته، وحالما ينتهي مسيرنا هنا سيفتح لنا الأبواب لندخل إلى ديار السماء. وإن كان الخطاة الذين تحت الدينونة يحسبون قديسين أمام الله دون أي تعد على عدله وقداسته وبره، فهذا يرجع إلى ما أكمله المخلّص المتألم على الصليب، وإذ ذاك فإن هتاف النصرة (قد أُكمل) هو حق وعدل وبه بعد أن أكمل الرب عمله قد أحنى رأسه ليستريح. "لأَنَّهُ بِقُرْبَانٍ وَاحِدٍ قَدْ أَكْمَلَ إِلَى الأَبَدِ الْمُقَدَّسِينَ." (عب ١٠: ١٤) أجل إنه بهذا العمل الواحد قد وضع الأساس لكل الذين يؤمنون به، أساس تبريرهم وتقدّيسهم وفدائهم، فيبتهجون بالأمر الأول كحقيقة قد تمت، ويحملون الثاني في نفوسهم، وينتظرون تحقيق الثالث بكل إيمان وثقة، لأن المسيح نائبهم قد سبق ونال في اسمهم الميراث السماوي المجيد، وقد تم على الصليب عمل روحي خلاق، وسوف ينكشف لنا الحق الكامل الذي تتضمنه صرخة الانتصار (قد أُكمل) ويتضح لنا معناها بكل جلاء.

ينبغي أن نعرف أن المخلَّص المصلوب عندما أعلن هذه الحقيقة العظمى لم تكن عينه تستقر فقط على خطاة معينين ولكن أيضاً على العالم كله عامة. لقد أذاب الجرم الذي كان يستقر على العالم وحرره من اللعنة، واسترجع الأرض الخربة من قوات الظلمة بعد أن كانت قد صارت في أيديهم بسبب الخطية، وأخضعها لنفسه وكرّسها لتكون مسرحاً يشهد تأسيس مملكته القادمة. إن دم المسيح يطالب بتحويلها إلى مسكن للبر، وإلى فردوس الله إن الآب السرمدي الذي حلف للابن قائلاً "اسْأَلْنِي فَأُعْطِيَكَ الأُمَمَ مِيرَاثًا لَكَ، وَأَقَاصِيَ الأَرْضِ مُلْكًا لَكَ" (مز ٢: ٨). لن يرفض الاصغاء إلى دم ابنه الوحيد، ومهما حدث من الفوضى والخراب في العالم لكن مستقبله مضمون، فعلى الصليب قد وضع أساس تحويله إلى الحالة المجيدة، وقد أخذ الروح القدس على عاتقه تبعة تكميل العمل للخليقة الجديدة. ليتنا ننتفع إذاً بكنوز التعزية والرجاء المذخرة لنا في هذا الاعلان (قد أُكمل) وليتنا نلتف حول الصليب ونقترب منه أكثر، ونستخلص من موت الفادي، علاوة على الاحساس المبارك بغفران خطايانا، قوة لنعيش له وحده ذاك الذي أعطانا نفسه فدية لا تقدر. فإن كنا نريد أن نعرف ماذا صيَّر منا نحن نسل آدم المساكين بتقديم نفسه فلنلق نظرة على الكنيسة المنتصرة، فالأبرار المكملون هناك كانوا قبلاً أناساً مثلنا ونرى بينهم المذنب والعشار والمجدلية وزكا وجمهوراً من المساكين غيرهم. ومن يستطيع أن يتعرف عليهم وهم في حالتهم المجيدة وفي ثيابهم اللامعة وفي تيجان المجد التي لا تبلى، وهم واقفون أمام عرش الله؟ وفي أولئك القديسين قد اتخذت صيحة الانتصار (قد أُكمل) شكلاً معيناً. إنهم

يكشفون لنا قوة وجمال وعظمة هذا التعبير، ويعطوننا تفسيراً حياً ملموساً له. دعونا إذاً نتبع خطواتهم ولا راية غير الصليب تتقدمنا إلى مدينة الله. وليتردد في أعماق قلوبنا صدى هذه الصرخة: (قد أُكمل). ليسمع الآن وخاصة عندما يحين موعد الرحيل: "مَنْ هُوَ الَّذِي يَدِينُ؟ اَلْمَسِيحُ هُوَ الَّذِي مَاتَ" (رو ٨: ٣٤).

(٤٩) يا ابتاه في يديك أستودع روحي!

إننا الآن داخلون إلى مكان مقدّس وهل يوجد على الأرض ما يبعث الرهبة في النفس أكثر من لحظات الموت التي فيها يتقابل الزمان الحاضر مع الأبدية؟ وفي هذا الصمت الخاشع يبدو لنا وكأننا نستمع إلى دقات ساعة آتية من عالم آخر! فما هي الإحساسات التي لابد أن تتملك علينا ونحن نشاهد ساعة الاحتضار كهذه التي هي الإحساسات التي لابد أن تتملك علينا ونحن نشاهد ساعة الاحتضار كهذه التي هي موضوع تأملاتنا الآن والتي نرى فيها فادينا يحني رأسه ويسلم الروح! ليس من يجفف العرق من على جبهته ولا أحد يشجعه بكلمات الحياة. ومن مثله غادر العالم وحيداً تغطيه ظلال قاتمة؟! ولكن لا تخطئوا الظن فيه فهذه ليست هزيمة ولكنه عمل تضحية، وهو لا يخضع للموت مثلنا ولكنه يذعن له بعد أن جرده من سلطانه على حياته.

ما هو الموت؟ أنتم تعلمون أنه منذ آلاف السنين دخل إلى عالم هذا المارد الذي منه ترتعب الأفئدة، وظل يقوم بعمله التخريبي المروّع، وهذا هو مصير جنسنا وقضاؤه المحتوم. والخليقة في بدايتها عندما خرجت من بين يديّ الخالق

القدير لم تكن تعرف هذا الوحش الهائل، ولكنه ظهر على مسرح الحقيقة نتيجة للسقوط. ومنذ ذلك الحين وهو يخضع ـ كملك الأهوال ـ كل من في أنفه نسمة حياة لصولجانه الرهيب. وأبونا الأولان كانا أول من رآه يظهر قوته وجلاله في محبوبهما هابيل. ومنذ تلك اللحظة استمر الموت يلوح بسيفه الرهيب على الأرض، ويلقي كدره في كل كأس ليحول البهجة إلى مرارة، ويحيط كل شركة حبية بتوقع ساعة الافتراق والزوال إن آجلا أو عاجلاً.

إن دفع أجرة الخطية كان على الخطاة وحدهم، أما قدّوس إسرائيل فلا يدخل تحت سلطان الموت، فماذا إذاً هذا الذي نراه في الجلجثة؟ إنه بعد أن قال بصوت الانتصار (قد أُكمل) يعود يحرك شفتيه، فماذا سنسمع منه؟ هل كلمة وداع أليم؟ أم أنه سيقول بصوت مبتهج : (إنني أغيب عن وعي، وأخور. إنني ذاهب في طريق الأرض كلها)؟ كلا، اصغوا! إنه يصيح بصوت عالٍ وفي إدراك وقوة من هو لا يستسلم للموت عن ضعف، وليس كمن يدفع الجزية لقوة قهرية، ولكن كمن هو سيد على الموت ومن يسلم نفسه له طوعاً. فيصيح قائلاً: (يا أبتاه في يديك أستودع روحي!) وبعد أن يتفوه بهذه الكلمات كمن فرغ من أداء عمله يحني رأسه الدامي ويسلم الروح. (يا أبتاه) إن أول كلمة نسمعها من شفتيه على الأرض كانت اسم أبيه، وهي أيضاً آخر كلمة. فقد كانت كل أفكاره وأعماله، رغباته ومساعيه تهدف إلى تمجيد اسم أبيه. وكان طعامه وشرابه أن يفعل مشيئة الآب، كانت محبة أبيه هي مسرته وبهجة قلبه، واتحاده به غاية أمانيه. وعندما ذاع البشرى (قد أُكمل) كان يوجه نظره للعالم مرة أخرى، وكانت هذه هي كلمة الوداع للأرض، وكان وداعاً يليق بالذي

غلب الموت وبرئيس الحياة الذي له سلطان على كل شيء، وبعده يتحول إلى علاقته بأبيه وينظر إليه وحده... وبعد هذه الصرخة الأخيرة التي نادى بها يسوع نراه يميل برأسه بعد أن أتم عمله على أكمل وجه، ويحدث الأمر الذي لا يكاد يصدق ـ ويصبح ابن الله الحي جثة هامدة! وتقف أمام هذا المنظر مبهوتين في تأثر وإجلال عميق. وأين ذهب المسيح بعد أن غادر الجسد؟ ليس إلى أي مكان غير ما حملته إليه رغباته وأشواق قلبه ـ بين يديّ الآب، فاحتفلت السماء بانتصاره، وحيته الملائكة بقيثارتها، وهتف بابتهاج المكملون الواقفون أمام العرش مرحبين بقدومه... ويشهد واحد من المبشرين السمائيين على رأس زمرة قائلاً: إن المسيح (قد رد الذي لم يخطفه)، ويصيح آخر إنه (مجروح لأجلنا معاصينا، تأديب سلامنا عليه وبحبره شفينا) ويقول ثالث (هوذا حمل الله الذي يرفع خطية العالم) ورابع (لأنه جعل الذي لم يعرف خطية خطية لأجلنا) وأيضاً (المسيح افتدانا من لعنة الناموس إذ صار لعنة لأجلنا) وكذلك (المسيح قد صالحنا في جسم بشريته بالموت) وأيضاً (بقربان واحد قد أكمل إلى الأبد المقدسين) وتتحد شهادات رسل الرب هؤلاء مع ما شهد به الرب نفسه أن ابن الإنسان قد جاء (ليبذل نفسه فدية عن كثيرين)، وأيضاً قوله (إن لم تقع حبة الحنطة في الأرض وتمت فهي تبقى وحدها، ولكن إن ماتت تأتي بثمر كثير)، وبالأكثر ما تدل عليه فريضة العشاء الرباني أن جسده ودمه قد كسر وسفك لأجل غفران الخطايا.

ولكن قد يقول قائل إننا قد تعودنا أن نسمع هذه الكلمات، ولكن ألا تبدو كالرسوم الهيروغليفية التي تحتاج إلى تفسير؟ هذا صحيح، ولكي نفهمها يتطلب الأمر تكريساً سابقاً في

خلوة المخدع، فاستيقظوا من أوهاكم وأدركوا حاجتكم للتصالح والفداء، وفي وقت قصير ستضيء لكم الكلمات التي قرأتموها كمصابيح مشتعلة، وعندئذ تنفتح عيونكم وتبصرون رجل الأحزان، الوسيط بين الله والإنسان، فتبتهجون بموته، الذي به رجحت كفة تضحيته على ثقل خطاياكم فتبررتم به إلى الأبد أمام الله.
(يا أبتاه في يديك أستودع روحي!) وأي شيء لم يستودعه في يدي أبيه عندما تفوه بهذه الكلمات! يكتب الرسول قائلاً: "وَإِذْ كُمِّلَ صَارَ لِجَمِيعِ الَّذِينَ يُطِيعُونَهُ، سَبَبَ خَلاَصٍ أَبَدِيٍّ" (عب ٥: ٩) ومن ثم كان من الضروري أنه كبار يكمل بإتمام الناموس كاملاً، وكقدوس بالانتصار على كل تجربة، وكضامن بأن يفي عنا كل ديوننا، وكشفيع ومصالح بأن يفرغ الكأس من اللعنة التي كانت معدة لنا. ومن جهة هذه الاعتبارات كلها قد كمل في اللحظة التي فيها انطلقت روحه، وبذا استودع بين يديّ أبيه بالإضافة إلى روحه، أساس العالم الجديد ـ أي كنيسته المفدية المتطهرة بدمه والمتسربلة ببره كتقدمة مقبولة ومرضية عند الله. والآن إن كنا طائعين لابن محبته لنعلم أن لنا مدينة ملجأ مستعدة لقبولنا تحت أي ظرف، ومهما جاء علينا ضيق لا يجب أن نقلق متى سينتهي فإن كان العالم يضطهدنا أو الشيطان يجربنا، وإن كان الموت يهددنا أو أي شيء يزعجنا، فلنصرخ بشجاعة مستندين على استحقاقات عمانوئيل قائلين: (لأني قلت أنت يا رب ملجأي، جعلت العلّي مسكني، لا يلقيني شر) ونحن واثقون أن مواطن الراحة العلوية مفتوحة دائماً لا ستقبالنا وحمايتنا. ما أكثر وأعظم الامتيازات التي منحت لنا في المسيح! ليتنا نعرف كيف نحسن استخدامها، وبقبلات

مقدسة نلثم قدمي ذاك الذي منحنا إياها ونمضي في طريقنا بسلام، في ضياء قدس العهد الذي يطل علينا من الجلجثة، ولتردد أوتار القلب بلحين الشكر نشيد الحب العظيم المقدّس.

(٥٠) الأحداث التي تلت

ما كاد رب الحياة والمجد ينكس رأسه ويسلم الروح فوق الجلجثة حتى تغير المشهد الرهيب، ولم تعد السماء تخفي معرفتها برجل الأحزان وإنما تتلقى صرخة الوسيط الإلهي (قد أُكمل) أعظم تأييد، وعوضاً عن الضجة العدائية التي كانت ترعد حوله يقام احتفال عظيم في السماء تمجيداً لنصره المبين.
واتبعوني أولاً إلى داخل الهيكل في أورشليم، والساعة الآن الثالثة بعد الظهر، وهذا هو موعد اجتماع الإسرائيليين في أروقة الهيكل لأجل الذبيحة المسائية، ويبدأ الكهنة بممارسة واجباتهم العادية، وفي اللحظة التي ينطق فيها يسوع فوق الجلجثة بهذه الكلمات (يا أبتاه في يديك استودع روحي) ومن يستطيع أن يصف الدهشة التي أصابت أبناء هرون، وإذا بحجاب الهيكل المصنوع من الأنسجة السميكة ينشق إلى اثنين من الوسط من فوق غلى أسفل بغير أن تلمسه يد إنسان، ويظهر كرسي الرحمة وتابوت العهد والكروبان الذهبيان في قدس الأقداس الذي لم يكن يسمح لأحد سوى رئيس الكهنة أن يدخل إليه، ليس بلا دم، مرة واحدة في السنة، لكنه يظهر الآن بغير حجاب أمام أنظار الجميع... عندما نكس القدير رأسه حدث كل هذا، ولكن ماذا تدل عليه هذه العلامة؟

أولاً: إنها إشارة جديدة إلى أن خدمة اللاويين، على الرغم من أنها من الله وتتضمن معاني نبوية، لكنها كانت فقط تحوي رموز الخلاص العتيد، أما الآن بعد أن تم الخلاص أصبحت تعد بلا جدوى مثلما تنتهي مرحلة الزهرة بظهور الثمرة.

وثانياً: كانت تصويراً رمزياً عن النتائج المباركة المترتبة على موت رب المجد وسفك دماه فوق الجلجثة. إن قدس الأقداس في الهيكل كان يشير إلى غرفة العرش في السماء التي مُنعنا من_الاقتراب إليها بحسب أمر إلهي، والحجاب الذي فصلنا عنه كان هو جسدنا الوارث للخطية. "مَنْ يَصْعَدُ إِلَى جَبَلِ الرَّبِّ؟ وَمَنْ يَقُومُ فِي مَوْضِعِ قُدْسِهِ؟" (مز ٢٤: ٣)، كان هذا هو السؤال الذي أجيب عنه بالقول: "اَلطَّاهِرُ الْيَدَيْنِ، وَالنَّقِيُّ الْقَلْبِ، الَّذِي لَمْ يَحْمِلْ نَفْسَهُ إِلَى الْبَاطِلِ" ولكن من ذا الذي يستطيع أن يفتخر هكذا بطهارته أمام الله؟ لم يكن بار، ليس ولا واحد، لذلك لم يتبق لأي إنسان إلا الصرخة المؤلمة التي صرخ بها النبي: "وَيْلٌ لِي! إِنِّي هَلَكْتُ، لأَنِّي إِنْسَانٌ نَجِسُ الشَّفَتَيْنِ" (إش ٦: ٥) لقد ارتحل البر، وملكت الخطية: وفجأة تعلن العلامة التي ظهرت في الهيكل أن موقفنا من مسكن الله العلي قد طرأ عليه تغيير عظيم وجوهري، وقد رفع من الطريق ما كان يعوق اقترابنا إلى مقدس الله، وسقط الحاجز الذي وقف كحائط سياج بيننا وبين الله، ولم تعد علينا خطورة في أن نلقي بين يديّ ذاك الذي ينسب إلى الملائكة حماقة. البس الرب يسوع وسوف نستطيع أن تدخل بجرأة وبثقة الأطفال إلى مسكن الآب المقدّس الذي يظل فاتحاً لك أبوابه نهاراً وليلاً. اغسل ثيابك في دم الحمل وبعدئذ ألقِ بنفسك بثقة الأطفال على صدر

الآب واطرح كل ما يزعجك ويضايقك بين يديه، وتمسك بالحقيقة المباركة التي أراد أن يعلنها بواسطة الشق الذي حدث في حجاب الهيكل، فالمسيح بموته قد فتح كل باب وطريق في السماء... ولكن هل ما زلتم تتساءلون إن كنا بالحقيقة نتبرر بتمسكنا بالمعنى المشجع الذي يدل عليه الشق الذي حدث في حجاب الهيكل؟ إن لنا حقاً في ذلك فاقرأوا قول الرسول: "فَإِذْ لَنَا أَيُّهَا الإِخْوَةُ ثِقَةٌ بِالدُّخُولِ إِلَى «الأَقْدَاسِ» بِدَمِ يَسُوعَ، طَرِيقًا كَرَّسَهُ لَنَا حَدِيثًا حَيًّا، بِالْحِجَابِ، أَيْ جَسَدِهِ، وَكَاهِنٌ عَظِيمٌ عَلَى بَيْتِ اللهِ، لِنَتَقَدَّمْ بِقَلْبٍ صَادِق فِي يَقِينِ الإِيمَانِ، مَرْشُوشَةً قُلُوبُنَا مِنْ ضَمِيرٍ شِرِّيرٍ، وَمُغْتَسِلَةً أَجْسَادُنَا بِمَاءٍ نَقِيٍّ." (عب ١٠: ١٩ـ ٢٢). ومن ثم ترون أن الطريق إلى الأقداس مفتوح أمامنا وهكذا أيضاً إلى بيت الآب، بواسطة من؟ بيسوع المسيح. وكيف ذلك؟ عن طريق شق في الحجاب وهذا الحجاب هو جسد رئيس الكهنة العظيم، فانشق الحجاب عندما قدم جسده على الصليب لأجلنا بعد أن حمل خطايانا على نفسه، وبهذا العمل النيابي أتم كل ما يلزم لتبريرنا أمام الله، ففتح لنا الطريق للاقتراب إلى عرش الله.

ونترك مبنى الهيكل الفخم في أورشليم الذي قد فقد أهميته الآن لنعود إلى الجلجثة حيث تصادفنا معجزة أخرى فنرى (الأرض تتزلزل والصخور تنشق) وماذا تعني هذه؟ إنها تشير إلى معاني عظيمة ومجيدة، إن موت الوسيط قد حدد مستقبل العالم القديم أنه معدّ للدمار، وأنه سيطرأ عليه تغيير عظيم: "الَّذِي صَوْتُهُ زَعْزَعَ الأَرْضَ حِينَئِذٍ، وَأَمَّا الآنَ فَقَدْ وَعَدَ قَائِلاً:«إِنِّي مَرَّةً أَيْضًا أُزَلْزِلُ لاَ الأَرْضَ فَقَطْ بَلِ السَّمَاءَ أَيْضًا». فَقَوْلُهُ «مَرَّةً أَيْضًا» يَدُلُّ عَلَى تَغْيِيرِ الأَشْيَاءِ الْمُتَزَعْزِعَةِ

كَمَصْنُوعَةٍ، لِكَيْ تَبْقَى الَّتِي لاَ تَتَزَعْزَعُ" (عب ١٢: ٢٦، ٢٧).
إن العالم الحاضر ليس على ما كان عليه قبلاً، فقد دخلت الخطية إليه وساد الموت والخراب المستمر، ولكن بعد أن طردت الخطية من العالم مرة أخرى بعمل الفداء ينبغي تبعاً لذلك أن تبطل نتائجها. إن دم الحمل يطالب بأن تعود الخليقة إلى ما كانت عليه، وأن ما صاحب موت الرب من زلزلة الأرض من أساساتها، إلى اهتزاز التلال والجبال، وتشقق الصخور، كل هذه ليست سوى موافقة (وآمين) من الله القدير لما يطالب به دم أبنه.
والعلامة الثالثة لابد أن تؤثر في قلوبنا بأكثر قوة، فلم يقتصر الأمر على تشقق الصخور بالقرب من الجلجثة ولكن أيضاً تفتحت القبور القديمة التي تضم رفات القديسين ودخلت في الجثث حياة جديدة، وبعد قيامة باكورة الراقدين خرج هؤلاء أيضاً من مخادعهم وظهروا لكثيرين في المدينة المقدسة. ويا له من حدث مثير! ومما لاشك فيه أنه محاط بالغموض وحافل بالأسرار العميقة مما يثير طائفة من الأسئلة والاستفسارات، ولكن قصد الله من هذه المعجزة واضح كل الوضوح، فموت المسيح النيابي له تأثيراته القوية التي وصلت إلى أسفل، إلى عالم الأخيلة، وهو إذ قدم حياته على الصليب صار هو رئيس الحياة، وحتى في المناطق التي ساد فيها الفساد فقد أطاح بعرش ذاك الذي يقول عنه الكتاب (له سلطان الموت) وامتلك زمام القوة، ليس فقط ليقتاد النفوس التي افتداها إلى مواطن السلام الأبدي ولكن أيضاً ليحرر أجسادهم من قيود اللعنة، وفي الوقت المعين يقدم شعبه إلى أبيه في مجد روحي وجسدي. وقد أراد القدير أن يؤكد هذه الحقيقة بمعجزة تفتح

القبور التي صاحبت موت المسيح، ثم بالقيامة الحقيقة لأجساد القديسين في اليوم الثالث. ومن هم أولئك الذين كانوا الآنصاب التذكارية الأولى التي أقيمت للظافر الممجد الذي قهر ملك الأهوال؟ هل كان إبراهيم من بينهم الذي تهلل أن يرى يوم الرب بطريقة عجيبة؟ وهل كان من بينهم موسى الذي ذكر عنه الرسول يهوذا أن الشيطان خاصم قوات السماء بسبب جسده؟ إن الكتاب لا يعطينا جواباً، بل يظل يلزم الصمت من جهة أشخاص القديسين المقامين الذين ظهروا لكثيرين في المدينة المقدسة ومن جهة الهيئة التي ظهروا بها، ومتى وأين وكيف قد أُخذوا إلى السماء فيما بعد. إن رسالة أولئك الذين بعثوا من تراب القبر كانت محددة لهدف واحد، أعنى به لتدل على أن موت المسيح حدث له قوة الخلق في الماضي والحاضر والمستقبل، ولا يقل تأثيره في العمق عنه في الأعالي، وهذا يعطينا دليلاً عملياً عن سر البهجة التي تفيض فينا عندما نتأمل في صلب المسيح فنقول مع الرسول: («أَيْنَ شَوْكَتُكَ يَا مَوْتُ؟ أَيْنَ غَلَبَتُكِ يَا هَاوِيَةُ؟» أَمَّا شَوْكَةُ الْمَوْتِ فَهِيَ الْخَطِيَّةُ، وَقُوَّةُ الْخَطِيَّةِ هِيَ النَّامُوسُ. وَلكِنْ شُكْرًا ِللهِ الَّذِي يُعْطِينَا الْغَلَبَةَ بِرَبِّنَا يَسُوعَ" (١كو ١٥: ٥٥، ٥٧)

وهكذا يتجلى موت المسيح الكفاري في عظمة وروعة مصحوباً بعلامات وعجائب إلهية بدأت في الحال من عند الصليب. وأول من يلفت أنظارنا قائد المئة الروماني الذي كان على رأس قوة من الجنود في حراسة الصليب، ويقف هناك في صمت وشرود الفكر يتأمل في صليب المخلّص المتألم، لقد كان شاهد عيان لعملية الصلب، ورأى الملك الحميد لهذا الشخص العجيب وسمع الكلمات التي خرجت من شفتيه

الداميتين، وفي اللحظة التي فيها أسلم روحه شعر بالأرض تهتز من تحته ورأى أيضاً بعينيه التلال تترنح والصخور تنشق، واجمعت المشاعر التي أثرت في نفسه حتى ذلك الحين في إحساس واحد قوي جعله يصرح بما يشعر به في نفسه في صرخة عالية واضحة مجد بها الإله الحقيقي فقال: (بالحقيقة كان هذا الإنسان باراً. حقاً كان هذا الإنسان ابن الله!). ولا يجب أن نهتم كثيراً لمعرفة ماذا كان يعنيه قائد المئه بتعبيره هذا، فلم يكن يهودياً متعلماً عند قدميّ معلمي الناموس، ولكنه كان مجرد وثني أعمى. وبحسب ما رآه في الناصري لم يشك أنه لابد وأن يكون أكثر من إنسان، كما أحس في نفسه أن هذا ليس ابن الله المتنبأ عنه في كتب اليهود.

وانظروا، إنه ليس القائد فحسب ولكن أيضاً الكثيرون من رجاله قد غلبتهم مشاعر مماثلة وحركهم الاحترام المقدّس ليشتركوا مع القائد في اعترافه، أو يتمموا بشيء من هذا القبيل، ويا لها من أمور مبهجة أن نرى عدداً من الأمميين العميان، وربما من بينهم الذين اشتركوا في صلب يسوع يعطونه المجد رغم حشد من الخصوم، ويعترفون أنه ابن الله الحي!

لقد رأيتم وسمعتم ليس فقط ما رآه وسمعه أولئك الأمميون ولكن ما هو أعظم من ذلك بكثير، فقد رأيتم أن موت المسيح على الصليب لم تتشقق له الصخور فقط أو جعل التلال ترتجف لكنه رفع كل نظام العالم القديم من أساسه ودفعه في طريق جديد يختلف تماماً عن الأول، وقد رأيتم أيضاً أن من ذلك الموت قد انبعث شعاع من القيامة ليس فقط على نفر قليل من القديسين الراقدين ولكن ينبوعاً إلهياً متدفقاً

من الحياة الجديدة يفيض فوق كل قبور الأرض، ولم تبصروا فحسب حجاب الهيكل ينشق ساعة موت المصلوب العظيم ولكنكم أيضاً تعلمون أنه قد انشق غطاء النبوة الذي ظل زهاء أربعة آلاف سنة ورأى العالم النبوات التي كانت مخفية تتحقق بكل تفاصيلها الدقيقة، ولم تسمعوا فحسب صوت المخلِّص على الصليب وهو في ساعة الموت يفرح قلب المذنب بالوعد (اليوم تكون معي في الفردوس) ولكن تعلمون أنه إلى هذه الساعة ليس أحد تحت السماء يستطيع أن يحصل على السلام التام وسط نوء ظلمة هذه الحياة إلا إذا رفع نظره بالإيمان إلى ذاك المتوج بإكليل الشوك. كل هذه الأمور قد أتت أمامكم وفي كل يوم تشاهدونها، فلا تتأخروا في عزل أنفسكم بعزم واصرار عن عالم غير مؤمن وبادروا بأن يكون لكم اعتراف أولئك الجند الأممين! غير أن العسكر الروماني ليسوا هم وحدهم في الجلجثة الذين يقدمون واجب الاحترام للمخلِّص المصلوب، لكن هذا الاحترام تقدمه له بأكثر ولاء واخلاص جماعة النسوة الباكيات اللائي تبعن السيد من الجليل وكن يخدمنه، وحتى في آخر لحظة لا يتركنه بل يلتصقن به في محبة ورجاء كما يستمر حبل المساكين ملتفاً حول الشجرة التي قطعتها الفأس. ولاحظوا النار المقدّسة التي تشتعل في قلوبهن، إنها نار الغيرة المقدّسة ليسوع وملكوته. أيتها النفوس المحبوبة، إياكم أن يتطرق الشك إلى قلوبكم من جهة هذا الملكوت، حتى وإن كان العالم كله يعتبره مجرد أحلام لكنه حقيقة سوف تنتصر رغم كل الظروف. ويخبرنا الكتاب أن كثيرين من الذين كانوا ينظرون عجائب الصليب رجعوا إلى أورشليم في عجب شديد وهم يقرعون صدورهم،

وأن حالة أولئك القوم تريك كيف يكون الاستعداد ليوم (الجمعة العظيمة) فكونوا حريصين أن تقدموا الاكرام والخضوع الذي يليق برب وملك شُهد له بقوة وهو على الصليب.

(٥١) طعنة الحربة

إذ نعود إلى مشهد الآلام فوق الجلجثة نجد تغييراً عظيماً قد حدث، الصمت المطبق يخيم على الصلبان الثلاثة، والموت نشر أجنحته السوداء على المصلوبين، وتفرق الجمع الذي كان محتشداً في مكان الصليب وهم في تأثر عميق وندم بالغ، ويبدو أنه حتى الرفقة القليلة من النسوة المخلصات بعد أن كدن يقعن حائرات من فرط الحزن والألم قد رجعن إلى المدينة، ولذلك لا نجد هناك سوى الحراس الرومان ومعهم التلميذ الذي كان يسوع يحبه الذي بعد أن آوى مريم في بيته الآمن لم يستطع أن يقاوم الرغبة الشديدة في العودة ثانية للمكان حيث كان من تحبه نفسه معلقاً على الصليب، ومن تريده أن يكون شاهداً للمشهد الأخير في الجلجثة أفضل من هذا التلميذ اليقظ الذي له العواطف المقدسة، إنه يدون لنا بكل بساطة ما رآه.
أما الكهنة والفريسيون الذين اعتادوا أن يصفوا عن البعوضة ويبلعوا الجمل، فإنهم ينصرفون عن الجريمة الدموية التي ارتكبوها إلى الاهتمام بعادة كانت سائدة في إسرائيل تقضي برفع أجساد المذنبين من على الصلبان ليُدفنوا قبل أن تغيب الشمس، وهذه العادة كانت تستند إلى وصية إلهية تقول: "«وَإِذَا كَانَ عَلَى إِنْسَانٍ خَطِيَّةٌ حَقُّهَا الْمَوْتُ، فَقُتِلَ وَعَلَّقْتَهُ عَلَى خَشَبَةٍ، فَلاَ تَبِتْ جُثَّتُهُ عَلَى الْخَشَبَةِ، بَلْ تَدْفِنُهُ فِي ذلِكَ الْيَوْمِ، لأَنَّ الْمُعَلَّقَ مَلْعُونٌ مِنَ اللهِ. فَلاَ تُنَجِّسْ

أَرْضَكَ الَّتِي يُعْطِيكَ الرَّبُّ إِلهُكَ نَصِيبًا" (تث ٢١: ٢٢، ٢٣). وهذه الوصية الغريبة كان يصعب علينا كثيراً تفسيرها لو لم يقدّم لنا روح الرب المفتاح لها، وإذا أن الله يعد الذين يعلّقون على الخشبة أنهم ملعونون منه فقد دفعت هذه الحقيقة المعتبرين في إسرائيل أن يستنتجوا أن الوصية ترمز إلى شيء معيّن، لأن الإنسان الشرير الذي لا يُقدّم للموت بهذه الوسيلة لا يمكن اعتباره أنه أقل لعنة من آخر يعلّق جسده علناً أمام الجميع، ومن هنا نجد أن الوصية الإلهية بدفن الجسد والوعد المتضمن فيها: أن تواري اللعنة من على الأرض بدفن الجسد، قد أماطت اللثام عن رجاء معزٍ أنه بالحق في الإمكان محو الخطية وإزالتها.

لكن بديهي أن الأمر لا يمكن أن يتم بمجرد دفن المذنبين الذين قضوا نحبهم، لذلك خطرات بالبال الفكرة أن زوال اللعنة بحسب المشورة الأزلية سيتحقق في المستقبل بموت ودفن شخصية بارزة يحيطها الغموض. وهذه الأفكار التي خطرت للمؤمنين من اليهود كانت تتفق مع فكر الله الذي لم يكن يقصد بالوصية الخاصة بدفن المذنبين الذين يقتلون ويعلّقون إلا إشارة عن فداء المسيح في المستقبل: "اَلْمَسِيحُ افْتَدَانَا مِنْ لَعْنَةِ النَّامُوسِ، إِذْ صَارَ لَعْنَةً لأَجْلِنَا، لأَنَّهُ مَكْتُوبٌ: «مَلْعُونٌ كُلُّ مَنْ عُلِّقَ عَلَى خَشَبَةٍ». لِتَصِيرَ بَرَكَةُ إِبْرَاهِيمَ لِلأُمَمِ فِي الْمَسِيحِ يَسُوعَ، لِنَنَالَ بِالإِيمَانِ مَوْعِدَ الرُّوحِ" (غلاطية ٣: ١٣، ١٤). وهنا يقدم لنا المسيح بلا جدال كالذي كان يرمز إليه الذين يعلّقون على الخشبة في إسرائيل، وعلى الصليب حمل اللعنة نيابة عنا وبذلك مات علناً ميته المجرم، ولكنه بعد أن استودع روحه كتقدمة اختيارية بين يديّ الآب فإن اللعنة التي كانت تستقر على

الأرض وعلى سكانها قد دفنت فعلاً مع جسده، ومن ثم فكل من يؤمن به يتحرر من اللعنة ويصبح وارثاً للبركة السماوية التي لا تفنى... ولهذا فكم يبدو لنا المشهد في الجلجثة عميقاً في معانيه! أمّا القوم الذين يقومون بدورهم هناك فهم في الحقيقة لا يعلمون ما هم يفعلونه، ولكن هذا لا يمنع من أن يكونوا منقادين بيد العناية الإلهية. وهكذا نراهم يمضون بنفس واحدة إلى بيلاطس ويطلبون إليه أن تكسر سيفان المذنبين الثلاثة، كما جرت العادة، ويرفعوا ويدفنوا. ولا يتردد بيلاطس أن يجيبهم إلى طلبهم ويرسل للفور ثلة من العسكر إلى ساحة الصليب ليكسروا سيقان المذنبين ويتأكدوا أنهم قد ماتوا فعلاً، وكان هذا يعد عمل رحمة للمصلوبين ليعجلوا بموتهم بأن تكسر سيقانهم بقضيب من الحديد، وبعد ذلك يضربونهم على صدورهم الضربة القاضية. وبعد أن أتمموا هذا العمل مع المذنبين الآخرين جاءوا إلى يسوع وكانت الأدلة تشير بوضوح أنه قد مات، ولم تعد بعد حاجة إلى كسر ساقيه خاصة وأن واحداً من العسكر الرامحين طعن جنبه بالحربة، الأمر الذي كان يكفي بمفرده أن يقضي على القدّوس المتألم حتى لو لم يكن قد فارق الحياة. ويبدو أن هذا العمل ليست له أهمية تذكر، ولكن يوحنا البشير الذي حرص على تدوينه ينظر إليه نظرة مختلفة، فهو يرى في هذه الحقيقة المزدوجة ـ عدم كسر ساق المخلَّص وطعنه بالحربة في جنبه ـ تدخلاً إلهياً تمت به نبوتان من العهد القديم، فيقول: "فِي بَيْتٍ وَاحِدٍ يُؤْكَلُ. لاَ تُخْرِجْ مِنَ اللَّحْمِ مِنَ الْبَيْتِ إِلَى خَارِجٍ، وَعَظْمًا لاَ تَكْسِرُوا مِنْهُ" (خروج ١٢: ٤٦) الذي يشير إليه البشير هنا بصراحة أنه كان يرمز إلى حمل الله الذي يرفع خطية العالم ولأن الخروف كان

رمزاً لذاك الذي كان سيأتي في ملء الزمان فكان ينبغي أن يكون ذكراً، وأن يكون بلا عيب لكي يشير بنوع خاص إلى قداسة المزمور إليه، ولكن أن لا يكسر منه عظم قصد به أن يشير إلى أن المسيح سيقدم نفسه لله كفارة، كاملاً وغير مجزأ، وكل من يرغب أن يكون شريكاً في خلاصه يجب أن يمتلكه بالتمام لنفسه. كما قصد الرب أيضاً أن يعطي علامة إضافية تساهم في التعرف على المسيا عند ظهوره، ويبدو وكأن يوحنا يريد أن يقول لنا: (انظروا فهذه هي العلامة التي سبق التنبؤ بها!) وأما حقيقة بقاء هيكل جسده المقدّس بغير تشويه فهي تضيف برهاناً قوياً أن الذي مات على الصليب هو بعينه حمل الفصح الحقيقي الذي يكفر عن الخطية. وفي طعنة الرمح يرى البشير إتمام نص كتابي آخر، فيستطرد قائلاً: "وَأُفِيضُ عَلَى بَيْتِ دَاوُدَ وَعَلَى سُكَّانِ أُورُشَلِيمَ رُوحَ النِّعْمَةِ وَالتَّضَرُّعَاتِ، فَيَنْظُرُونَ إِلَيَّ، الَّذِي طَعَنُوهُ، وَيَنُوحُونَ عَلَيْهِ كَنَائِحٍ عَلَى وَحِيدٍ لَهُ، وَيَكُونُونَ فِي مَرَارَةٍ عَلَيْهِ كَمَنْ هُوَ فِي مَرَارَةٍ عَلَى بِكْرِهِ" (زكريا ١٢: ١٠). والمعنى الوحيد الحقيقي لهذه الكلمات التي ذكرت بروح النبوة قد صار واضحاً للكثيرين، وسيكون هكذا لكثيرين غيرهم بل للعالم كله، إمّا في يوم النعمة أو في يوم الدينونة، فالذين أنكروا على المسيح حقه في الإكرام اللائق به إمّا أن يستنيروا بالروح القدّس وينظروا إليه بعيون باكية وقلوب ضارعة وإلا فإنهم سيختبرون ما سبق أن أعلنه الرسول في سفر الرؤيا (هوذا يأتي مع السحاب وتنتظره كل عين والذين طعنوه وينوح عليه جميع قبائل الأرض، نعم آمين)

(٥٢) قبر في الصخر

بعد كل المشاهد التي كنا نعاينها، كم هو نافع لنفوسنا الهدوء الذي يسود الجلجثة الآن! إنه بسبب الاستعداد للسبت، ويبدو وكأن أصوات أجراس السبت تصل إلى سمعنا من بعيد. وما رواه البشيرون بالتفصيل عن الظروف التي صحبت رفع جسد الرب عن الصليب ووضعه في القبر والحراسة التي أقيمت على القبر إنما ينشيء فينا شعوراً هادئاً باعثاً للسلام، وهذه هي تأملاتنا الأخيرة في قصة آلام مخلّصنا، فليت سلام الله الذي يفوق كل عقل يكون هو الثمرة الثمينة التي نجتنيها من آلامه وليت الرب يعد قلوبنا لمعجزة قيامته!

لقد خلت قمة الجلجثة من الجموع ولا يبقى هناك سوى فصيلة من الجنود الرومان يقومون بالحراسة، ولسنا نعلم إن كان يوحنا هو الآخر بقى هناك أم لا. السكون العميق يخيم على المكان، وقد أنزلت جثتا المذنبين من على الخشبة ويجري العمل لدفنهما، لكن الفادي المصلوب برأسه المنكس المتوّج بإكليل الشوك لا يزال بمفرده معلّقاً بين الأرض والسماء، من يقوم بدفنه؟ كما يقضي القانون الروماني كان من واجب الجلادين أن يدفنوه في نفس الموضع الذي صلب فيه ولكن الرب جعل الأمور تسير في طريق آخر.

ونترك الجلجثة بضع لحظات قليلة لنذهب إلى المدينة المقدّسة، وفي أحد الشوارع تقع أنظارنا على شخص يهرول مسرعاً في طريقة نحو قصر الوالي الروماني، ويبدو على الرجل أنه يحمل رسالة خطيرة تكشف عنها ملامحه وتدل عليها سرعته، ترى من هو؟ إن أورشليم كلها تعرفه فهو واحد من أبنائها الوقرين، إنه يوسف الذي من الرامة التي

تقع فوق جبال أفرايم، وهو رجل مكرّم يتمتع بثقة أفراد سبطه، وفي نفس الوقت عضو في محكمة العدل اليهودية العليا. السنهدريم، وعلى ذلك فقد كان حاضراً بنفسه أثناء المحاكمة التي أجريت ضد يسوع، وقد اقتنع حينذاك ليس فحسب ببراءة المتهم من كل ما نسب إليه بل وبما هو أكثر من ذلك، إنه (لم يكن موافقاً لرأيهم وعملهم) ولكنه لم تتوفر لديه الشجاعة الكافية ليقف بقوة محتجاً على أعمالهم، وكان ما كان، واقتيد يسوع إلى الصلب.
وتم تنفيذ الحكم بسفك دماه، ولا نعلم إن كان يوسف قد شاهد المنظر من بعيد أم أن أحداً روى له تفاصيل ما حدث. نتصوّره جالساً بمفرده في عليته في أورشليم، ونسمعه يقول بصوت متهدج: (لقد مات الآن! لقد قتلوا ذاك الذي كان ينبغي أن ترتبط به الأرض بآواصر المحبة القوية، ويل للقتلة سافكي الدماء، لقد أخمدوا أجمل نجم ساطع من السماء أطل من السماء إلى الأرض. إنهم لم يكونوا يعلمون ما يفعلون، ولكنني قد عرفت هذه الحقيقة، فلماذا لم أقف في جانبه؟ ولماذا لم أعترف أني تلميذ له؟ لم أحن الركبة له، وتركته يقتل بغير أن أحتج بشدة على هذه الجريمة الدموية! لابد أن هذه كانت لغة يوسف عندما اختلى بنفسه، وينهض فجأة وهو يردد القول: (يا من كان من حقك أن أكرمك في حياتك، ليكن إكرامي لك في موتك مقبولاً لديك). وبعد أن يردد هذه الكلمات يغادر عليته ويترك مسكنه ويمضي بين الجموع التي تتدفق في الشوارع. وماذا كان يرجوه يوسف؟ إنه يتوجه للتو إلى الوالي ليطلب إليه بأن يأذن له ينزل جسد المخلَّص عن الصليب ليدفنه باحترام في القبر الخاص بأسرته ويصل إلى قصر الوالي، وبعد أن يسمح له بالدخول

يمثل أمام بيلاطس ويقول في أسلوب واضح: (لقد جئت لألتمس منك أمراً واحداً أن تعطيني جسد يسوع لأعد له قبراً يليق بكرامته) ولا يُظهر بيلاطس أي دهشة بسبب طلب كهذا يأتيه على شفتي واحد من شيوخ اليهود، وفي الحال يرسل إلى قائد الحرس ويسأله عن الرجال الثلاثة الذين تم صلبهم. وعلى الرغم من مظهر الهدوء التقليدي الذي يحاول بيلاطس أن يظهر به، لكن لا يفوتنا أن نلاحظ أنه يشعر بالاشفاق نحو الشيخ اليهودي الذي يبدو عليه التأثر الشديد. وحتى في دهشة بيلاطس وهو يسمه النبأ أن يسوع قد مات يبدة لي وكأني أرى انعكاساً للهواجس القوية التي لا يقوى على مقاومتها وهو يفكر في ذلك المصلوب، ويلومه ضميره بشدة لأجل مسلكه تجاه واحد قد تأكد تماماً من براءته، ويرى أنه من اللائق بعد أن مات الآن أن يُدفن باحتفال مهيب كما كان يوسف يبغي ويستجيب في الحال لرغباته لما يشعر به في نفسه، ولا يتأخر في أن يعطي إذناً بتسليم الجسد، وكأنه يريد بهذا العمل أن يخفف من عذاب ضميره.
وبعد أن يشكر يوسف الوالي بحرارة يسرع بسرور وكأنه قد حصل على كنز ثمين لكي يشتري أنقى كتان يمكن الحصول عليه وكذا الأدهان والأطياب الكثيرة الثمن. ولو كان العالم كله قد أراد أن يعرف لمن هذه الأشياء لما تردد يوسف أن يشهد بصوت عال أنها لملكه وإلهه. وعلى الرغم من أن السنهدريم قد يحذره، أو يذهب إلى أبعد من ذلك فينذره بفصله من وظيفته أو ما قد يصل إلى أردأ من ذلك، لكن يوسف قد عزم أن يعلن جهاراً أنه لأجل ملكه وإلهه رئيس السلام يقوم بهذا الاستعداد للدفن، كما يذكر البشير عنه

أنه (تجاسر ودخل إلى بيلاطس) إنه كان يود بسرور أن يضحي بأي شيء ليسوع لو كان ذلك يعوّض عما أهمل أن يفعله له في حياته.
ونتركه لنعود إلى موضع الصليب. انظروا من هو هذا الذي قد وصل الآن إلى المكان؟ إننا نعرف الرجل الذي يقف في خشوع وبلا حراك تحت الصليب وهو يتطلع بعينين دامعتين إلى المتألم الذي فارق الحياة، ويوسف يعرفه كزميل له نفس الروح لأنه هو الآخر يندم على نفس الخطأ، ويرغب مثله من كل القلب أن يعوض عن غلطته، فمن هذا الغريب الذي جاء ليتأمل في الصليب؟ إنه نيقوديموس زميل يوسف في الوظيفة، ذلك الفريسي الذي جاء إلى يسوع راعياً في المعرفة وساعياً للخلاص، ولكن ليلاً، لأنه هو أيضاً قد تساوى فيه الخوف من اليهود مع محبته للحق، وهو بالمثل قد حطم الآن قيود العار التي قيدته، وإننا بالحق نشاهد أموراً عجيبة تحدث تحت ظلال الصليب.
كيف انفتحت عيونهم فجأة؟ إن روح الإله الحي هو الذي فتح عيونهم لتظهر بذرة الإيمان في مجد ونضوج كامل بعد أن ظلت مخفية طويلاً، وكأنها كانت مكبلة أو تحت المدر. ومن خلال السحب الرعدية التي اكتست بها سماء الجلجثة فاضت نعمة غنية، ومن ثم كان ما نراه يستعلن في قوة وحرية. وبعد أن وقف نيقوديموس يتأمل حيناً في منظر الصليب الذي أذاب قلبه يصل يوسف أيضاً إلى قمة الجلجثة ويرحب قلبياً بزميله الذي له نفس الفكر والحس، وبعد أن يتكلما معاً ويُعرفا الحرس بالإذن الذي حصلا عليه من الوالي يشرعان في العمل المؤلم. ونراهما الآن وهما يهبطان من فوق الجبل يحملان الجسد المبارك، وتسير الجنازة بلا

طلقات من المدافع، ولكنها تتميز بلطف وشجاعة الرجلين اللذين يحملان الجسد، وليس من نغمات حزينة ترافق الموكب الهادئ ولكن في المستقبل سيحتفل به أكثر من ذلك بكثير، فكم من الأبراج في وقتنا الحاضر تنبعث منها أصوات الأجراس مجلجة في نغمات حزينة على مدار السنة في اليوم الذي تقدّس للاحتفال بذكرى موت يسوع ودفنه! وليس من مرثاة مبكية أو مشاعل جنائزية ترافق الموكب، وهل توجد مشاعل أعظم من التي أضرمتها المحبة التي انبعثت من السماء وستظل تتقد بغير أن يخبو ضياؤها! ثم اصغوا، إن المشهد لا تنقصه كلمة تأبين فقد تكلم بها راءٍ ملهم قبل ذلك بقرون عديدة، إنه إشعياء النبي الذي قال: "وَجُعِلَ مَعَ الأَشْرَارِ قَبْرُهُ، وَمَعَ غَنِيٍّ عِنْدَ مَوْتِهِ. عَلَى أَنَّهُ لَمْ يَعْمَلْ ظُلْمًا، وَلَمْ يَكُنْ فِي فَمِهِ غِشٌّ" (إشعياء ٥٣: ٩). لقد وصلنا الآن إلى المكان، وندخل إلى بقعة من الأرض منعزلة تحاط من بعض جوانبها بالأحجار، وتلقي الشمس عليها آخر اشعتها قبل الغروب، ويرسل سفق المساء أول ظلاله الباردة. وفي هذه الخلوة الهادئة يدخل القدّوس إلى آخر مكان راحة له على الأرض. إن الذي لم يكن له أين يسند رأسه لم يكن يمتلك قبراً لنفسه، ولذلك لزم الأمر أن يعار قبراً لأجل فترة راحة قصيرة، وكم حسب يوسف نفسه سعيداً أن يكون له الشرف أن يعد له قبراً وكم يسره أن يدخل سريعاً عندما تحين ساعته الأخيرة ليكون في موته في شركة وثيقة مع ذاك الذي تخلى عنه في غير شجاعته وهو في حياته! وعندما يصل الصديقان إلى البقعة الصخرية وهما يحملان الجسد الغالي يجدان أن المشهد لا تنقصه حاشية من المشيعين، فقد كانت النساء المخلصات مريم

المجدلية، ومريم أم يوسى وكثيرات غيرهما يتبعنهما عن بعد لأنهن أيضاً كمن يرغبن أن يعرفن الموضع الذي سيوضع فيه من كان موضوع رجائهن ومحبتهن. ويرحب يوسف ونيقوديموس بهن ترحيباً قلبياً، ويقبلان بسرور معاونتهما في الدفن، ويوضع الجسد المقدّس على الأرض برفق، وتغسل النسوة بدموعهن أكثر مما بالماء الذي أحضرته بقع الدماء من على رأسه وصدره، ويملأ الرجلان الكتان الأبيض النقي الذي سيلف فيه الجسد بالمر والصبر وبكثير من العطور الثمينة التي أحضرا منها قدراً كبيراً. فقد أحضر نيقوديموس وحده ما يزن مائة رطل منها. وبعد لف الجسد بلفائف الكتان كما جرت العادة يلقون نظرة أخيرة على وجه الميت الشاحب رغم ذلك كان يبدو في بهاء، ثم يغطونه بالمنديل. ولم يتنبه بعد العمل في الدفن، ولكن اقتراب السبت جعلهم يؤخرون عملية التحنيط إلى ما بعد العيد، وأن يتركوا الجسد إلى حين بهذه الأعمال الأولية التي كانت بدافع المحبة. ولو كانت مريم أخت لعازر ضمن هذه الجماعة لابد أنها كانت تتذكر أن الأمر لا يتطلب مزيداً من الحنوط لتوضع على جسد المعلّم إذ أنه بنفسه قد أكد لها أنها بيديها قد سبقت فدهنت جسده بالطيب ليوم الدفن. ومرة أخرى يرفع الصديقان جسد الحبيب ويحملانه برفق وخشوع إلى داخل القبر الجديد المنحوت في الصخر ويضعانه بلطف ليستريح، كأنه فقط يرقد لينام في محراب مقبب. ومرة أخرى يتطلعان إليه ومعهما النساء في تأثر عميق، ثم يفترقون عنه قسراً، ويغادرون القبر ويدحرجون حجراً عظيماً على فم القبر، ولأن السبت كان يلوح يضطرون للعودة إلى بيوتهم في حزن عميق. وهناك يرقد لينام، وخير لنا أنه بإرادته عبر هذا الطريق المظلم لأجلنا! ولم يكن ما

يمنعه أن يأخذ حياته وهو على الصليب ومن هناك يعود تواً للآب، ولكنه لو فعل ذلك لكانت أجسادنا قد تُركت في القبر. وتعرفون كم تعودنا أن نخاف من القبر أكثر من الموت نفسه، فهناك يسود الفساد، وكأن لعنة الخطية لا تزال معلّقة فوق رؤوسنا، وكأن الفداء لم يُصنع، وهو لكي يطرد هذا الخوف ترك نفسه يوضع في القبر أمام عيوننا، لكنه لم ير فساداً لأنه لم يكن خاطئاً. وهكذا قال داود مسوقاً بروح النبوة: "لَنْ تَدَعَ تَقِيَّكَ يَرَى فَسَادًا" (مز ١٦: ١٠)

لكن أجسادنا التي سممتها الخطية من الضروري أن تمر بمرحلة حبة الحنطة النابتة، وأن تتحلل إلى عناصرها الأصلية قبل أن تتمجد. ويكفي أن نعرف أن أجسادنا لا تُفقد في القبر وإنما تستريح هناك على الرجاء، وهذا قد صار مؤكداً ومضموناً في المسيح. فالطريق الذي رأيناه يمضي فيه سنسلكه نحن أيضاً، وما استحقه كابن الإنسان بسبب طاعته صار مستحقاً لنا نحن أيضاً بسبب هذه الطاعة، لأن المسيح قد أطاع نيابة عنا. ومن ثم، فإن كانت راحة آدم الثاني في القبر مجرد قضاء السبت في سلام فإن راحتنا لن تكون غير ذلك، وإن كان اليوم الثالث قد خرج من السجن الذي أغلقه عليه ملك الأهوال ثم خرج بالمجد والكرامة فإن نفس الشيء ينتظر أجسادنا في ملء الزمان، إن صرنا متحدين معه بالإيمان والمحبة. وإن كنا من الآن نقول إن المسيح بدفنه قد أنار ظلمة القبر فنحن إنما بأمور تسمو عن كل خيال وتصور بشري. ويكتب الرسول بولس قائلاً إن أجسادنا ستقام ثانية، لأنه إن لم تكن قيامة للأجساد فلا يكون المسيح قد قام "فَإِنْ لَمْ تَكُنْ قِيَامَةُ أَمْوَاتٍ فَلاَ يَكُونُ الْمَسِيحُ قَدْ قَامَ!" (١كو ١٥: ١٣). أجل، إن أولئك الذين

اُشتروا بدم الحمل يستريحون في مضاجعهم تحت أجنحة القدير، وفوق رفاتهم يلقي الرجاء الإلهي نوراً ساطعاً مغيراً الهيئة... وعلى ضوء حقيقة موت رئيس السلام يقترب رجل موقّر في صمت خاشع، إنه بولس الطرسوسي، ليكتب على لافتة القبر عبارات قوية يمكنك أن تقرأها (رومية٦) موضحاً أننا لم نمت معه فحسب، بل أيضاً دفنا معه. ولكن كما صرنا متحدين معه في شبه موته، نصير أيضاً بقيامته، فما معنى هذا القول؟ إنه لا معنى أقل من أن المسيح قد تحمل لعنة الخطية على الصليب لأجلنا، "إِذًا لاَ شَيْءَ مِنَ الدَّيْنُونَةِ الآنَ عَلَى الَّذِينَ هُمْ فِي الْمَسِيحِ يَسُوعَ" (رو ٨: ١)، لكن على الرغم من تجديدنا لازلنا نحمل في أنفسنا بقايا الطبيعة العتيقة الخاطئة. وهذا هو صليبنا وسبب كآبتنا مما يدفعنا للتساؤل في قلق: "وَيْحِي أَنَا الإِنْسَانُ الشَّقِيُّ! مَنْ يُنْقِذُنِي مِنْ جَسَدِ هذَا الْمَوْتِ؟" (رو ٧: ٢٤). ليت الله يعطينا أن نقول مع الرسول "أَشْكُرُ اللهَ بِيَسُوعَ الْمَسِيحِ رَبِّنَا!".

وانتهت الليلة التي تبعت اليوم العظيم الحافل بالأحداث، ويرقد جسد الفادي بمفرده في سجن القبر، ويشرق الصباح وإذا بحركة وضوضاء تسمع حول القبر، لم يكونوا أصدقاء الميت المحبوبين الذين نراهم يسرعون باكراً إلى البستان. كلا لأن هؤلاء قد اعتادوا أن يطيعوا كل وصية، فظلوا في بيوتهم طيلة يوم السبت العظيم، ولكنهم الأعداء الذين نراهم في نشاط وحركة مع أول شعاع ينبعث من فجر ذلك اليوم. ففي الليلة السابقة وقع عليهم رعب مفزع، وتراءت لضمائرهم الشريرة المضطربة خيالات وأحلام، وتذكروا الأقوال الكثيرة التي تكلم بها الناصري عن قيامة سيمجده بها أبوه السماوي بعد صلبه أمام أنظار العالم كله، وتظاهر هؤلاء

المراءون أنهم أبعد ما يكونون عن افتراض حدوث مثل هذه التخيُلات الوهمية، بيد أن قلوبهم تعتقد بغير ذلك. وهكذا يظهر يسوع حتى في موته بعظمة تأثيره على أذهانهم، ويُخفيهم قبره بجلاله ورهبته، فيمضي رؤساء الكهنة والفريسيون في غير مبالاة بالسبت أو بعيد الفصح إلى قصر الوالي ليحملوه على اتخاذ كل حيطة لحراسة قبر يسوع المصلوب، ويدخلون إلى محضر الوالي الذي لا يظهر عجبه مطلقاً بسبب هذه الزيارة المبكرة التي قام بها رؤساء إسرائيل. ويقولون له: (يا سيد، قد تذكرنا أن ذلك المضلّ قال وهو حي، إن بعد ثلاثة أيام أقوم (وهكذا يؤكدون أنه بالحق قد صرّح بذلك) فمُر بضبط القبر إلى اليوم الثالث لئلا يأتي تلاميذه ليلاً ويسرقوه ويقولون للشعب إنه قام من الموات فتكون الضلالة الأخيرة أشر من الأولى). ولاحظوا كيف يحاول هؤلاء الشرار بخداع أن يخففوا أفكارهم ومشاعرهم الحقيقية. والمرء قد يظن أنهم حقيقة يخشون خدعة قد تحدث ولكن إن كانوا فقط يريدون أن يمنعوا التلاميذ المساكين من أن تصل أيديهم إلى الجسد، فهل كان هذا يتطلب كل الاحتياطات التي طلبوها؟ ولكن المعجزات العظيمة التي رأوها تُجرى على يدي الإنسان الذي صلبوه جعلتهم يعتقدون أن كل شيء ممكن حدوثه، والأحداث المفزعة التي صاحبت موته عملت على زيادة خوفهم وقلقهم. إنهم الآن يحسون بنسمات فجر القيامة ويخافون لئلا يقوم الجسد المدفون. ولكن إن حدث هذا، فماذا يفيد وجود الحراس، وهل يجدي الجير والملاط الذي أرادوا أن يثبتوا الحجر به... ولكن الخوف أحمق، والخطية عمياء وتتلمس سبيلها في العتمة مهما ظنت في نفسها من

الحكمة. ربما أحس بيلاطس في نفسه بإحساس غريب يهزه وهو ينصت إلى أقوال رؤساء اليهود، وفي الحال يجيبهم إلى طلبهم: (عندكم حراس اذهبوا واضبطوا كما تعلمون).. ولم يكن سرورهم قليلاً بالتفويض الذي حصلوا عليه من الوالي لإتمام قصدهم، فيعودون بصحبة الحرس الروماني إلى بستان يوسف الرامي، وبعد أن تأكدوا من أن الجسد لا يزال في موضعه أعادوا وضع الحجر على فم القبر مثلما كان وشرعوا يثبتونه ويختمونه... إن الأعداء يتصرفون وكأنهم هم المنتصرون، ولكنهم في الحقيقة منهزمون في الداخل. إن أسد يهوذا النائم قد انتزع منهم سلاح الثقة، وملأ نفوسهم بالفزع والهواجس المخيفة. وماذا يقصدون باستعداداتهم الضخمة؟ إنهم يجاهدون لنصره الموت على الحياة، ويودّون بسرور أن يثبّتوا أقدام الموت ويدعّموا عرشه، وأن يطيحوا بعرش الحياة أو يحيطون بسياج. دعوهم يفعلون أقصى ما يمكن أن يصل إليه تفكيرهم، إن إلهاً له سلطان على الكل هو الذي يتحكم في تدابيرهم، ويسمح لهم أن يقووا الموت بأن يزيدوا الأغلال التي تقيد النائم في قبره، حتى يظهر تحطيم هذه القيود بصورة أمجد، ولذلك فقد تركهم يحاولون تجريد الحياة من كل أمل في رجوعها، ويحيطون كل مخرج بأسوار عاليه، حتى عندما تخرج الحياة بالرغم من كل الحواجز تظهر بالحق أنها حياة الله.

ونغادر مكان القبر الذي يرقد فيه الرب ليس في حزن وأسى، ولكن ونحن نمتلئ بالفرح لما نتوقع حدوثه بعد وقت قصير، ونحن نرى بالروح الشعاعة الأولى من فجر القيامة تنعكس من على القبر الصخري، ولم يتبق سوى أربع وعشرون ساعة ويضرب بوق الله، ويزاح الستار في بستان يوسف

الرامي عن مشهد جديد مختلف تماماً، ويفك كل ختم ليس فقط من على قبر الفادي، ولكن من على كل أسرار آلامه. وتأتي (آمين) من العالي بصورة أمجد وأعظم من كل مرة سمعت فيها تحت السماء، لتعلن للعالم أن الصلح قد تم وأن رئيس الحياة المتوّج بالمجد والكرامة، الغالب الذي قهر كل القوات المخيفة المعادية لنا، يرسل من بين حطام قبره المهشم التحية الأولى لعيد القيامة، تحية السلام للجنس البشري المنعم عليه. فدعونا نشد أوتار قيثاراتنا، ونمسك بأكاليل العيد في استعداد ونحن ننتظر اللحظة الحاسمة التي سوف تضع نهاية أبدية لكل الحزن والقلق الذي استولى على قلب الإنسان.

رقم الإيداع ٢٧١١ /١٩٨٥